

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01043 3500

١٥٠٥٦١٧٩٩



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

Y

نظام البريد في الدولة الإسلامية

HE
7316
S3x
1953

تأليف

دكتور نظير حسين سعداوي

مدرس أول المواد الاجتماعية
بمدرسة المعادي الثانوية النموذجية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٥٣ م - ١٣٧٢ هـ

يطلب من مكتبة مصر بالقجالة والمكتبات الشهيرة

٣٠

دار مصر للطباعة

٤٠ شارع كامل صدق (القجالة)

282, 202
N. N. 5

39643

تصدير

للاستاذ عبد الحميد العبادي

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقا

أما بعد فهذا كتاب في « نظام البريد في الدولة الإسلامية » تقدم به مؤلفه الأستاذ نظير حسان سعداوى منذ نحو عشر سنوات على هيئة رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ولقد أنالته الرسالة المذكورة الدرجة التي تطلع إليها ثم منحت به همته أخيرا إلى أن ينشرها ليعم بها النفع ، فنشرها لأول مرة في هذا الكتاب بعد أن استدرك أشياء كانت قد فاتته عند إعداد الرسالة .

وغير خاف أن نظام البريد كان من أهم أنظمة الدولة الإسلامية القديمة ، عنى به الخلفاء والسلاطين من أول أمرهم حتى نهايته أعظم العناية ، وكانوا في ذلك إنما يحدون حذوا كاسرة الفرس وقياصرة الروم الذين كانوا يرون في هذا النظام دعامة من أقوى دعائم ملكهم العظيم .

ومع أن الكتاب با كورة بحث المؤلف فقد ألم فيه بأطراف الموضوع ، واستعان في جمع مادته بأمهات المراجع والمطان بين عربية وأجنبية ، وأدرك منزلة نظام البريد من إدارة الدولة الإسلامية ، ثم عرض خلاصة إطلاعه وبحثه عرضا شيقا جذابا .

وإني لأرجو أن يتابع الأستاذ المؤلف البحث في نواح من « نظام البريد » لم يتسع المقام لاستيفاء بحثها في هذا الكتاب ، ففي ذلك استكمال للموضوع الأصلي ، وإسهام منه في بحلية جانب من جوانب الحضارة الإسلامية الخالدة .

رمل الإسكندرية

٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٧٢ هـ

٣١ يولية سنة ١٩٥٣ م

عبد الحميد العبادي



نظام البريد في الدولة الإسلامية

تمهيد

عندما قررت الشروع في الاستعداد لكتابة رسالتي التي أتقدم بها اليوم للحصول على درجة الماجستير اتجه فكري إلى اختيار حادثة تاريخية مشهورة ، أو شخصية فذة من شخصيات التاريخ الإسلامي أجعلها موضوعا لرسالتي ، لما في ذلك من السهولة من ناحية والمتعة من ناحية أخرى ، فضلا عن غزارة المادة التي يمكن الإنسان أن يستعين بها . . . غير أن حضرة أستاذي الجليل عبد الحميد العبادي عميد كلية الآداب بالإسكندرية والمشرف على البحث اقترح على موضوع رسالتي وأعجب به « نظام البريد في الدولة الإسلامية » وظل متمسكا باقتراحه وهو « نظام البريد . . . » وراح يعدد لي أهمية الموضوع وما فيه من جدة وطرافة . وكانت حجته الكبرى أننا لن نتقدم في دراستنا العلمية إذا ظل الطلاب يتخيرون السهل من الموضوعات وينصرفون عن الهام منها بدعوى صعوبته . كما أنه رأى أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى هذا النوع من البحوث وأعنى بها البحوث التي تكشف لنا عن كنوز الحضارة الإسلامية في عز العرب ، وما أوجبنا إلى الرجوع إلى منابع وأصول تلك الحضارة ونحن في بدء نهضتنا العلمية التي تعتبر في دور طفولتها الأولى . . . وأخيرا انتهيت إلى الاقتناع باختيار هذا الموضوع وتبدد ترددي وبدأت مباحثي تحت إرشاد أستاذي ، ولكني لم أكد أمضي في هذه المباحث التمهيدية حتى عدت إلى ازوراري عن الموضوع وتمنى الخلاص منه — ذلك أنني لم أجد إلا عبارات مختصرة وكلمات مقتضبة هنا وهناك لا تكاد تشفي غليلا . . . وبدأ الموضوع بالنسبة إلى جافا وسقما عندما شرعت أستعرض كتب المسالك التي تشير إلى مراحل الأسفار المختلفة والمسافات بين بلد وأخرى ومقدارها وعددها واختلاف وحدة القياس باختلاف الكتب . . . وهي لا تكاد تنتهي وكأنه لا أول لها ولا آخر وهي تسير على نمط واحد وأسلوب ممل وعلى هذا القياس تجري صفحات طويلة عريضة بل وفصول كاملة تؤلف مجلدات — هنا ويجب أن أعترف أنني بدأت أقف في الحظ تماما واعتزمت عزمي نهائيا أن أترك هذا الموضوع وأبحث عن موضوع آخر وأن أعلن أستاذي عجزى عن الاستمرار في الموضوع الأول فبدأت أتحين الفرصة لإخباره بهذا

القرار ولكن هذه الفرصة لن تسنح أبداً؛ فقد كان الحجل يحول بيني وبين إبدائها خاصة وأنه كان يواليني بالتشجيع ويشير لي في كل يوم إلى كتاب جديد أنجه صوبه وأستعين به ، فكنت لزاماً على أن أحضر هذا الكتاب الجديد وأقف على ما فيه فأرى فيه طرفة جديدة أو مادة تاريخية مشوقة ، وفكرة مستلحة أكثر مما قرأت في الكتب الأولى فلما تكرّر هذا أكثر من مرة بدأت أشعر أن عناصر موضوعي بدأت تبدو على « الأفق » وأن الموضوع الذي كان يبدو لي ظلاماً حالكاً بدأت بعض أشعة النور تنفذ إليه من هنا وهناك فأدخل في نفسي ذلك شعاعاً من الأمل وقررت إرجاء إنفاذ قرارى بالعدول عن هذا الموضوع ، وساعدني على هذا الإرجاء سفر أستاذي إلى العراق منتدباً للتدريس في معاهدها في مارس ١٩٤٢ .

ومن ثم دأبت على مطالعة هذه الكتب التي أرشدني إليها الأستاذ والتوسع في قراءتها بدلاً من الوقوف عند حد الفقرات المعينة المكتوبة تحت عنوان البريد؛ فبدأت أرى في ثنايا السطور ومن خلال الموضوعات المختلفة إشارات صريحة أحياناً وغامضة أخرى أو ضمنية لموضوع البريد ، ولكن من شأنها أن تزيد في مكامل هذه الصورة التي بدأت تتكون في نفسي . . . شجعتني ذلك على القراءة والتوسع فيها والانتقال من كتاب إلى كتاب وتتبع الخيوط المختلفة التي تؤدي إلى لب الموضوع؛ وسرعان ما وجدت نفسي غارقاً في صميم الإمبراطورية الإسلامية بمختلف نظمها ومؤسساتها . . . سرعان ما وجدتني أنتبع تطور هذه الإمبراطورية منذ نشأت إلى حين شبت وترعرعت . . . سرعان ما وجدتني أذرع هذه الإمبراطورية شرقاً وغرباً فأذهب مع الداهيين إلى حدود سور الصين العظيم ثم أندفع غرباً سائراً في هذا الطريق الذي أوصلنا حتى تخوم البحر الأبيض الشرقية ثم أهبط إلى الجنوب مخترقاً فلسطين حتى أصل إلى فسطاط مصر ثم أصعد منها إلى الإسكندرية وأضرب غرباً نحو برقة وشمال أفريقية حتى أطل على المحيط الأطلسي ، وأعبر هذا المضيق الذي خلده ذكرى فاتحة وفتوح به جبل طارق لأستنشق عبير الأندلس جنة الدنيا في ذلك التاريخ ولأستظل بمحاذيقه الغناء وقصوره الشامخ ، ولأذرع بقدمي أرض قرطبة والزهرات وغرناطة والحراء وهي كأمشال الدرر المتلاثلة أو المشاعل المضيئة التي بددت دياجير الظلمات في أوروبا وبلدانها في هاتيك القرون وأراني أقفل في رحلتي على ظهر سفينة من السفن التي ترفع العلم الإسلامي المكتوب عليه عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فتخترق البحر الأبيض المتوسط كأنها تجتاز بحيرة إسلامية بجمّة ؛ فما من ميناء على شاطئه إلا وكان تحت سلطانها أو يخشى جانبها وإذا بي أمر على جزائر البحر الأبيض المتوسط كلها

ابتداء من قورسقية وصقلية حتى مالطة وكريت ورودس وقبرص ؛ وكلها جزر تخضع
 للسلطان العربى والدولة الإسلامية فى مظهر من مظاهرها ، حتى إذا ما وصلنا إلى موافى
 المشرق فى الشام وواصلنا طريقنا من جديد إلى بغداد مخترقين دمشق الفيحاء إذ بنا
 لم نكمل رحلاتنا بعد فهناك طرق أخرى لا يزال علينا أن نمضى فيها وأن نتبعها فقد
 ضربنا من بغداد شرقا وغربا ؛ ولا يزال علينا أن نمضى فيها جنوبا حتى هذه البصرة الميناء
 العربى الذى كان أول مدينة خطت فى الإسلام حيث تشرف على الخليج الفارسى
 أو بالأحرى الخليج العربى فى هذه الأيام . فكل ما يبسط من أراض يقع فى تخوم
 دولة الإسلام . . . فإذا امتطينا منه سفينة سارت بنا إلى بلاد الهند وطوفت بنا حول
 الهند كلها ودارت حول جنوب آسيا ، ثم صعدت بنا شمالا إلى الصين لنرى استقبالا حافلا
 ينتظرنا وكرما واحتراما يلقاه كل عربى ومسلم يقصد هذه البلاد المفتوحة الأبواب
 لمتاجره وعلومه . . . ولا غرو فلم يكن فى الدنيا فى ذلك التاريخ سوى إمبراطورية واحدة
 هى إمبراطورية المسلمين تصانعها الدول وترهب جانبها الشعوب . والسعيد السعيد من
 حظى بمحالفتها والتعاون معها . وقد أستطيع أن أخترق الصين لأصل من جديد إلى
 تخوم الدولة الإسلامية فأعود برا مخترقا آسيا كلها من مشرقها إلى مغربها فى ظل نظام
 البريد العتيق الذى كان له الفضل الأكبر فى قيامى بتلك الرحلة العظيمة إذ مهد لى سبل
 الراحة فى أثناءها . فى كل طريق كنت أجد منازل على مسافات معينة مزودة بالماء
 والزاد . . . وفى كل منزل يستقبلنى رجاله بخفاوتهم وكرمهم البدوى ويمدونى بدابة
 من دواب البريد جملا كانت أو بغلا أو حصانا ، أمتطيها إلى المحطة التى تليها فأستبدل
 بها أخرى . . . وإذا ما تعذر الحصول عليها سار معى أحد سعاته كى يرشدنى الطريق
 ويهدينى السبيل ويقاسمنى حمل أمتعى . . . ولم يكن هناك ما يزعجنى أو ينزل الرعب
 فى قلبى أثناء تجوالى ؛ فجماعة من طين التحصين فى أربطهم على حدود الإمبراطورية
 وفى قلبها . . . وتعدد المناور هنا وهناك بمشاعلها ونورها ودخانها . . . ودق الطبول
 بين الأودية والجبال من وقت لآخر . . . كل ذلك كان بمثابة المصاييح فى الطرقات العامة
 بددت الوحشة والظلمة وأبعدت اللصوص والوحوش . . . وهذا ما استعرضته للقارىء
 واضحا فى الفصل الرابع والخامس والسابع من الرسالة .

هذا ما وجدتنى غارقا فيه فى أثناء مطالعتى وبحثى خلف مادة أضعها رسالتى عن
 البريد . ما أعجب ما ابتدأت به بحثى عن موضوع البريد ، وما أعجب ما انتهيت
 إليه فيه . . . بدأت متشائما قلقا متضايقا يائسا عن العثور عن شىء كلى وشيق ومفيد

وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لو لم يقيض لي اختيار هذا الموضوع لخرجت بصفقة المغبون من دراساتي ، ولما أتيت لي هذه الفرصة الواسعة لاستيعاب العظمة الإسلامية في عصورها الأولى ، ولما استطعت أن أكون فكرة عن هذا التراث العربي العظيم الذي خلفه لنا أجدادنا والذي تجنى الإنسانية ثماره في هذه الأيام ؛ بينما قد جهلناه نحن فخرنا الانتفاع بشمراته وتخلفنا بالتالي في منتصف الطريق ورحنا نتطلع إلى الغرب نطلب الاستجداء بأعين مشدوهة وأنفاس مهورة . . . وهو عين ما كان يفعل الغرب في القديم عندما ينظر إلى مدينة الشرق الإسلامي يعيش إلى ضوئها ويحوم حولها ويعمل على الاغتراف من مناهلها حتى إذا أكمل استيعابه لها عن طريق احتسكاكه المتواصل بها في الشرق إبان الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون عرف الغرب من أحوال الشرق ما لم يكن يعرف . . . وفي أقصى الغرب في الأندلس عندما كانت بعثات الأوربيين تتوافد عليه فتستقي العلم من مناهله . . . عندما كانت اللغة العربية هي لغة العلم في أوروبا . . . عندما كانت كتب ابن رشد هي أساس النهضة العلمية الجديدة في أوروبا . . . عندما بدأت أوروبا تضع قواعد إصلاحها الديني والعلمي والأدبي على أسس هذه الحضارة الإسلامية .

أجل ما أعظم الشبه بين الشرق اليوم في تطلعه نحو الغرب ، وبين ما كان عليه الغرب بالأمس من تطلعه نحو الشرق ، ونحن أقوياء الأمل وفي نفوسنا إيمان عميق بأن الساعة قد حانت من جديد ليقظة هذا الشرق واستعادة مجده القديم . . . هذا المجد الذي رأيته في أروع صورته ، وأنا أدرس موضوع البريد . فالحق أنني مدين بدين عميق لأستاذي الذي اختار لي هذا الموضوع ، مدين له برفقه بي وتشجيعه المتواصل وإلحاحه على ضرورة المثابرة والمتابعة والكفاح . . . ولولا هذا لما قدر لي أن أتعلم ما تعلمت ، وأن أقف على ما وقفت وأن أساهم كمصري عربي بقدر ضئيل في جلاء غوامض النظم الإسلامية وتقريبها إلى متناول البحث الحديث في العربية ، لنستطيع أن نتخذها دائما أبدا أساسا في أعمالنا ، ونقطة البدء لتطورنا فنصل حاضرنا بماضيها ، ونبنى مستقبنا على أساس استخلاص الصالح من كليهما ، والتطور به في سبيل الكمال . . . فما من نظام في العصر الحديث . ما من اختراع مفيد . ما من فكرة علمية مستحدثة إلا وهي ثمرة من ثمرات التطور المتواصل وجهود الإنسانية المجتمعة المتكاملة . . . ولما كانت العرب قد ورثت حضارة الفراعنة والفرس واليونان وصهرتها في بوتقة واحدة ، ثم هضمتها كلها وأعادت صياغتها بإضافات جديدة ، وأكملت الناقصة منها وصححت بعض أخطائها . فإن الإنسانية الحاضرة قد تلقت جل علومها وأنظمتها بعد أن مرت على أيدي العرب والمسلمين وطبعت بطابعهم . ولن

نستطيع أن ندرك حقائق العلوم المختلفة ما لم نلم بتطوراتها . . . الأمر الذي يوجب علينا دراستها عند العرب ، ونظام البريد كسائر الأنظمة يخضع لهذه القاعدة .

فإذا كان البريد في عصرنا الحاضر قد تطور تطورا رائعا ، حتى وصل إلى درجة مدهشة من حيث سرعة إرسال الأخبار والخطابات ، فاستخدم النقل الجوي لنقل البريد ، وأصبح يقطع آلاف الأميال في أيام معدودة ، كما استخدم البرق في إذاعة الأخبار ، فأصبح الحادث يقع في أقصى أطراف المعمورة ، فلا تمضي لحظات قصيرة حتى تكون الدنيا كلها قد عرفت . . . إذا كان هذا الأمر يبدو مدهشا ورائعا ، بل ويمكن أن يكون عنوانا على عصرنا الحديث كله بمعنى أن نصف القرن العشرين ، بأنه قرن اللاسلكي والسرعة . . . أقول إذا كانت هذه النتائج الضخمة التي وصلت إليها الإنسانية في موضوع البريد ونقل الأخبار ، فلا يجب أن ننظر إلى وسائل الماضي باحتقار أو استهجان ، فقد كانت محاولات لا تقل ضخامة عن محاولات العصر الحديث بالنسبة لعصرها ، والحاجة دائما أم الاختراع ، فلم تكن حاجات الأمم في القديم بمثل حاجياتها اليوم ، ولم يكن العالم الجديد بأكمله قد دخل إلى حيز الوجود ، وكان الأمر قاصرا على العالم القديم حول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفي بلاد فارس والهند والصين . ومع ذلك فكما شعر القوم الأقدمون بضغطة الحالة عليهم تدبروا الأمر بوسائلهم ليحلوا المشكلة التي تعترضهم . وقد استطاعوا أن يوفقوا وأن يسدوا الثغرات المفتوحة أمامهم ، فكانوا بذلك يضعون الأساس لما يجد من مخترعات ونظم وتطورات . . . فقد وصل الأمر في عهد الخلافة العباسية إلى تنظيم هذه الشبكة الرائعة من الخطوط البريدية في أنحاء الدولة ، كما سنرى في الفصل الرابع ، وتجهيزها بالخيول الجيدة المخصصة لهذا الغرض ، فكان الخطاب ينطلق كالمسهم من بلدة على حدود الصين ، حتى يصل إلى بغداد دون أن يتوقف في الطريق وهو منطلق بسرعة مدهشة محتسبا زمن وصوله بالساعة واليوم .

ومثل هذا الأمر في ذلك الوقت كان يعتبر سرعة فائقة المقدار ، ولكن هذه الوسيلة سرعان ما تجلى عجزها عن أن تفي بكل الحاجيات كإيصال الأخبار الخطيرة التي تستوجب الاستعداد السابق كهجوم عدو خطير ، فكفروا في استخدام هذه الخاصية الغريبة التي أودعها الله طائرا من الطيور هو الحمام الزاجل ، خاصة رجوعه إلى موطنه القديم ، ولو بعد عنه ألوف الأميال ، فشرعوا في استخدام هذا الحمام لإيصال الأخبار الهامة ، وراحوا يترقون به على مر الزمن ، حتى وصل الأمر به إلى أن أصبح شديدا بالتلغراف والتليفون في أيامنا الحديثة ، فكما تمد لكتلهم الأعمدة من حين لآخر لترفع أسلاكها

وتنشأ المحطات من مكان آخر لتقوية الأمواج الصوتية . . . فكذلك أصبح الحال بالنسبة للحمام الزاجل ، فترى في الفصل السادس الدور الذي قام به في عالم الأخبار قديما وحديثا ، كما نرى المحطات التي أنشئت خصيصا له على طول الطريق ليقطات منها ، فيأخذ بعض الراحة ويستأنف طيرانه السريع البعيد المدى حتى يصل إلى غايته . . . على أن هذا الأسلوب بدوره أصبح قاصرا عن أن يفي بكل الأغراض ، فقد كان هناك من الأخطار الداهية ما يحتاج معه إلى سرعة أكبر لإيصال الأخبار ، مثال ذلك عند ما أصبح العالم الإسلامي مهددا بجيوش التتار التي راحت تفتك في بنيانه وتخرب مدائنه وتطغى بأمواجها المدمرة منذرة بالقضاء على الحضارة الإسلامية كلها . . . هذا الخطر كان يستدعى لاتقائه إجراءات سريعة وشديدة . فسرعان ما أوجدت الضرورة أسلوبا رائعا ينقل الأخبار على وجه السرعة التي تشبه أن تكون سرعة البرق في عصرنا الحديث ، فوضعوا نظاما أوردناه في الفصل السابع والأخير وهو نظام المناور حيث يوقدون النار في أما كن معينة ، فيرى لحيها في أما كن تبعد عنها عشرات الأميال ، فتشعل النار في هذه الأما كن الأخيرة فترى على أبعاد جديدة تشعل فيها بدورها نيران أخرى ، وهكذا كلما رأى مركز النيران في المركز المتقدم أشعل النيران في مركزه ، فلا تلبث النيران أن تتجاوب على طول الطريق حتى تصل إلى مركز الحكومة لتتصرف في الأمر بما ترى . . . وبطبيعة الحال لم يقف الأمر عند حد إشعال النيران ، بل تطورا إلى الاتفاق على رموز معينة واصطلاحات بواسطة هذه النيران ، بحيث يمكن أن يكون لطريقة إشعال النار أكثر من معنى واحد أو بالأحرى ما يقرب من طريقة موز مع فارق التطور والارتقاء . وهكذا وصل القوم إلى ابتكار وسيلة تنقل الخبر الخطير بسرعة انتشار الضوء ، وهي سرعة هائلة من غير شك تقرب جدا من سرعة نقل الأخبار بواسطة التلغراف في مراحله الأولى قبل التطور الحديث .

وفي الفصل السابع أيضا شرحنا طريقة استخدام الطبول والماء في نقل الأخبار . وكانت الطبول غالبا تستخدم في المناطق الجبلية حيث يصعب الاتصال بين الفرق الحربية أما طريقة التراسل بالماء فكانت نادرة الاستعمال في العصور الإسلامية ، اللهم إلا في الوديان حيث مجارى الأنهار . . . وفي أثناء رحلتى السالفة الذكر تاقت نفسي إلى زيارة البلاطين الأموي بدمشق والعباسي ببغداد ، للوقوف على إدارة نظام البريد . ففي دمشق الأموية لمست نظام البريد منذ أن ذرعه معاوية بن أبي سفيان ، وشاهدت الوثائق الأولى التي جمعها عن الرومان والفرس عندما شرع في وضع الحجر الأساس لهذا النظام الذي تعهده بالعناية والإشراف من جاء بعده من خلفاء بني أمية .

أما في بغداد العباسية فيظهر لنا نظام البريد في ثوب آخر وصورة أخرى مغايرة تماماً لما كان عليه أيام الأمويين من حيث الدقة والتوسع والإدارة ، وقد رتب له ديوان خاص منذ أيام الخليفة المنصور ، وهناك نزلت على مكتب صاحب ديوان البريد فاستقبلني بكل حفاوة وترحاب كأنني أنزل بمكتب أحد السادة وزراء العصر الحاضر . طاف معي بمكاتب موظفي الديوان ، فشاهدت نشاطا وبقظة منه ومن موظفيه ، واستأذنته في الحديث عن اختصاصاته وديوانه وعن من يتبعه من الموظفين سواء منهم من بالولايات أو الطرق ومنازلها أو الديوان العام . كما أنه بين لي بالتفصيل طريقة جمع الخرائط من الأقاليم ، وطريقة فضها أمام الحضرة الخليفة . وأفرد لنا جزءا من الحديث عن ميزانية ديوانه ومرتبات عماله ودواب البريد والخدمات التي أداها نظام البريد للدولة سواء في الحرب أو السلم .

وقد أعطينا القارئ صورة واضحة جلية عن هذه التفاصيل في الفصل الثالث من الرسالة ، ومنه يتبين للقارئ مدى ما انطوت عليه الإدارة العربية من حزم ورقابة وصلتنا إلى درجة فائقة من الإحكام والدقة . وفي الفصل الخامس أوردنا نصيب مصر الإسلامية من هذا النوع من النظام الإداري ، ووالينا عصر الظاهر بيبرس على وجه الخصوص بالبحث والعناية ، لأن عصره يعتبر العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامي من حيث تفوقها الحربي والسياسي والإداري على معاصريها من الدول الإسلامية الأخرى . . . أما الفصل الأول فقد أفردناه بكلمتين إحداهما عن معنى كلمة (بريد) والأخرى عن تاريخ البريد عند الأفراد والجماعات البشرية الأولى ، ثم عند الأمم القديمة من فراعة وفرس ورومان ، وإلى القارئ التفاصيل على الوجه الآتي في فصول الرسالة .

بحث في مصادر الرسالة

سوف لا أتناول الكلام على جميع المراجع التي أشرت إليها في ذيل صفحات الرسالة وإنما سأقتصر على الأساسي منها والتي تعدد ذكرها في معظم فصول الرسالة من ذلك كتاب : —

(١) المسالك والممالك : لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة المتوفى سنة ٣٠٠ هـ الذي أمدني بمعلومات تاريخية لها قيمتها العلمية ، ولا سيما فيما يختص بطرق البريد وسككه في أنحاء المملكة الإسلامية ؛ وهي تعطينا فكرة واضحة عن المادة

الجغرافية الأولى عند العرب كما يمثلها ابن خرداذبة في كتابه الذي يعتبر في الدرجة الأولى من الأهمية لأنه أورد نبذاً من كتاب — الخراج وصناعة الكتابة لأبي الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادي — وكلا الكاتبين أخذتا شكل كتب المسالك التي تخصصت في المسافات . وابن خرداذبة يعطينا المسافات بين كل محطة وأخرى على طول الطريق الخراساني الكبير وفروع الطرق الأخرى كما يرى القاريء في الفصل الرابع من الرسالة . وقد سمر هذا الكتاب في رسالتنا كون ابن خرداذبة كان مديراً لمصلحة البريد Postmaster في ولاية الجبال بينما كان قدامة عاملاً للخراج Revenue accountant^(١) لذا جاءت رواية ابن خرداذبة رواية شاهد عيان لا يعتورها الشك ولا النقصان .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : مؤلفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وهو غني عن التعريف لدى قراء التاريخ . ولد ببلدة آمل من بلدان طبرستان في أوائل سنة ٢٢٥ هـ وكانت الرحلة في طلب العلم من لوازمه فانتقل إلى الري فبغداد ثم انحدر إلى البصرة والكوفة فالشام ومصر . كل ذلك بقصد استيعاب ما عند شيوخ هذه البلدان من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بغداد حتى توفي بها سنة ٣١٠ هـ — وكما اشتهر في التاريخ اشتهر كذلك في الفقه والتفسير وكان له مذهب وعرف أنصاره بالجريرية . وكتابه له قيمة تاريخية عظيمة لأنه في الواقع عبارة عن خلاصة تطور الرواية التاريخية عند المسلمين في الثلاثة قرون الأولى ؛ لأنه مات سنة ٣١٠ هـ وهو أدنى كتاب حتى ذلك التاريخ والذي يقرأه يعرف كيف نبتت الرواية التاريخية القديمة ، وكيف تدرجت وتنوعت على هذه الصورة التي يمثلها كتاب ابن جرير وهو بحق بديع في أسلوبه وفي مادته . وقد نقلت عنه نصوصاً كثيرة تشير إلى عناية خلفاء بني العباس بنظام البريد كما تشير إلى عنايته هو أيضاً بهؤلاء الخلفاء والتأثر بهم . ويمتاز كتابه بأنه أتى بنصوص من كتب ضاعت بحيث لو ضاع الطبري لضاع معظم المادة التاريخية الأولى في صدر الإسلام ، وإن كان البعض يعيب عليه عملية النقل والتقييم التي رتبها على السنين ، ولكنني ألتمس له عذراً لعدم وجود وثائق مضبوطة يعتمد عليها في كتابة التاريخ ؛ كما أنه اعتمد في روايته على الثقات من شيوخ العلم . وطبع كتاب الطبري عدة طبعات منها طبعة مصر وطبعة ليدن من (١٨٧٦ إلى ١٩٠١) باعتناء الأستاذ دي غويه وغيره من المستشرقين ويقع الكتاب في ثلاثة عشر جزءاً ، يتلوها كتاب — صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد

الكاتب — في جزء واحد . ويقول الأستاذ بارتلد^(١) أنه قد كتب في بخارى ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور الأول الساماني ، كما ألف في قرطبة للحكم الثاني (٣٥٠ — ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخي مقتبس من كتاب الطبرى مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الشافعي المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٣٤٦ هـ نشأ في بغداد وجاء مصر وساح البلاد ؛ فطاف فارس وكرمان حتى استقر في اصطخر ، ثم قصد الهند والصين . وكتابه تناول تاريخ الخليقة منذ بدءها حتى سنة ٣٣٥ هـ وأتى فيه على جميع نسبة أهل الأنصار من جملة الآثار ، ونقل السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ومن تلاهم من التابعين على اختلاف أنواعهم وتنازعهم في آرائهم من فقهاء الأمصار وغيرهم وطبع الكتاب في مصر وبغداد وغيرها . وهو يلي في الأهمية كتاب الطبرى ، وهما مرجعان أساسيان في تاريخ العصور الإسلامية الأولى ومن جاء بعدها من المؤرخين نقل عنهما وقد اعتمدت على كتاب المسعودي في النصوص الخاصة بدولة الفرس والدولة العباسية .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن أبي بكر البناء الشامي المقدسي الحنفي المعروف بالبشارى المولود بالقدس ولا يعلم له ترجمة وافية ولذلك يقول في مقدمته : « لقد سميت بست وثلاثين اسما دعيت وخطبت بها مثل مقدسي ، مصرى ، فلسطينى ، عابد ، سايج ، زاهد الخ ... وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها » . وكتابه يمتاز على حد قوله بثلاث ميزات . قسم دونه عن معاناة شخصية ، وقسم سمعه من الثقات ، والثالث نقله عن كتب مصنفه . لذلك جاء كتابه أكثر إماما بالحقائق التاريخية والجغرافية عن غيره من الكتب التي سبقته . ولم يتكلم في كتابه إلا عن مملكة الإسلام ، ولم يتعرض لممالك الكفار بل ذكر مواضع المسلمين فيها فقط . وقسم مملكة الإسلام أربعة عشر إقليمًا ستة عربية وثمانية عجمية . وترى المدرسة الجغرافية الحديثة أن هذا النوع من الدراسة الجغرافية اتبع طريقة مدرسة الرؤوس والخلجان Capes and bays school وهي المدرسة القديمة التي كانت تهتم بوصف الأرض وما عليها وصفاً مبنيًا على الأسفار والرحلات والمشاهدات . وهي دراسة

شيقة من غير شك إلا أنها تجعل الجغرافية مجموعة قصاصات غير متناسقة لذلك كانت إلى التاريخ أقرب منها إلى الجغرافية . وقد طبع الكتاب في ليدن سنة ١٨٨٧ م باعتناء دى غوبه وعليه بعض تعليقات مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية وطبع ثانية مع ترجمة فرنسية وشروح وتعليقات باعتناء الأستاذين دوزى ودى غوبه في ليدن سنة ١٩٠٦ م .

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر : لأبى زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون التونسي الحضرمى الأشبلى المالكي المتوفى سنة ٧٩٧ هـ ، دخل في خدمة أمير تونس ثم رحل إلى بجاية وقلده سلطانها أعمال دولته . ثم فارق تونس سنة ٧٨٤ هـ وأقام بالقاهرة وعينه السلطان برقوق قاضى القضاة المالكية وعزل عنها بسبب تعصب الأمراء عليه . ثم سافر إلى الشام مع السلطان فرج الملك الناصر وأخذه تيمور لك أسيراً سميراً إلى سمرقند وقال له يوماً^(١) « لى تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها خلفته بعصر وسيظفر به المجنون » « يشير إلى برقوق » واستأذنه فى أن يعود إلى مصر فأذن له ورجع إليها فكانت وفاته بها فجأة . وكتابه يعرف بتاريخ ابن خلدون ويقع فى سبعة أجزاء اتبع فى تأليفه الطريقة الزمنية أى تسلسل الحوادث حسب تعاقبها الزمنى منذ بدء الخليقة حتى وفاته واهتم كثيراً بأخبار المغرب والبربر . . اعتمدت كثيراً عليه ولا سيما الجزأين الثالث والرابع . كما أخذت نصوصاً من مقدمته المشهورة ، وهى على جانب كبير من الأهمية التاريخية ، وتعتبر أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص وجعل التحقيق مسيطرأ عليه ، وللبحث فى قوانين التاريخ مما أكد الصلة الوثيقة بين التاريخ كعلم وبين العلوم الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فقد اتخذ ابن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار ، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساساً لنظريته بدل تغير النظم السياسية المتخذة أساساً لدى مؤرخى اليونان الاستنباطيين Pragmatique ويتساءل الأستاذ بارتولد^(٢) بتأثير من من العلماء وأى الكتب نشأت نظرية ابن خلدون ، ثم يجيب عن هذا السؤال بأنه بحث لا يزال مجهولاً إلى اليوم ، ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات فى الأزمان القديمة والحديثة . . وفى نظر حضرة المستشرق مقدمة ابن خلدون كمقدمة ديودوروس تشبه

(١) معجم المطبوعات العربية والعربية ليوسف سر كيسى ج ١ مجلد ٢ ص ٩٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٠

جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة فإذا أخرجنا المقدمة بقي كتابه مجموعة من الحوادث ؛ فهو
بجميع جامعي القرون الوسطى ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير في
معظم الأوقات ، ولم تؤثر نظرية ابن خلدون في غيره من مؤرخي العرب .

(٦) التعريف بالمصطلح الشريف : مؤلفه شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله
أحمد بن يحيى المشهور بالعمري لانهاء نسبه إلى عمر بن الخطاب تقلد ديوان الإنشاء
والرسائل في البلاط القاهري أيام ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ)
الذي كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم في لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول »
وهي عبارة عن الرسوم والإجراءات التي تجري عليها الدولة في تنظيم علاقاتها الخارجية
وتسمى هذه الرسوم والنظم في الدولة الإسلامية بالمصطلح الشريف^(١) . وفيه يشرح
رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج منها ومن الوثائق والمكاتبات
الدبلوماسية . ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية وعن مراكز البريد
والخيل وبريد الحمام الزاجل وأبراجه ووسائل المواصلات البحرية . ويعتبر كتاب
العمري دستور المصطلح الشريف في مصر الإسلامية .

(٧) ويرى القلقشندي صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء : أن كتاب العمري
أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب^(١) ، وقد انتفع به القلقشندي في موسوعته أعظم
انتفاع ، وتقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التي
دبجت بقلم العمري في ظروف ومناسبات مختلفة ، ويمكن القول أن الجزء الخاص بالبريد
في موسوعة القلقشندي منقول عن العمري مضافا إليه تعليقات القلقشندي الخاصة ،
وتوفي العمري سنة ٧٤٩ هـ ، ١٣٤٨ م ولفضل الله العمري أثر آخر ضخم هو
« كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية
المصرية الضخمة وهي : مسالك الأبصار ، ونهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشى
للقلقشندي والأولى تملأ عشرين مجلدا كبيرا أخرجت دار الكتب المصرية الجزء
الأول منها ، والباقي مخطوط والثانية أخرجت الدار نحو ثلثه في ثلاثة عشر مجلد
والباقي مخطوط أما الثالثة فقد أخرجتها لنا دار الكتب في أربعة عشر مجلدا .
وقد اعتمدت اعتمادا كبيرا على موسوعة القلقشندي في رسالي خصوصا المقالة العاشرة

(١) الأستاذ محمد عبد الله عنان . الرسالة العدد ١٠٧ سنة ١٩٣٥ م

(٢) القلقشندي ج ١ ص ٧

بالجزء الرابع عشر ، وتكلم فيها على البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام ،
وبيان معالم ومراكز ومطارات الحمام الرسائي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية
والمناور والمحركات . وكتاب القلقشندي كتاب تاريخ كما هو كتاب أدب لم يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع شاردة ولا واردة إلا ذكرها . ولد القلقشندي ببلدة
قلقشندة بمديرية القليوبية سنة ٧٥٦ هـ وتوفي سنة ٨٢١ هـ .

(٨) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار : لتقى الدين أبو العباس أحمد بن
علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني البعلبي الأصل القاهري المعروف بالمقريري نسبة لحارة
في بعلبك تعرف بحارة المقارزة . نشأ بالقاهرة . وتفقه على مذهب الحنفية ، ثم تحول
شافعيا بعد مدة طويلة ، وتفقه وبرع وصنف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكل عمل ؛
وبلغت شيوخه ستائة نفس ، وكان حسن الذاكرة بالتاريخ . فاشتهر بعمدة المؤرخين
وعين المحدثين حتى صار يضرب به المثل . ولى حسبة القاهرة أول ولايته من قبل الملك
الظاهر برقوق ، وولى عدة وظائف دينية وعرض عليه قضاء دمشق في أوائل الدولة
الناصرية فأبى أن يقبل ذلك . . . وكتابه جامع لكثير من الخطط والآثار والحكم
المأثورة حتى تاريخ وفاته سنة ٨٤٥ هـ وقد استفدنا منه كثيرا في الفصل الخاص بالبريد
في مصر الإسلامية . . . وللمقريري كتاب آخر هو :

(٩) السلوك لمعرفة دول الملوك : وتقوم مطبعة دار الكتب المصرية الآن بإخراجه
في صورة جديدة تحت إشراف أستاذي الدكتور محمد مصطفى زيادة الذي ذيله بكثير
من شروحه وتعليقاته وتصحيحاته القيمة ؛ وورد في رسالتنا كثير من نصوص المقريري
التي عاجلت موضوعنا في عصر الظاهر بيبرس . والكتاب يشتمل على ذكر ما وقع
من الحوادث إلى يوم وفاته . وقد ترجم منه إلى الفرنسية الأستاذ quatremère قسمي سماه
« تاريخ السلاطين المماليك » طبع في باريس سنة ١٨٣٧ في جزأين Histoire des
Sultans Mamlouks 2 tomes ولم تخل رسالتنا من بعض النصوص المأخوذة منه
خصوصا من الجزء الأول القسم الثاني .

(١٠) ومن المراجع الهامة التي اعتمدت عليها كتاب الطائر الفريد في وصف البريد
تأليف نعمان أفندي أنطون من موظفي البوستة المصرية في أواخر القرن التاسع عشر .
يقع كتابه في أكثر من مائتي صفحة مكتوب بأسلوب الموظف لا بأسلوب المؤرخ
أو الأديب . وشكل الكتاب وورقه وطبعه يوهم القارئ بضالة قيمته العلمية . يقع
الكتاب في بابين الأول خاص بعموم البريد ؛ من بريد حرني وبريد عمومي وكذا البريد

الخصوصى؛ ثم إدارات البريد ومراكزه وأدواته ومعداته وطوابع البريد وموظفوه؛ ثم لمحة عن تاريخ البريد القديم والحديث والباب الثانى خاص بالبريد المصرى من أقدم العصور إلى أحدثها مع شرح مستفيض للبريد المصرى الحديث وما طرأ عليه من تطورات وإصلاحات فى عصوره المختلفة من حيث طوابعه وقوانينه الخ والكتاب به مادة تاريخية محترمة عن البريد، أعتقد أنها جمعت من مصادر عربية وأفريقية لها قيمتها العلمية. ويشير المؤلف فى مقدمته إلى هذا المعنى بقوله « حتى لو تمكنت من أن أودع هذا التأليف كلما يلذ المطالع خبرة ويفيده أمره من أصح الموارد وأصدق الشوارد مع بيان ما صادفته جميع البرد من التقلبات والنظامات من ابتداء ترتيبها إلى وقتنا هذا. فلم أترك من أوصاف البريد وطرقه وترتيبه وحكمه واسطة أو حادثة إلا ذكرتها، ولا فائدة أو نادرة إلا أوردتها بنوع مجرد من الغايات الخصوصية فى علاقاتنا بالأشغال العمومية »

ويؤخذ على المؤلف أنه لم يذكر المراجع والمستندات التى استقى منها مادته وأنه لم يذيل كتابه بالأصل الذى أخذ عنه النص لجاء كتابه خلوا من الإشارة إلى أى مرجع كان؛ فهو لم يفد الباحث من هذه الناحية. الأمر الذى أتعبنى كثيرا فى الرجوع إلى الأصول الأولى التى أخذ عنها بالبحث عنها فى السكتالوجات فكنت أوفق أحيانا فى العثور عليها وأفضل أحيانا أخرى.

(١١) تاريخ البريد فى مصر: وضعته مصلحة البريد المصرية بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة سنة ١٩٣٤؛ ومن المدهش حقا أن مؤلفى هذا الكتاب قد وقعوا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه مؤلف الكتاب السابق إذا استثنينا بعض المراجع الأجنبية التى ذكروها بصفة عامة فى أول الكتاب، وقد اتصلت بأحد واضعى هذا الكتاب وهو رئيس قلم بمصلحة البريد الآن على استشف منه بعض المعلومات التاريخية، وأخبرته بهذا النقص البين فى كتابهم؛ فأجاب بأن معظم النصوص الواردة بالكتاب جمعت عن طريق تكليف بعض السفارات المصرية فى الخارج بترجمتها من أوراق البريد المصرية هناك أو من الكتب الأجنبية أو عن طريق مصلحة الآثار نفسها. كما أنه شكك من عدم إعطاء مصلحة البريد مكافآت مالية لهم إزاء هذا الجهد الشاق. والكتاب عظيم من الناحية التاريخية للبريد المصرى من أقدم العصور، ومطبوع على ورق يجرى القارئ بقرائه، واعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا فى الفصل الأول والخامس كما نقلنا عنه خريطة للبريد فى مصر المملوكية وأخرى لبريد الحمام الزاجل.

(١٢) وهناك كتاب آخر اسمه « تاريخ البريد في العالم » لمؤلفه جمال العربي أفندي .

أعتقد أنه نقل معلوماته التاريخية نقلا حرفيا عن الكتابين السابقين ، ولم يأت بجديد من عنده اللهم إلا ترتيب وتقديم بعض الحوادث على البعض الآخر ، ولم يشر في كتابه إلى مرجع واحد على الإطلاق فهو قد وقع فيما وقع فيه مؤلفو الكتابين السابقين مخالفا قواعد البحث العلمي من ناحية ، وغير مراعىا الأمانة التاريخية من ناحية أخرى .

وثلاثتهم قد أفادتني في نواح كثيرة ، ولا سيما معرفة البريد عند الأمم القديمة ومصر خصوصا ، ثم بريد مصر في العصور الوسطى ، وكذا البريد الجوى والمائى . ولو كتب الطائر الفريد في وصف البريد على طريقة البحث الحديثة وبأسلوب العلم الحديث ، وذيلت نصوصه بالمراجع الأصلية ، لكان خير كتاب كتب عن تاريخ البريد في العالم على ما أعتقد .

(١٣) تاريخ المدن الإسلامى : للمرحوم الأستاذ جورجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤

وهو لبنانى الأصل اشتغل بالطب ولم يكمله ، واتجه إلى الأدب بعد أن احتضنته مصر . فتولى تحرير جريدة الزمان ، ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ ، بصفة مترجم بقلم المخبرات ، واشتغل في إدارة المقتطف فترة ، وأنشأ مجلة الهلال في أواخر سنة ١٨٩٢ . وضمن في هذا الكتاب الكلام على الدولة الإسلامية وسعة ملكها وتاريخها الإدارى والسياسى والمالى وأسباب ثروتها وتكوينها وانحطاطها ، وتناول الكلام على خلفاء الإسلام ورجال حكومته . طبعته مطبعة الهلال في ستة أجزاء ، وإنى أعتقد أن الأستاذ جورجى زيدان أول من طرق باب الحضارة الإسلامية منها المحدثين إلى الثروة المخزونة في بطون الكتب عن تلك الحضارة ، وسرعان ما كان لمؤلفاته صدى كبيرا وأثرا مشكورا في نفوس المؤرخين المعاصرين أمثال حضرات الأساتذة : محمد كرد على ، وأحمد أمين ، والدكتور محمد مصطفى زياده ، والدكتور حسن إبراهيم ، ومحمد عبد الله عنان ، والأمير شكيب أرسلان . الخ . . والمادة التاريخية التى نقلتها عن هذا الكتاب وعن مجلة الهلال (المجلد السابع من السنة العاشرة) ذات قيمة علمية ملموسة الأثر في معظم فصول الرسالة .

(١٤) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على

عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية ، تأليف العلامة السيد عبد الحى ابن عبد الكبير الحسنى السكناى الإدريسى الفارسى ، اعتمد فيه على كتاب تخريج الدلالات الشخصية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية للعلامة أبى الحسن على بن ذى الوزارتين المعروف بالخزاعى

(٧١٠ - ٧٨٩ هـ) . ذكر الكنانى أنه رتب كتابه على عشرة أقسام ، كما رتب الخزاعى كتابه على عشرة أجزاء ، وقسم كل قسم إلى أبواب وكل باب إلى فصول ، وقد اعتمدت على القسم الأول باب الرسول ، ثم باب الخانات والتجسس وباب الطرق وباب العمال الخ . يقع الكتاب فى جزأين وله مقدمة طويلة فى ترجمة الخزاعى والتعريف بالكتاب وهو قيم من حيث أنه يجمع ما ورد عن الشىء الواحد فى عدة كتب ؛ ويؤخذ عليه أنه لم يعلق على النصوص أو الأحاديث النبوية ، مكتفياً بما ورد فى المقدمة من استعراض كتب السيرة والأحاديث والشريعة الإسلامية من فقه وتفسير وقصور المؤلفين المحدثين عن ذكر الوظائف الإدارية فى عهد الرسول . ولولا عشورى على هذا الكتاب بإرشاد من أستاذى العبادى لجاءت رسالتى خلوا من المادة البريدية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين . طبع الكتاب سنة ١٣٤٦ بالمطبعة الأهلية بدرب الفاسى عدد ٣ بالرباط .

(١٥) فجر الإسلام : وضعه الأستاذ أحمد أمين دارسافيه الحياة العقلية للأمة العربية إبان القرن الأول للهجرة ، مبتدأ الكلام عن جغرافية بلاد العرب وأثرها فى أهلها ، ثم علاقتهم بالأمة العربية المجاورة من روم وفرنس وأحباش ، وقد اقتبسنا تنقفا قصيرة من هذه العلاقات ، ووضعنا أثرها فى النظم الحكومية عند العرب ، ثم يستمر فى الكلام عن العقلية العربية فى جاهليتها وإسلامها ، والكلام عن الفرق الدينية والسياسية من خوارج وشيعة الخ . وللكتاب مقدمة طريفة بقلم الدكتور طه حسين والكتاب فى مجموعته قيم وعظيم لا لرجل الأدب فحسب ، بل ورجل التاريخ أيضا . ولا أكون مغاليا إذا قلت أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على مبلغ ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من القوة والسلطان إذا لم يكن قد قرأ كتاب فجر الإسلام ، وقد ورد كثير من نصوصه فى الفصول الأولى من الرسالة ، لأنه المرآة التى يرى الباحث من خلالها حياة العرب العقلية والسياسية والإدارية والاجتماعية .
ومن المصادر الأفرنجية التى اعتمدت عليها . . .

(١٦) كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى Die Renaissance des Islams تأليف الأستاذ آدم متر Adam Mez أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسره ، والمتوفى سنة ١٩١٧ . نقله إلى العربية فى جزأين الأستاذ محمد عبد الهادى أبوريده ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد اختار المؤلف القرن الرابع الهجرى لأنه هو العصر الذى بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها ،

فجاء شاملا لجميع نواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع . وكانت طريقة الأستاذ آدم متر في معالجته للنواحي الغامضة ، كما قال الأستاذ أحمد أمين في تصديره للترجمة العربية تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة دلت على مجهود مشكور بذله الأستاذ في جمع المادة وترتيبها ترتيبا علميا ، ومن جملة مصادر مخطوطات أربت على الأربعين موجودة في مكاتب أوربا ، ويؤخذ عليه أنه اكتفى بجمع النصوص وترتيبها من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر ، كما يؤخذ عليه أنه يستدل في بعض المسائل على رأى بنص واحد ، والكتاب يعلمنا طرق البحث العلمى ، ويقدم لنا درسا في صبر العلماء على معاناة البحث والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغربلتها وأخذ خير ما فيها ، ويكشف لنا عن نواح من الحضارة مجهولة . . . وقد أورد لنا المؤلف جزءا كبيرا في الكلام عن المواصلات البرية والبريد وطرق البريد الهامة في الإمبراطورية الإسلامية ، وقد اعتمدت عليه كثيرا في هذه الناحية ، وأعطانى درسا في كيفية الحصول على ما أنا في حاجة إليه من كتب جغرافى العرب بعد أن يئست من قراءتها وخرجت وأنا جاهل لكل ما قرأت ، فلما وقع نظرى على كتاب الأستاذ متر بين لى أهمية ما قرأت في الكتب العربية .

(١٧) أما كتاب The Lands of the Fastern Caliphate لمؤلفه الأستاذ Le Strange ، ويبحث كما هو مفهوم من عنوانه في طبيعة بلاد المشرق من حيث الأنهار والجبال والطرق والجسور ووسائل العمران ، وكذلك المدن والقرى وقد شفع المؤلف بحثه بذكر الخرائط لكل إقليم على حدة ، واقتصرت فائدة الكتاب لنا على المقدمة التى أورد فيها الكلام عن طريق الشرق الكبير المعروف بطريق خراسان ، وكذلك الكلام عن الطرق المتفرعة منه وطرق الحج الخارجة من بغداد ، وتتبع المؤلف طريق المشرق من بغداد حتى أعلى الصين ، ثم ختم مقدمته ببحث علمى جميل فى الكتب الجغرافية والجغرافية التاريخية للمؤلفين العرب منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصور الوسطى تقريبا موضحا نواحي الضعف والقوة فى كل كتاب ، فجاء نقده لها نقدا علميا من الطراز العلمى الحديث .

(١٨) ومن المراجع الأفرنجية التى اعتمدت عليها كثيرا كتاب Die Post-Und Reiserouten des orientis للمؤلف الألمانى Sprenger طبع فى سنة ١٨٦٤ م بمدينة لبنج واسمه البوستة (أى البريد) وطرق السياحة فى الشرق ، وزوده بست عشرة

خريطة لهذه الطرق ، استند في وصفها على أقوال وأوصاف مؤرخي العرب وجغرافهم . والمطلع على الكتاب لا يسعه إلا أن يقدر الجهود المضي التي بذله المؤلف في استعراض أجزاء الطرق المختلفة ومحطاتها وأبعادها كما وردت في كتب العرب المقارنة بها . وكثيرا ما يرى الإنسان جداول للمسافات بين شتى المحطات كما وردت في كتب ابن خردادبه وقدامة والأصطخرى فيصعب على الإنسان المقارنة بينها . على أن الجهود الأكبر التي بذله المؤلف هو في إعداد هذه الخريط على وجه الدقة بقدر الإمكان ، فليس يخفى أن العرب لم تترك لنا خريطا لهذه الطرق ، كما أنها في ذكرها للمحطات والبلدان المختلفة كانت تكتفي بذكر البعد بينها وبين البلد السابقة أو اللاحقة دون أن تذكر إذا كانت إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب منها . كما أن كثيرا من الأسماء التي ذكرها العرب في كتبهم عنوانا على محطات البريد والبلدان قد اندرس معظمها وحى أثره من الوجود ، إما لتفاهة شأنه وأما لحلول أسماء جديدة محله . كل هذا مضافا إلى الخلافات السابق ذكرها في تحديد المسافات كما وردت في كتب جغرافي العرب . وجب أن نضم إلى ذلك كله كون المؤلف في نهاية الأمر ليس عربيا ، فهو يبدل بعض الجهد من غير شك لقراءة النصوص العربية وبخاصة في الكتب القديمة التي تخلو من الشكل بل والتنقيط أحيانا الأمر الذي يشير إليه المؤلف بالذات في مقدمة (١) كتابه .

كل هذا يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن الجهود الشاق التي بذله المؤلف بمساعدة كثير من زملائه العلماء للوصول إلى عمل هذه الخرائط ، معينين بها بقدر الإمكان مواضع البلاد المختلفة التي ورد ذكرها في طرق البريد بالنسبة لخطوط الطول والعرض بحيث يمكن رسمها على أى خريطة وتتبعها والارتفاع بها .

وليس يسعنا إلا أن نقدر هذا الجهود الذي سبقنا إليه المستشرقون من الأجانب وكنا نحن أولى الناس به ، والحق أن الطالب منا ليصيبه كثير من الحجل المزوج بالحسرة والألم وهو يرى نفسه مضطرا إلى الالتجاء إلى كتب المستشرقين من ألمان وإنجليز وغيرهم ليستعين بهم في فهم مسائلنا العربية والإسلامية بل والدينية أحيانا ، ولا جدال في أن هذا مظهر من مظاهر تطور البحث العلمى عند الأوربيين في هذا المضمار . غير أننا نحمد الله أن تم إنشاء جامعتين مصريتين (٢) وزودتا بعدد من أكفاء الأساتذة سنتمكن نحن الطلاب بمعاونتهم من الإمام بتراث أسلافنا فلا نعود في حاجة للاتجاه نحو

(١) ترجمة الأستاذ أحمد حسين الحامى .

(٢) أصبحت الجامعات المصرية الآن ثلاث هذا الجامعة الأزهرية .

الغرب لفهم شريقتنا ، وإلى أن يتم ذلك ولعله أوشك على التمام فنحن مضطرين من حين لآخر للالتجاء لكتب الأوربيين عن الشرق في مختلف الشئون وبشئى اللغات .
ونحن مضطرون إما للعلم والحقيقة أن نسجل تقديرنا لمجهودهم العلمى القذ وهذا هو ما نقرره ابتداء بالنسبة لكتاب الهير شبرنجر وإن كنا قد عدنا فى مواضع مختلفة من الرسالة إلى تسجيل بعض الملاحظات والردود على ماورد فيه .

La Poste aux Chevaux dans L'Empire des Mamlouks. (١٩)

بدأ الأستاذ Sauvaget العالم الفرنسى المشهور فى تأليفه أواخر سنة ١٩٢٣ ونشره سنة ١٩٤١ ولم أعثر عليه إلا عند طبع الرسالة .

تناول المؤلف الحديث فى الفصل الأول عن نشأة البريد فى الدولة المملوكية والخدمات التى أداها الظاهر بيبرس بنوع خاص إلى الإدارة البريدية وطرق البريد ومحطاته وعماله وريد الحمام وأبراجه والإشارات الضوئية . واعتمد بيبرس فى تنظيمه للبريد على القواعد المعروفة عند كل من الخلفاء العباسيين والأباطرة المغول .

وأشار الفصل الثانى إلى ازدهار مصلحة البريد بعد أن توقف الزحف المغولى وبعد أن زال الخطر الصليبي ، كما أشار إلى التغييرات الجديدة التى أدخلها بنو فضل الله على المصلحة كالتنظيم المالى وإنشاء الطرق والمحطات الفرعية ، وجعلها جميعا فى خدمة التجارة وتنشيطها فضلا عن القيام بنقل الأخبار الحكومية وهو العمل الأساسى للبريد .

ووضح الفصل الثالث عوامل تدهور نظام البريد ومنها انشغال السلاطين بالثورات والفتن الداخلية . واستبدال المدنيين بالعسكريين فى الإشراف على مصلحة البريد من النصف الثانى للقرن الرابع عشر ثم غزوة تيمورلنك أخيراً سنة ١٤٢١ م .

ويحتوى الكتاب على ستة خرائط لتوضيح طرق البريد البرى والجوى ومحطاته فى عصر المماليك ، وبه أيضا رسومات هندسية ومعمارية لدراسة بعض محطات البريد دراسة تفصيلية ، فضلا عن خمسة عشر صورة فوتوغرافية للخانات والاستراحات البريدية فى سوريا وفلسطين وشبه جزيرة سيناء وبعض مناظر المؤلف أثناء مشاهداته لتلك الآثار التاريخية .

وجمع المؤلف مادته من الأصول التاريخية والأدبية المعاصرة ومن مشاهداته الشخصية لبقايا محطات البريد والنصوص المنقوشة عليها ، وصحبه فى زيارته لها أساتذة المعهد الفرنسى بدمشق .

الفصل الأول

البريد قبل الإسلام

١ — معنى كلمة بريد :

قبل أن نمضى فى استعراض البريد عند الأمم القديمة كان من لوازم البحث العلمى أن نفسر معنى بريد اصطلاحاً ولغة ، وأن نبحث كذلك عن أصل الكلمة وهل هى فارسية أم عربية أم رومية ، بحيث يخرج القارىء من هذا البحث الأولى وقد أدرك تماماً المقصود من موضوع الرسالة وتتبع بإيضاح ما يقع تحت بصره من نصوص وحقائق تاريخية ملهوسة . والواقع أن تفسير معنى هذه الكلمة كان محل خلاف فى رأى لدى جماعة الكتاب والمؤرخين وهل الكلمة عربية الأصل أم أعجمية ، فالبريد اصطلاحاً هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أما كن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل فى المكان حتى يصل بسرعة (١) . وهذا ما فسره الأستاذ العبادى بقوله : « إن كلمة بريد مأخوذة من الكلمة اللاتينية Veredus أى الدابة التى يركبها العامل فى نقل مكاتبة من مكان لآخر فالبريد فى الأصل اسم الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة فهو عندهم كذلك واستعملت للنظام كلمة كمصلحة البريد » (٢) . وعلى ذلك يكون المعنى اللغوى لكلمة بريد مسافة معلومة بين مركزى بريد ، قدرها الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنها أربعة فراسخ أو اثنى عشر ميلاً (٣) . وقد اختلف المؤرخون فى أصله فذهب بعضهم ومنهم القلقشنندى إلى أنه عربى مشتق من برد أو أرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه ، وقيل من برد بمعنى ثبت لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار ويقال « اليوم بارد سمومه » أى ثابت (٤) . وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٤ — Sauvaget P. 27

(٢) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٩١ — Sauvaget p. 27

(٤) القلقشنندى ج ١٤ ص ٣٦٦

فأصله بالفارسية «بريدة دم» ومعناه مقصوص الذنب ، وذلك لأن الفرس من عادتهم أن يقصوا ذنب الخيول والبغال التي يقيمونها في البريد ليكون ذلك علامة لكونها من حيوان البريد ، وفي هذا المعنى أنشد الجوهري لامرئ القيس :

على كل مقصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا^(١)

وقد ذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة محرفة عن (بردى) وهو نوع كالورق كان يستعمله قدماء المصريين وقد أطلق على البردى بريدى ثم اختصر فصار بريداً^(٢) وهذا الرأي بعيد عن الصواب من غير شك لأن الأخذ به يفهمنا خطأ أن العرب لم يعرفوا البريد إلا عند فتحهم مصر ومعرفتهم ورق البردى^(٣) . وكان هذا غير صحيح إذ المعروف كما سيجيء بعد أنهم عرفوا البريد في جاهليتهم أى قبل فتحهم مصر بمئات السنين ... صحيح أن العرب لما فتحوا مصر كثير استخدامهم لورق البردى ونشروه في أنحاء المملكة الإسلامية وقد اشتهرت مصر بهذه الصناعة من عهد قدماء المصريين واستمرت مصانع الورق على عملها بعد فتح العرب لها ... وخلاصة القول نستنتج أن العجم لهم الفضل الأكبر في معرفة البريد وترتيب نظامه بمعناه الشامل وأن اسمه أعجمياً في أصله لا عربى كما ذهب القلقشندي وغيره . ويؤكد استنتاجى هذا ما ذكره بعض المستشرقين^(٤) من أن أكثر مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل ومنها الفراتق والفيج^(٥) والشاكرى^(٦) بمعنى راكب البريد والأسكدار وهو

(١) القلقشندي ج ١٤ ص ٣٦٦

(٢) الطائر الفريد ص ٥

(٣) ذكر الأستاذ أحمد أمين أن الوليد بن عبد الملك كان يستعمله في شؤونه الخاصة وكان الخلفاء يفضلونه على غيره من أنواع الورق لأنه لا يمكن محو ما فيه من غير أن يعرف ، وأكثر مصانعه كانت في الوجه البحرى لكثرة ما فيه من نبات البردى ، وأهم مراكز صناعته مدينة بورة على الساحل قرب دمياط . وكانوا يصنعونه أنواعاً ، منه مانع ومغلا ومنه ما خشن ورخص ويصنعونه أدراجاً يلف كل درج منها ، وقد يبلغ طول الدرج ١٥ متراً وكان يباع الدرج حول سنة ١٨٤ هـ من النوع الجيد بدينار ونصف دينار وهو ثمن عال خصوصاً إذا لاحظنا أن هذا القدر يدفع لإيجار الفدان صالح للزراعة مدة عام . وقد أصدر عمر بن عبد العزيز أمره بالاقتصاد في استعمال الورق — ضحى الإسلام ج ١ ص ٢١

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ ٢ ص ٢٤٧

(٥) ومعناها الساعي على قدميه ونلاحظ أثر كلمة ped الرومية في هذه التسمية — مترج ٢ ص ٢٤٧

(٦) ومعناه الصياد

السجل الذى يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها .

وعليه يكون لفظ «بريد» فارسى الأصل لاروميه لأن دولة الفرس أقدم في الوجود والحضارة من دولة الرومان ، ولأن ما اقتبسه الرومان من أنظمة الحكم وقواعده من غيرهم مرجعه إما إلى الإغريق أو الفرس وبما أن الإغريق لم يرد في ما تناولته من مصادر ما يثبت عنايتهم بالبريد على النحو الذى كان معمولاً به في فارس فإننى أعتقد إرجاع الكلمة إلى الفرس كما يفهم من النصوص السابقة ومما سيرد بيانه عند الكلام على البريد عند كل من الرومان والفرس .

وكثيراً ما كانت تطلق كلمة بريد على الرسول وفي الحديث — إنى لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد أى لا أحبس الرسل الواردين على^(١) — ومنه الحديث أيضاً — إذا أبرتم إلى بريدا أى أنفذتم رسولا^(٢) — وقال بعض^(٣) العرب الحمى بريد الموت أى رسوله تنذر به ، وأيضاً قيل لدابة البريد بريد لسيره في البريد وهو المسافة التى بين السكنتين — قال الشاعر .

انى أنص العيس حتى كأنى عليها بأجواز الفلاة بريدا^(٤)

ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ كما ورد عند ابن خرداذبة وقدامة أوبالمراحل كما فعل الاصطخرى والمقدسى ، وقد قومت المرحلة بفرسخين في بلاد فارس وأربعة فراسخ في المغرب والفرسخ في الحاليين ثلاثة أميال^(٥) ، وفي الحديث لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد وهى ستة عشر فرسخاً^(٦) . وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربى الفرات أما في شرقيه فبالفراسخ^(٧) . وقد اختتم Sprenger مقدمته يبحث طويل في الأطوال وخصوصاً مقدار الليل عند العرب وكيف وصلوا إلى تحديده فيشير إلى حادث المأمون عند ما طلب من علمائه الرياضيين قياس درجة من درجات محيط الكرة الأرضية فإذا مقدارها ٥٧ ميلاً عربياً ، وفي رواية أخرى أن مقدارها ٥٦

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٧٢

(٢) نفس المصدر والصفحة — لسان العرب ج ٤ ص ٥٣

(٣) لسان العرب ج ٤ ص ٥٣ (٤) نفس المصدر والصفحة

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٦٠٩

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٧٢

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ هـ ج ٢ ص ٢٤٨ — لسان العرب ص ٥٣٤

وثلاثى ميلا ، ويرى البعض أن الميل العربى يساوى ٢٠٠٠ متراً أو ٢١٨٦ ياردة انجليزية وليس عندنا قياس تركه العرب على وجه الدقة عن الميل والذراع ، وقد اعتبر شبرنجر طول الميل العربى أنه يزيد عن الميل الإنجليزي بمقدار ٣٥٧ ، قدم وقد قدر المقدسى الفرسخ الواحد بثلاثة أميال عربية أو ساعة طريق والمرحلة فى صحراء سوريا والعراق بأثنى عشر ميلا والمرحلة فى سوريا وخراسان بستة أميال والسائر المجد يقطع فى اليوم ستة فراسخ وسبعاً (١) .

(٢) البريد عند الجماعات والأمم القديمة : لا شك أن نظام البريد بمعنى تبادل الأخبار والرسائل الشفوية والمكتوبة بين فرد وآخر فى مكانين متباعدين أو بين جماعة وأخرى من الأنظمة التى تأخر ظهورها فى الجماعة البشرية ، ولم تبدأ خطواتها الأولى فى أبسط صورها وأصغر معانيها إلا بعد محاولات واجتياز عدة حلقات من تدرج الإنسان فى سبيل المدنية والعمران . فهذا الإنسان القديم الذى كان يعيش بنفسه على الفطرة يتلمس الرزق من الصيد والقنص محاطاً بأسرة مؤلفاً بذلك وحدة مستقلة ، قلما كان يدور بخاطره فكرة الاتصال بإنسان آخر لأى غرض من الأغراض ، إلا أن يكون السطو والاعتداء عليه ، معتبراً العزلة ضرورة من ضرورات حياته ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتبار طواعية لاتساع نطاق الأسرة الذى بدأ يوجد بذرة العمران رويداً رويداً ، وما تحمله فى طياتها من تعاون بين أفراد الجنس البشرى . . . وتدرجت الإنسانية بعد ذلك فى سلم الارتقاء ، فكان التفكير فى صنع الآلات ، وكان الالتصاق بالأرض والاستقرار فى أما كن معينة منها ، وما استتبعه ذلك الاستقرار من خلق فكرة الحكومة التى يتعين عليها الدفاع عن سلامة المجموع ضد غارات المغير من الأجانب من القبائل المنافسة أو العناصر الأقل تمدناً . . . ومنذ ذلك اليوم الذى فكر فيه زعيم القبيلة الحاذق أن خير وسيلة يدفع بها الأذى عن قبيلته ، هو وضع الجراس على أطراف منطقة قبيلته لإذاره بالغارات الأجنبية قبل حدوثها ليمتق شرم المباغلة ، ويتخذ الأهبة للدفاع . . . منذ ذلك اليوم وقد وضعت اللبنة الأولى فى نظام البريد ، وعلى مر الزمن ذهب بعض الزعماء خطوة أبعد من ذلك ، إذ وجدوا أن إنذار طلائعهم الساهرين فى حدود منطقتهم لا يفى بالغرض المقصود ، ولا يسمح لهم بالوقت الكافى للاستعداد ، والأجدر بهم أن يباشروا العيون والأرصاد على حدود القبائل المجاورة لتنذرهم

بالخطر في أدواره الأولى ، فيتاح لهم فرصة أوسع للاستعداد والتهيؤ للدفاع . هذه الجاسوسية البدائية هي خالقة فكرة البريد في معناه القديم ؛ وليس أدل على ذلك من بقاء الجاسوسية جزءاً حيويًا في نظام البريد ، حتى بعد أن تطور وصار يشمل أغراضاً أخرى في حياة الأمم القديمة الكبرى : كالحند والصين والفرس واليونان والرومان ثم العرب فيما بعد .

وليس هذا التصور الذي تصورناه لنشأة نظام البريد سوى ضرباً من ضروب الخيال بطبيعة الحال على أن الذي نقرره في تأكيده هو أن السلطة الحكومية في أحسن مظاهرها أو بالأحرى في صورتها البدائية هي التي شعرت بأن من لوازمها أن تتلقى أخبار بعض ما يجري في مكان آخر ، وعملية نقل الأخبار هذه هي لب نظام البريد في العصور القديمة ، فالحكومة وليس الأفراد هي المنشئة لنظام البريد ، فلم يكن للأفراد في أي جماعة من الجماعات القديمة أي نشاط من شأنه خلق التراسل ، فقد كانت كل جماعة تعيش في حيز محدود من الأرض ، في استطاعة كل فرد فيها أن يذره على قدميه من مشرقه إلى مغربه ، ولم يكن لدى الأفراد من الشواغل والموانع ما يحول دون مشافهة فرد لفرد آخر . . . وقد كانت كل جماعة تؤلف وحدة مستقلة تكاد لاتصل بما يجاورها من جماعات إلا اتصال المنافسة والعداء ، فكان من الطبيعي ألا يكون لأي فرد من جماعة أدنى اتصال بفرد في جماعة أخرى ، وحسب الإنسان أن يتصور المجتمعات القديمة في مصر وفي اليونان وفي الفرس ، حيث يجد كل مدينة تنطوي على نفسها متحصنة خلف أسوارها مقطوعة الصلة عن كل ما يجاورها ، لها لغتها الخاصة وتقاليدها وعاداتها ورئيسها ، بل ومعبودها الخاص وشعارها . . . على أن تطور البشر رويداً رويداً ، وإخلاق القبائل إلى الاستقرار قد دفعهم نحو الرغبة في السلام دفعا ، فجاش في صدر زعيم من الزعماء أنه من الخير له ولعشيرته ومدينته أن يتراضى مع جيرانه الذين لا ينفكون يشنون عليه الغارات ، فأوفد لهم مندوباً من قبله يدعوهم للتفاهم والتفاوض على احترام كل من الجارين لجاره ، ولم يكن هذا المندوب الأول في الواقع إلا رائد أصحاب الرفعة والسعادة من سفراء^(١) العصر الحاضر ، كما كان أول ساع من سعاة البريد بالمعنى الفني ، فقد كان يحمل أول رسالة من زعيم إلى أخيه زعيم القبيلة الأخرى يبلغه

(١) شبهه Henri Lammens (ص ٣٢١) صاحب البريد في الدولة الإسلامية بسفراء الدول الأوربية الذين ترسلهم حكوماتهم إلى بعض المستعمرات لمراقبة ملوكها الوطنيين ومشاركتهم في الإشراف على حكوماتهم .

فيها تحياته واحتراماته ، ويدعوه فيها لما يعود بالخير والنفع على القميلةين . وهكذا وجد الوجه الثاني من أوجه نشاط البريد لأغراض السلم .

(٣) نصيب الأفراد من نظام البريد : قد يلاحظ القارئ اهتمامي بتحليل الحوافز والعوامل التي أدت إلى الإحساس بضرورة نقل الأخبار ثم الرسائل ضاغطة على القول بأنها ثمرة من ثمرات النظام الحكومي في أبسط صورة لأننا سنرى في كل الفصول المقبلة أن البريد سيظل دائماً أبداً من أخص خصائص السلطة الحكومية ، سيظل إلى عصور متأخرة جداً وفقاً عليها ، وسنرى أن كل تنظيم للبريد وأعماله ليس له إلا غاية واحدة وهي أن يظل الحاكم على اتصال مستمر بعمله في أنحاء المملكة مراقباً لما يجري فيها وأن يكون أكثر قدرة على حكمها في الداخل والدفاع عنها في الخارج . أما الجمهور وأفراد الشعب فليس لهم أي سبيل للاستفادة من الأنظمة المحكمة السريعة لنقل البريد والرسائل كما هو الحال في العصر الحاضر حيث تغطي رسائل الأفراد على رسائل الحكومة في الداخل والخارج ؛ فلا تسكاد تبذل مصلحة البريد من الجهد لنقل الرسائل الحكومية إلا جزء من مائة جزء ما تبذله لنقل رسائل الجمهور وأفراد الشعب ، فإذا لم ندرك منذ الآن أن هذا الانقلاب في موضوع نشاط البريد ليس إلا مظهراً من مظاهر التطور البشري الحديث ، وآية من آيات العصر الحاضر الذي تطورت فيه الإنسانية تطوراً منقطع النظير ، فإنني أخشى عندما نصل إلى استعراض نظام البريد في الدولة الإسلامية أن نرديه بالقصور والتخلف لمحض اقتصراره على المصلحة الحكومية ؛ فيجب أن نفهم أن البريد قد نشأ حاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصوراً في هذا النطاق لدى جميع الدول القديمة السابقة على الدولة الإسلامية بل وفي الدول الحديثة أيضاً إلى ما قبل قرنين أو ثلاثة .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك وجود للرسائل الخاصة أبداً ، بل لقد نشأت الرسائل الخاصة وتكاثرت بمجرد استتباب السلام بين الجماعات المختلفة وتبادل المنافع فيما بينها مما انتهى حتماً إلى اختلاط التجار من هنا وهناك وإقامتهم لمدد مؤقتة أو دائمة في هذه الجماعة أو تلك ، فلما اتسعت رقعة العمران وانشاح الناس ضاربين في سائر الاتجاهات أصبح من المتعذر عليهم الاتصال المباشر في كل وقت وآن بمساقط رؤوسهم ، فبدأت الحاجة للتراسل بل والتراسل المنظم كما هو الشأن في وقتنا الحاضر ؛ على أن ذلك لم يؤثر عن قريب أو بعيد في تطور نظام البريد ، فقد كان كل فرد يسعى لإيصال رسائله بوسائله الخاصة إلى المرسل إليه ، فإذا عن له أن يرسل رسالة لشخص آخر في

بلد بعيد وكان غنيا فما عليه إلا أن يرسل ساعيا من قبله يسير على قدميه أو يمنحه دابة
يمتطيها فيؤدي الرسالة ويعود إلى سيده . . وإن كانت ظروفه المالية لا تمكنه من ذلك
أو الذهاب بنفسه فإنه يلجأ عادة إلى الانتظار والترقب ريثما يوفق إلى معرفة شخص
يقصد هذا البلد فيعهد إليه برسالته لإيصالها إلى مستقرها ، وبغير ذلك لم يكن ثمة وسيلة
لإبلاغ الرسالة . وقد ظل هذا هو الأسلوب المتبع حتى في أوج الحضارة الإسلامية
عندما تم إنشاء مصلحة البريد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى فلم يكن أمام
التاجر الذي يريد أن يبعث رسالة أو بمبلغ من المال إلا أن يبعث بها مع رسول خاص
أو شخص من معارفه قد يتفق أن يكون مسافرا إلى نفس البلدة ، فإذا لم يكن هناك
أحد من ذوى معرفته فما عليه إلا أن يخرج إلى ظاهر المدينة في انتظار القافلة المسافرة
إلى البلد المقصود ليعهد برسالته أو أمانته إلى رئيسها أو واحد من أفرادها إما على
سبيل التطوع والتبرع أو على سبيل المقارضة والاتفاق على جعل معلوم ، ولا يزال
هذا هو أسلوب أعراب البادية في نقل أخبار رسائلهم في طول هذا الخضم من
الصحراء وعرضه .

ولذلك فيجب أن نوفر على أنفسنا منذ الآن مؤونة البحث في نظم البريد القديمة
عن مدى استعماله في مصالح الأفراد الخاصة فلقد جهدت نفسي إجهادا شديدا خلف
هذه الغاية ، وفرضت أنني لا أستطيع أن أصف نظام البريد عند العرب بالتطور
والارتقاء إلا إذا حققت مدى استعماله في الشؤون الخاصة ، ولكنني رجعت من بحثي
بصفقة المغبون ، لم أجد سوى عبارات قليلة شاردة هنا وهناك ، حاولت أن أفسرها
لتحقق غرضي ولكنني أدركت أنني أتعسف التفسير وأنه خير لى أن أقرر بصورة
قاطعة أن نظام البريد في القديم إلى عهد الدولة الإسلامية المتأخر كان ينظر إليه كظهر
من مظاهر السلطة المحضة وأن مرجع ذلك هو الضروريات الأولية التي أدت إلى ظهور
نظام البريد .

(٤) البريد عند الفراعنة : لسنا الآن في صدد التعرض لمصر القديمة وتاريخها بين
المدنيات القديمة وهل كانت سابقة على بعضها أم لاحقة عليها ، وهل كانت مصر القديمة
هى ينبوع المدنية الأول أم فاض هذا النبع من بلاد الهند على بعض الآراء ومن آشور
وبابل على بعض الآراء الأخرى . فسواء كان الأمر هذا أو ذاك فليس ثمة جدال أو نقاش
فى أن التاريخ المصرى هو أقدم تاريخ يحقق ومضبوط ، وأن أقدم وثائق يملكها البشر
فى العصر الحديث عن العصور الممعة فى القدم هى وثائق عن التاريخ المصرى ، وهى

ليست وثائق مكتوبة على الورق البالى ولكنها وثائق قد نحتت على الصخور الفولاذية ،
نحتت ونظمت بحيث فاقت الجبال سموها وثباتا وروعة وبهاء . وليس أهرام الجيزة
إحدى عجائب العالم السبع القيمة إلا وثيقة من هذه الوثائق التى تتحدث بأجلى بيان
أن قد كانت على ضفاف النيل منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح مدنية من أرقى المدن
التي استطاعت أن ترفع هذا البناء الذى يحار العقل فى قدرة هذه العقول التى صممته ،
والقوى التى رفعتة ، والأيدى التى نحتته ، والنظام الكامل الدقيق الذى تهيأ فى ظله
القيام بمثل هذا العمل الفذ فى تاريخ العمران . وغنى عن البيان أن هذه المدينة قد
احتاجت للوصول إلى هذه الذروة إلى بضعة آلاف أخرى من السنين سابقة على بناء
الأهرام وهذا ما يرجح القول بأن وادى النيل الحبيب كان أول مسرح من المسارح
التي مثلت عليه الإنسانية قصة تطورها منذ كانت تعيش فى الكهوف والأدغال أقرب
ما تكون إلى الحيوان إلى أن صارت دولة كأرقى ما تكون عليه الدول فى الحضارة
والعمران . . . فلا عجب إن كان نظام البريد فى ظل هذه الدولة المصرية كأكل
ما يكون من حيث الدقة والنظام . ولسنا فى حاجة لتقديم الدليل على ذلك فإن مقتضيات
الأحوال تؤدى إليه ، فبعد أن صارت مصر قطرا واحدا من البحر حتى الشلال
وأصبحت تحكم من عاصمة الملك فى منف أو طيبة فلا بد من اعتماد ذلك على نظام
حكم للبريد الفرعونى .

على أن أول وثيقة جاء بها ذكر البريد يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية عشر
(حوالى ٢٠٠٠ ق م) وهى وصية كاتب لولده يظهره فيها على أهمية صناعة الكتابة
والمستقبل المجيد الذى ينتظر الكاتب فى وظائف الحكومة ، ويتحدث فيها عن بؤس
أصحاب الحرف والصناعات الأخرى مما ينطبق تماما على معنى الصور الساحرة التى وجدت
فى بنى حسن . فقد قال هذا الكاتب ضمن ما قال : «أما ساعى البريد فإنه يحمل أثقالا
فادحة ويكتب وصيته قبل أن ينطلق فى مهمته ، توقعا لما قد يصيبه من الوحوش
والأسيويين»^(١) . وواضح من هذا النص أن البريد كان موجودا عند الفراعنة منذ
الدولة القديمة وأنهم تمكنوا عن طريقه من الاتصال بالعالم الخارجى . إلا أنه كانت
تعوزه الطرق السابلة بالأمن والمتزودة بالمحطات ووسائل الراحة كما كان الحال عند
الرومان والفرس مثلا ؛ ولم يكن هذا النقص فى طرق المواصلات عن قصور الفراعنة
وجهلهم بفن الطرق وإنما قسوة الطبيعة فى ذلك العصر وتحكم العوامل الجغرافية

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٢٠ — انفرد هذا المرجع بتلك الوثيقة

في نظمهم هي التي حالت دون إكمال هذا العيب . فتنظيم طريق للمواصلات في هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا في بلاد تغطي بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول هيرودوت « عندما يفيض النيل على البلاد لا تظهر إلا المدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة في بحر إيجيه . وبقى مصر يصير بحرا وعندما يحدث ذلك فإن القوارب لا تمشي في مجرى النهر الطبيعي بل تسير في طول السهل وعرضه فالمسافر من نقراس متجها منفى ير بالضبط بالقرب من الأهرام »^(١) وعليه لم تكن تسمح طرق المواصلات للسلطة المركزية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة مع حكام المقاطعات الذين أعطوا سلطة واسعة في عهد الفراعنة الضعفاء ، وبدأوا يعملون على الاستقلال من التاج ولعل أقدم وأهم مجموعة وصلت إلينا من الرسائل مجموعة رسائل تل العمارنة المكتوبة بالخط المسماري ، وهي في الواقع عبارة عن سجل المراسلات السياسية نقلها أمنتخب الرابع سنة ١٣٦٤ ق م Amenophis من طيبة إلى أخيتاتون (تل العمارنة) عاصمته الجديدة وقد تبودلت هذه الرسائل بين أمنتخب الثالث والرابع (١٤٠٥ — ١٣٥٢ ق م) وبين ملوك الحيثيين وآشور وبابل وقبرص وصقلية وهي تثبت أن فراعنة مصر كانوا يستخدمون كتابا يجيدون اللغات المعروفة وقتذاك^(٢) من ذلك يستدل على أن الفراعنة قد نظموا بريدا داخليا وخارجيا اتسع نطاقه أيام الدولة الحديثة وجابت سعاته العالم القديم المعروف حينذاك . ولكن ذلك مالا يستطيع القطع فيه برأى للافتقار إلى الوثائق والإيضاحات ولكن يفهم من المتواتر في كتب التاريخ وما كتبه الباحثون أن الفراعنة كانوا يرسلون سعاة البريد إلى حيفا والشام وكنعان والحبشة وأنه كان يتعين على هؤلاء السعاة أن يتقنوا لغات البلاد التي يحملون إليها الرسائل . أما الرسائل الرسمية الداخلية فكان لها بريد منظم وكان يتولى نقلها سعاة معروفون بالأمانة . وأما بريد الجمهور فلم يكن له نظام بذاته لأن الفراعنة لم ينشئوا إدارة للبريد بالمعنى الذي نفهمه اليوم بل كان الأغنياء يبعثون برسائلهم مع عبيدهم وكان الفقراء ينتهزون هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد^(٣) .

وقد رأى بعض المؤرخين^(٤) أن قصور المصريين عن ترتيبهم البريد يرجع لأمرين :

(١) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن ج ٢ ص ٢٢١

راجع المراسلات البريدية بين أمنتخب الرابع وعماله في سوريا بالمتحف المصري بالحجرة رقم ٣ بالدور الأول تحت البطاقات من رقم ١١٩٣ إلى ١١٩٧ .

(٢) تاريخ البريد في مصر ص ٢١ — انفراد بالخبر

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة (٤) الطائر الفريد ص ١٦٨

الأول أن غنى البلاد بعلومها وخصب أرضها جعل في الأهالي ميلا إلى السكون وتجنب
الغربة للتجار أو اكتساب الفنون التي من أهم حاجاتها التراسل . والثاني أن تسلط
آراء الكهنة واستبدادهم بالعلوم منع الأهالي من التعليم والحكام من افتتاح طرقها
وتوسيع نطاقها بواسطة التراسل بالبريد . وإذا ناقشنا هذا القول اتضح لنا فساد الأمر
الأول لمنافاته للواقع والتاريخ ، فالأمم عادة إذا ما شعرت بالرخاء والسعادة رغبت في
التوسع والاستعمار الاقتصادي والسياسي ، فالقراغة رغم خصوبة أرضهم وغناها ،
اشتغلوا بالتجارة واهتموا بطرقها وسفنها ، فالملكة حاتشبسوت أرسلت بعثة تجارية إلى
بلاد بنت بقصد الاتجار معهم ، والملك نخاو الأول اهتم بكشف سواحل أفريقية فأرسل
أسطوله للطواف حولها ، أما الأمر الثاني فقد يكون فيه شيء من الصحة إذا ما عرفنا
أن اهتمام ملوك الأسرة الخامسة والملك أمنحتب الرابع بالمسائل الدينية أدى إلى إهمالهم
ورجال حكوماتهم النظم الحكومية ، فانقرط عقد الأمور في الحكومة المركزية
وانقطعت الصلة بينها وبين حكوماتها المحلية .

ويغلب على الظن مما تقدم أن الحمار قام بدور هام في المواصلات البرية ، خصوصا
في عصر الدولة القديمة يوم أن كان دابة الحمل العادية لصبره وتحمله ، وقد استعمل منذ
أقدم العصور في القوافل والبعوث التي كان يرسلها الملوك إلى الجهات النائية^(١) . مما شئت
قطعا تخصيص القراغة للبريد دوابا^(٢) تقوم بحمله خارج القطر وداخله . هذا إلى جانب
استخدامهم لسعاة القدم الذين كانوا يتبعون ضفئ النيل في رواحهم وغدوهم في داخل
البلاد ، ويسلكون إلى الخارج الطرق التي تسلكها القوافل والجيش^(٣) .

(٥) البريد عند البطالمة : يغلب على الظن مما تقدم أن مصر لم تعط نظام البريد
حقه كما ينبغي ونشئ ، حتى غزاها الفرس في القرن السادس قبل الميلاد . وكانوا قد
عرفوا البريد في دولتهم ونظموا له دوابه ورجاله كما سنرى بعد ، فلا بد وأن يكونوا قد
أدخلوا بعض التحسينات على البريد الفرعوني ، فوجد البطالمة إذن فيما بعد نواة هذا
النظام فتعهدوه بالعناية والرعاية . وقد سجلت مصلحة البريد المصرية يوم انعقاد مؤتمر

(١) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن ج ٢ ص ٢٢١

(٢) أما الحصان فلم يدخل مصر إلا مع الهكسوس الذين جلبوه معهم من أواسط آسيا في القرن
١٨ ق م فهو حيوان شرق كما أطلق عليه البعض "The beast from the East."
Cambridge Anc. Hist. Vol. 2 p 227

والجمل هو الآخر لم يعرفه المصريون إلا عند دخوله مع الاسكندر .

(٣) تاريخ البريد في مصر ص ٢١

البريد العالمى بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ، ما بذله ملوك البطالمة من جهد مشكور فى المحافظة ، على هذا النوع من الأنظمة الحكومية ، والاهتمام بسعاة البريد ومواعيد سفره إذ أشارت المصلحة المذكورة^(١) إلى وثيقتين تاريخيتين على جانب عظيم من الأهمية ترجعان إلى هذا العهد ، تبين إحداهما نظام البريد السريع لنقل رسائل الملك ووزيره الأكبر وموظفى الدولة ، وتبين الثانية نظام البريد البطيء الذى استخدم فى نقل البريد بين الموظفين فى داخلية البلاد .

فأما الوثيقة الأولى : فهى ورقة بردى وجدت فى إحدى القرى المصرية ، وظهر أنها جزء من سجل كان يستعمله رئيس مكتب البريد فى بلد بالفيوم لقيود عدد المراسلات الصادرة من الملك والواردة إليه ووزيره وكبار الموظفين . وفى هذه الوثيقة التاريخية الهامة الدليل الكافى على انتظام البريد فى عهد البطالمة . ولم يذكر فى هذه الوثيقة تاريخ معين ، وإنما جاء بها ذكر رسائل وردت باسم وزير المالية أبولونيس ، ولما كان قد تقرر من مصادر أخرى أن هذا الوزير عاش فى المدة بين السنة السابعة والعشرين والسنة الثانية والثلاثين من حكم بطليموس فلادفوس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فإن هذه الوثيقة لا بد أن تكون كتبت فى هذه الفترة ، وقد سجل رئيس مكتب البريد عدد الرسائل والملفات التى صدرت أو وردت إليه ، وذكر أمام كل إرسال اسم الساعى الذى أرفقها وساعة وصولها أو خروجها ، والطريق التى سلكها فى الصعيد أو الدلتا . ومن ذلك أمكن الاستدلال على أنه كان بمكتب البريد أربعة سعاة يتناوبون العمل ، اثنان لنقل البريد شمالا ، واثنان لنقله جنوبا . وأنه كانت تمر بالمكتب المذكور أربع إرساليات يوميا . الأولى صباحا فى الساعة السادسة من الجنوب إلى الشمال ، والثانية ظهرا من الشمال إلى الجنوب ، والثالثة والرابعة مساء من الشمال إلى الجنوب فى الساعة الخامسة ، ومن الجنوب إلى الشمال فى الساعة السادسة . . . وأما المدة المقررة لنقل إرسالية البريد من هذا المكتب إلى المكتب الذى يليه فكانت ست ساعات ذهابا ومثلها إيابا .

وقد لوحظ أن الخطابات المرسلة إلى الملك لم يذكر بها غير اسمه وذلك دليل على أن موظفى البريد كانوا يعلمون محل وجوده حتى لو غادر الإسكندرية فى سياحة . أما رسائل الملك إلى كبار رجال الدولة فى هوقيو بوليس أو طيبة فكانت تذكر بها جهة الإرسال . وأما الخطابات الأخرى التى لم تذكر بها الجهة فكان مفهومها أنها مرسلة إلى الإسكندرية ؛ وذلك بخلاف الخطابات المرسلة إلى الجنوب فكان لابد فيها من ذكر اسم المرسل إليه

وعنوانه . ومما يستوقف النظر في تلك الوثيقة وجود اسم شخص لاصلة له بأعمال البريد ، وقد ذكر أمام الاسم أن صاحبه دفع مبلغا من المال مما يدل على أن هذا الرجل لم يكن من موظفي الحكومة ، وإلا لأرسل خطاباته بدون مقابل وأنه لم يدفع هذا المبلغ لنقل مراسلاته لأن هذا البريد السريع كان خاصا بنقل رسائل الملك ووزير المالية وكبار الموظفين . وإذن لابد أن يكون الرجل قد دفع هذا المبلغ على سبيل الغرامة لأنه لم يقدم لسعاة البريد الخيل والطعام ، فقد كان سعاة البريد السريع يستخدمون الجياد ، ومن المرجح أن إعداد الجياد كان فرضا لازما على أصحاب الإقطاعات .

وحسبك دليلا على سرعة البريد المستعجل في زمن البطلمة أن خطابا أرسل إلى الإسكندرية من بلد في الفيوم فبلغها بعد أربعة أيام . مما يفيد أن البطلمة أنشأوا بريدا سريعا منتظما لنقل الرسائل الرسمية ، وأن مكاتب ومحاط البريد كانت منتشرة على طول الطرق بين المدن الهامة وحاضرة الدولة ، وأنه كان يوجد لكل مكتب عدد من السعاة الرابكين يتولون نقل البريد شمالا أو جنوبا عقب وصوله من المحطة السابقة أو اللاحقة ، وأن موظفا كبيرا في كل مكتب كان يتولى قيد الرسائل وساعات إرسالها أو ورودها وأسماء السعاة الذين رافقوا الإرساليات وأن أصحاب الإقطاعات كانوا في الغالب مكلفين بتقديم الجياد وتسهيل عمل موظفي البريد .

أما البريد البطي ، فقد نصبت عليه الوثيقة الثانية المعروفة باسم بردى Oxgrhgnchos 710 ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة ١١١ ق م . ومنها نستدل على أنه كان يوجد بإحدى المقاطعات مكتب للبريد يعمل فيه رئيس و ٢٤ ساعيا وجمالا وشرطيا . فكان رئيس المكتب مكلفا بقيد المراسلات والاهتمام بالموظفين والدواب . أما الجمال فكان ينقل الطرود الثقيلة التي لا يستطيع نقلها سعاة القدم الأربعة والعشرون ويحتمل أن تكون مهمة الشرطي قد اقتضرت على مرافقة الجمال للمحافظة على الطرود . ويغلب أن يكون هذا البريد قد استخدم في نقل المراسلات في داخلية البلاد ومن حاضرة إحدى الإقطاعات إلى حاضرة الإقطاعية الأخرى ؛ ولكننا لا نعلم هل كانت له مواعيد معينة أم كان السعاة المشاة يرسلون عند اللزوم . كما أننا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن بريد الجمال في هذا العصر ، وإن كان ذكر هذا البريد قد ورد في كثير من البردى الذي تخلف عن العهد الروماني ، ولكننا نفهم من وجود جملة واحد في مكاتب البريد أن الإرساليات كانت تنقل مرة في اليوم على الأكثر . ومن الثابت أن المراسلات الخاصة لم تكن تنقل بالبريد السريع وأن الأهالي كانوا ينتهزون فرصة سفر أحد أقاربهم

أو معارفهم إلى بلد لينوطوا به نقل مراسلاتهم إلى ذلك البلد . وهذا هو السبب في أن أكثر الخطابات الخاصة التي يرجع تاريخها إلى عهد البطالمة كانت تسهل دائماً بهذه الكلمات « إنني أنتهز فرصة سفر فلان لأبعث معه بهذه الرسالة وأنبئكم بأن ... »

ويوجد الآن في متحف البريد ببرلين وثيقة تاريخية ترجع إلى عصر البطالمة وهي عبارة عن قائمة من الرسائل والملفات الواردة إلى البلاط الملكي^(١).

(٦) البريد عند الرومان : لقد اختلفت الروايات التاريخية في تقرير ابتداء نشأة

البريد عند الرومان ، فمنها من نسب أول ترتيبه إلى يوليوس قيصر ، ومنها من قال بوجوده أيام الجمهورية الرومانية القديمة . ولكن يغلب على الظن أنه لم يكن مرتباً فيها بنوع عام ، وإن كان لأمرء البلاد برد كثيرة مختصة بمراسلاتهم ، وقد قال البعض بوجوده عند الرومان قبل ميلاد المسيح بقرن^(٢) ، بينما قال الآخرون بنشأته في أوائل القرن الأول الميلادي ، حيث أقاموا شبكة من مراكز البريد تتراوح المسافة بين كل مركز وآخر بخمسة أو ستة أميال ، وبكل محطة أربعون من خيل البريد يقطع المسافر بفضلها يومياً مائة من الأميال^(٣) . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في تقرير ابتداء نشأة البريد عند الرومان ، فإن أباطرتهم أدركوا ما للبريد من أهمية سياسية وحرية وإدارية فعنوا بتنظيمه في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، وعرف عندهم باسم *Cursus publicus*^(٤) .

ومما يؤثر عن يوليوس قيصر أثناء إقامته ببريطانيا أنه أرسل خطابين إلى شيشرون في روما . وصل أولهما بعد مضي ثمانية وعشرين يوماً ، وهذا يدل على مدى السرعة التي وصل إليها البريد في عهده ، ومدى عنايته بنظام المراسلات ، وقد وضع قيصر في مذكراته نظام المراسلة السريع في استخدامه لدى الغالبيين ، إذ رتب السعاه على مسافات معينة ، يعدو الأول بكل قواه إلى الثاني فيحمل هذا الرسالة بنفس السرعة إلى الثالث وهكذا حتى الأخير ، وكانت الأخبار والأوامر ترسل من نقطة إلى أخرى بسرعة مقطوعة النظر ، فمثلاً ما يحدث في أورليان يعرف في مساء اليوم نفسه عند الأرفرن *Lesarvernes* في أوفرن *Auvergne*^(٥) .

(١) Encyclopaedia Britannica Vol. 183P. 303

(٢) الطائر الفريد ص ١٠٩ (٣) Gibbons vol. I. P. 45

(٤) 113 Ladministration civile deL. Égypte Byzantine . دائرة المعارف

الاسلامية ج ٣ ص ٦١٠

(٥) Pirre Larousse Vol 12. P. 15 co. oeus

وبلغ البريد الروماني أعظم مبلغ من الدقة في عهد الإمبراطور دقلديانوس الذي أقام المراقبين *Curiosi Cursus publici* على عمال البريد ومحطاته ، وأجاز لهم إبلاغ المخالفات إلى رؤساء الشرطة أو الإمبراطور ذاته^(١) . وقد حاول أوغسطس إصلاح البوليس عن طريق استخدام عربات البريد فكثيرا ما كان يجتمع عمال البريد من جهات وأماكن مختلفة في عربة واحدة . فيسأل أحدهم الآخر عن الأحوال العامة في مقاطعته وما تتطلبه من إصلاح في الأمن والإدارة^(٢) . وتوسع دقلديانوس في نظام البريد فخصص نوعا منه للإدارة ، وآخر للشئون الحربية ، وثالث للأفراد ، وقد أفاد البريد الحربي تراجان عندما أراد أن يؤمن الاتصال بين الفصائل الحربية التي وزعها على أطراف الإمبراطورية ، فأنشأ مراكز البريد وزودها بالحراس والخيول^(٣) . وحرّم على كبار رجال الدولة وأعيانها السفر عن طريق *Public post* فكان لهذا التحريم وقع حسن في نفوس ساكني الولايات^(٤) . ولما انقسم العالم الروماني إلى شرقي وغربي نال نظام البريد حظا وافرا من عناية أباطرة الدولة الشرقية سيما الإمبراطور قسطنطين وسرعان ما ظهر لديهم البريد السريع *Cursus Velox* لنقل رسائل الدولة ، والبريد البطيء *Cursus Clabularis* لنقل الأشياء الثقيلة^(٥) . ولأدّل على عظمة البريد السريع عندهم من أن أحد حكام الإمبراطور تيودوسيوس *Theodosius* حمل على البريد من مدينة أنطاكية *Antioch* إلى القسطنطينية وقد بدأ رحلته ليلا من كبادوكيا *Cappadocia* فوصل إلى القسطنطينية في ظهر اليوم السادس بعد أن قطع مسافة طولها ٦٦٥ ميلا^(٦) وفي العصور الوسطى أسندت بيزنطة إدارة بريدها إلى شخص كان يلقب *The Logothete of the Dromos*^(٧) ولعل هذا اللقب يقابله في العصر الإسلامي صاحب ديوان البريد وقد وصف ابن خردادبة بريد الروم بقوله «وبريد الروم براذين لطاف محذفة الأذنان خفاف وحلبتهم غرة إذا ريجرى الملك خيله وخيل أمرائه بباب الذهب وهي خيل بين فرسين عجلة ، عليها الغلمان الوصفاء قيام بالسماط ، وليس للروم في عساكرهم أسواق إنما يحمل الرجل من منزله كعصكه وزيته وخمره وجبنه^(٨) » غير أن هذه الخيول استبدلت بالحمير

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٢٠ (٢) *Pierre Larousse Vol. 12 P. 1500.*

(٣) *Gibbons Vol. 1 P. 638.*

(٤) *The Roman Sys. of Pr. Adm. P. 109.*

(٥) تاريخ البريد في مصر ص ٣٢ (٦) *Gibbons Vol. 1 P. 46.*

(٧) *Camb. med. Hist. Vol. 4 P. 731.* (٨) ابن خردادبة ص ١١١ .

في عهد الأمير اطور جتنيان على أثر انحطاط البريد بالتدريج لعجز الولاة عن الاتفاق على خيل البريد ومحطاته^(١).

ولم تقتصر مهمة عمال البريد الروماني على نقل الرسائل الخصوصية والعمومية بل تعدتها إلى نقل الأسماك والأطعمة النادرة الآتية من مختلف أجزاء العالم. وكانت عجلات البريد بطبيعة الحال هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الرغبة الإمبراطورية، كما أن هؤلاء العمال قاموا بعمل الجاسوسية الخطيرة المنظمة والمراقبة الدقيقة على ولايات الأقاليم، وبلغ عددهم في عهد الإمبراطور قسطنطين مائتي أو ثلثمائة عامل يرأسهم صاحب ديوان البريد، وصل هذا العدد إلى العشرة آلاف في عهد الأباطرة الضعاف، وكثيرا ما اشتط هؤلاء العمال في تقاريرهم عن مسلك حكام الولايات وبالتالي عن مسلك المواطنين أنفسهم. لذا حق على جيبون أن ينعتهم بعيون الإمبراطور الساهرة على مصالحه وإن كانت هذه العيون وبالا على عامة الناس^(٢). وكان لما يغدقه البلاط الإمبراطوري من المبع والمكافآت المالية على هؤلاء الجواسيس أثر فعال في تتبعهم بكل يقظة واهتمام علامات السخط والخيانة في الولايات التي تنذر عادة بقيام الفتن والثورات بها، فكانت مهامهم دائما منصوبة إلى كل من المذنب والبريء، فالحاكم المخلص في ولاية كسوريا أو بريطانيا مثلا معرض في أي وقت لاتهاماتهم فيؤخذ مكبلا بالسلاسل والأغلال إلى ميلان أو القسطنطينية للدفاع عن حياته وماله إزاء ماوجه إليه من اتهامات خطيرة عن طريق هؤلاء الجواسيس. فليس من التعسف في الرأي القول بأن نظام البريد عند الرومان كان موصوما بالجور والظلم وقد اتخذ الأباطرة سلاحا ماضيا لمعالجة الخلل الذي أصاب الأداة الحكومية سيما بعد أن زادت شكوكهم في مدى إخلاص حكام الولايات لهم^(٣). وكان عمال البريد الرومانيين يحمل بعضهم أجراسا أو آلة تشبه الناقوس الصغير يقرعونها وقتا بعد آخر أو ينفخون بالصور وذلك إشارة إلى مرور البريد، بينما يحمل الآخرون قطعة من البرنز بقدر الريال منقوش عليها اسم « بوسنة » تميزها لحاملها بنوع جامع بين اللياقة والمهابة، وفي وقت سير البريد غير المستعجل كانوا يتناوبون الترنم بالأناشيد المتنوعة وهي أشبه بحذاء العيس المعروف عند العرب. وإذا كانت مواعيد البريد متباعدة فإن مصالح البريد

— L' Administration civile de l' Egypte Byzantine p. 303 (١)

تاريخ البريد في مصر ص ٣٢

(٢) يشير جيبون في ذيل (ص ٥٤٨) من الجزء الأول إلى أن أباطرة الرومان أخذوا نظام الجاسوسية عن الفرس وسيشاهد القارئ في العصر الإسلامي عناية خلفاء المسلمين بالجاسوسية كما سيُشاهد أيضاً حذوهم حذو الأباطرة في جلب الأطعمة والفواكه من الولايات عن طريق البريد.

Gibbon Vol 1 p. 548 (٣)

تطلق التنبيه بالمدينة عن يوم سفره ويوم وصوله ، وذلك بأن يطرق العامل جرسا يطنه في كل نقط المدينة المهمة وحينما يجتمع عليه الناس يعلمهم بأعلى صوته عن وقت سفر البريد أو وصوله (١) .

وفي الوقت الذي أخذ فيه بريد الدولة في الانحطاط والتدهور شرع كبار الملاك في تنظيم بريد سريع لنقل مراسلاتهم الخاصة (٢) . ويقول بعض (٣) الباحثين أن بريد النبلاء والملوك وضع أيضا في خدمة الأهالي ولكن هذا القول يحتاج إلى الإثبات . وقد تخلفت عن العهد البيزنطي بمصر وثيقة هامة من بريد الملاك والنبلاء هو عقد يرجع تاريخه إلى سنة ٥٥٠ م مبرم بين رجل يدعى أوريليوس سيرجوس من منظمي الإصطبلات وبين نبيل من كبار الملاك في بهنا يدعى فلاريوس سيرنيوس يتعهد فيه الأول بصفته « منظم اصطبلات الخيل للبريد السريع » بنقل مراسلات الثاني لمدة سنة واحدة ابتداء من أول شهر باكون . وذلك بكل سرعة وإخلاص وأمانة وبدون التورط في ذنب أو خطأ وبلا تأخير إلا في حالة المرض ، على أن يكون الأجر ٨٠ كم من الحنطة وتسع قطع من الذهب و ٢٤ كم من النبيذ ... الخ . ويقرر أنه قبض سلفا نصف القطع الذهبية ويتعهد ألا يتخلى عن العمل طيلة المدة المتفق عليها وإذا فعل تعين أن يدفع ضعف المبلغ الذي قبضه سلفا ... من ذلك يتبين لنا مدى عناية كبار الملاك بتنظيم البريد وعليه تكون عناية الدولة أعظم شأنًا وأجل خطرا . وبسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب وتغلغل البرابرة في شرايينها أصاب نظام البريد ما أصاب غيره من النظم الحكومية الأخرى من مظاهر التدهور والانحطاط حتى أعاد ملوك القوط الغربيين تنظيمه من جديد خصوصا الملك تيودريك (٤) .

أما عن بريد اليونان فإن المصادر التاريخية التي وصلت إلينا لم تشر بقليل أو كثير عن اهتمامهم به غير أن بعضها قال إنهم كانوا يسمون يريد هم الخصوصى بما معناه «ملاك» نسبة إلى الملك جبرائيل الذي يحمل الأوامر الآلهية إلى الأنبياء والصالحين كما يسميه الصينيون « كوما » ومعناه جائب أو رائد على ما يقال (٥) .

(٤) الطائر الفريد ص ٢١ ، ٢٤ ، ٩٤

(٢) L' Administratin civile de L' Egypte Byzantine p.203

(٣) تاريخ البريد في مصر ص ٣٢

(٤) Encyclopaedia Brit annica Vol. 18 p. 303

ملحوظة : لنا عودة إلى الرومان في الفصل الرابع عند الكلام على طرق البريد .

(٥) الطائر الفريد ص ٤٧

(٧) البريد عند الفرس : أسس دولة الفرس القديمة الملك كورش Cyrus ولسنا نعرف بالضبط هل كان نظام البريد الموجود في أيامه والذي لم يرد ذكره في عهده إلا في رواية واحدة^(١) من ابتكاره الخاص أم نقله عن الدول القديمة السابقة لدولته ، فن عبارات ديودورس المؤرخ اليوناني يفهم أن البريد كان مرتباً عند الصينيين في القرن العاشر قبل الميلاد ، وعند الآشوريين والبابليين منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وأن يجوسيس لما تملك على الميديين رتب البريد في القرن السابع قبل الميلاد ، فكان ما عمله كورش اعتبر من ضمن حذقه واجتهاده في إدخال الإصلاح والتحديث للبلاد ليستميل قلوب الشعب إليه بواسطة ترتيب أمور لم يسبق لهم أن « تذوقوا لذتها من قبل^(٢) » على أن التواريخ الأكثر تداولاً قديماً وحديثاً تثبت أن أشهر البرد القانونية ما كان مرتباً عند الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن أول من رتبته الملك دارا الأول ابن قمبيز فهو الذي أقام في سكك البريد دواب مقطوعة الأذنان سميت (بريد ذنب) وعنه ذهب البعض^(٣) إلى إسناد أصل الكلمة إلى الفرس كما سبق القول ثم سقطت دولة الفرس على يد الإسكندر سنة ٣٣١ ق م . وأعيد تأسيسها سنة ٢٢٦ م على يد ساسان مؤسس الأسرة الساسانية ، وأعاد كسرى أنوشروان تنظيم الأداة الحكومية ومن بينها نظام البريد فأسند البعض خطأ ترتيب البريد الفارسي إليه ؛ مع أننا نرجح إسناد ترتيب البريد الفارسي بمعناه المفهوم اليوم إلى دارا الذي جعل له دواب خصوصية مبتورة الذنب تميزاً عن غيرها فسميت « بريد ذنب » أي مبتورة الذنب فلما عرت حذف جزؤها الأخير فقالوا بريد^(٤) . ويؤيد هذا الترجيح بقاء اسمه الفارسي المتداول بين العالم إلى الآن نسبة إلى دوابه الخصوصية . . . ولما كان الغرض الأساسي من إيجاد نظام البريد خدمة مصالح الدولة لا مصالح الأفراد^(٥) . كان لزاماً على ملوك الفرس أن يفرّدوا ديواناً خاصاً للبريد ليتأكدوا من دوام وسرعة إيصال الأخبار من الحكومات المحلية إلى الحكومة المركزية كما يفهم من عبارة المسعودي^(٦) « وكان لأنوشروان خواتيم أربعة : خاتم للخراج فسه من العقيق نقشه العدل ، وخاتم للضياع فسه فيروزج نقشه العمار ، وخاتم للمعونة فسه ياقوت كلى نقشه الثاني ،

(١) Larousse Vol. 12 P. 1497 (٢) الطائر الفريد ص ٤٧

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٢٤٧ — دائرة معارف البستاني ج ٥ ص ٤٠٠

(٤) الطائر الفريد ص ٥ Christensen P. 75 (٥)

(٦) مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٦، ٢٣٧

وخاتم البريد فصفه يا قوت أحمر كالنار نقشه الرجاء » . وإذا ما محدث عن الملك أبرويز يقول : « وكان لأبرويز تسعة خواتيم تدوم في أمر الملك . منها خاتم صفه يا قوت أحمر . . . ، والخاتم الثالث صفه جزع نقشه فارسي وحلقته ذهب منقوش فيه ألوحا بختم به أجوبة البريد » . ومما يؤثر عن أبرويز أنه كتب إلى ابنه شيرويه ينصحه بمعاينة من يتلصكاً في دفع الخراج واستخدام البريد كوسيلة من وسائل ضمان جباية الخراج وعدم تلص أحد من دفعه : « اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك على الكثير منها . . . وأبرد البريد في الدرهم ينقص من الخراج ، ولا تعاقبن على شيء كعقوبتك على كسره^(١) » . غير أن البلاذري^(٢) يشير إلى انضمام مصلحة الرسائل والرسل إلى المصالح الأخرى تحت إشراف صاحب الزمام « كان الملك من ملوك الفرس خاتم للسر وخاتم للرسل ، وخاتم للتخليد يختم به السجلات والأقطاعات وما أشبه ذلك من كتب التشريف ، وخاتم للخراج فكان صاحب الزمام يليها وربما أفرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك » ويفهم من هذه الإشارة أن ملوك الفرس اختصوا عنايتهم بصاحب الرسل والرسائل وكانوا يتحرون الدقة في من يتولى وظيفة البريد لاعتبارها من الوظائف الهامة في الدولة . ومما يؤثر عن كسرى أنه كان لا يولى البريد إلا أولاده^(٣) . لضمان ثقته بهم واطمئنانه إلى سرعة إيصال أخبار الولايات إليه وكان أكبر علامات عمال البريد في الفرس كساء خيالة نقل البريد وهو قباء طويل أحمر اللون معلم بشريط أبيض وقلنسوة طويلة من الفرو الناصع البياض وكان العمال يظهرون بها بهيئة تهيج الناظرين^(٤) .

ومما تجدر ملاحظته أن عمال البريد لم تقتصر مهمتهم على نقل الرسائل فقط بل كانوا مثقلين بعبء مراقبة الإدارة في الولايات وكتابة التقارير إلى البلاط فكانهم كانوا أشبه بالجاسوسية المنظمة في عصرنا الحديث . ويحدثنا المسعودي^(٥) عن أنوشروان أنه جلس يوماً للحكام ليأخذ من آدابهم وحكمهم وتبكام كل واحد بما خص من الرأي فقال أحدهم : « أيها الملك أنا جامع لك ذلك في اثنتي عشرة كلمة » ثم عددها حتى قال : « . . . والحادية عشرة إذكاء العيون في الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ أهبطه قبل هجومه » . والمقصود من كلمة العيون هنا من غير شك عمال البريد لأن الجاسوسية

(۱) فجر الاسلام ج ۱ ص ۱۴۲

(٢) فتوح البلدان ص ٢٦٤

(٤) الطائر الفريد ص ٩٤

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠

(٥) مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٨

من طبيعة عملهم ولوازمه . وعليه تكون فارس قد أحكمت نظام الجاسوسية من أقدم العصور ، تلك الجاسوسية الخبيثة التي لم يكن في استطاعة القضاة أنفسهم الإفلات والتخلص من الوقوع تحت مراقبتها وشرها ، ويتضح لنا من خطاب Tensar مدى ما شعر به العظماء في عهد خسرو الأول Khusraul من عبء تلك المراقبة السرية التي ولدت الخوف والدهشة لدى الناس أجمعين . وقد احتاطت الحكومة الملكية لهذا الأمر فعملت على حماية الجمهور من نظام الجاسوسية بتلك الوسيلة وهي « ألا يعين الملك عيوناً أو شرطة إلا من الرجال الخالصين ، الخاضعين الأتقياء ، الأمناء ، المتعلمين ، المصلين ، الورعين ، الفضلاء ، على شريطة ألا يخبروه بشيء إلا إذا كان قد وقع تماماً وموثوق في صحته (١) .

بقي أن يتساءل القارئ هل عرف بنو إسرائيل البريد أم لا ؟ فنجيبه بأنه كان موجوداً عندهم وتراسلوا بالحمام والمشاعل وسيرد الكلام عن ذلك في موضعه . ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فإنني أقصر هذا التأثير على الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز لئلا نصل إلى المجازفة والمبالغة في الحقائق التاريخية فيظن القارئ حقاً أن العرب اقتبسوا عن اليهود من النظم الحكومية بقدر اقتباسهم عن الفرس والرومان مثلاً .

هذا العرض الموجز عن البريد لدى الجماعات والأمم القديمة يعطينا فكرة واضحة عن مدلول هذا النظام ونشأته . والأمر الذي لا يحتاج إلى إثبات هو أن طرق التراسل القديمة جداً ولا يمكن تحديد زمن ابتدائها ، كما أن ترتيبها نشأ حكومياً عند المصريين أولاً فالبابليين والآشوريين ثم الفرس فالرومان ، أي أن أمم الشرق كان لها شرف الأسبقية في خلق هذا النظام والتفنن في أساليبه وطرقه .

ولا يفوتنا أن نسرد ما روى عن بعض ملوك الشرق الأقدمين أنهم كانوا يأتون بالساعي ويخلقون رأسه ويكتبون عليه صورة الرسالة التي يريدون إرسالها في وقت الحرب ثم يشمون به بالإبر كما توشم اليد فينطلق الساعي إلى رئيس الجيش ويخبره بأمره فيخلو به ويكشف عن رأسه فإذا أمكنه تلاوة ما كتب عليه قرأه وفهم الغرض منه وإذا حال دونه ظهور الشعر أمر بحلقه ثانية وقرأ الكتابة ثم يأمر بقطع رأس هذا الساعي المنكود الحظ وكشط جلده ودفنه سراً مخافة أن يقف أحد على هذا الأمر (٢) . على أن

Christensen P. 75 (١)

(٢) الطائر الفريد ص ٧

هذه الطريقة كانت نادرة الحصول ولم يتخذها إلا العتاة عند إعياء الحيل ولم يبق لها الآن في العالم المتمدن إلا أثر الخبر وإن كانت توضح قدرة هؤلاء الجبابرة على التحايل والإفلات من حدوث المستحيلات قبل الممكنات .

انتهى الفصل الأول وهو في نظري أشبه بجمع ما يمكن تسميته بالتراث الإنساني عن البريد وصلنا إليه على أكتاف الغابرين ... ومهمتنا هضم عصارة ما جادت به تلك الأجيال السابقة حتى يتسنى لنا أن نلمس مظاهر النشاط الابتكاري في العقلية العربية إزاء نظام البريد وهذا ما سيظهر واضحا جليا في الفصول القادمة .

الفصل الثاني

البريد في الدولة الإسلامية

انتهينا في الفصل السابق إلى القول بأسناد نشأة ترتيب نظام البريد إلى الفرس الذين عنهم نقل الرومان ، إلا أنهم توسعوا في ترتيبه ، واعتنوا بطرقه عناية فائقة كما ورد في الفصل الرابع . وسنحاول في هذا الفصل معالجة تاريخ البريد عند العرب ، وعن أى الدولتين الفارسية أم الرومانية أخذ العرب نظامه ، ولنبدأ أولاً بكلمة عن بريد عرب الجاهلية .

(١) بريد الجاهلية : لما لم يكن للجاهليين تاريخ صحيح مدون ، ولما كانت أخبارهم قد وصلت إلينا عن الطريق التي تصل منها القصص والأساطير ، أعنى طريق الرواية والأحاديث فإن الكلام عن بريدهم سيكون من باب التصور والتخمين على نحو ما تخيلناه لدى القبائل القديمة ؛ على أن تصورنا في هذه المرة سيكون أحسن حالا من سابقه ، لأنه سيستند على الشعر الجاهلي الذي يمكن اعتباره نصا تاريخيا له قيمة علمية كبيرة ، إذ كان مقامه عند العرب مقام الجرائد الآن ، يذيع الأخبار بينهم ويستعمل في أخبارهم السياسية ، فليأخذ منه إذن مادة للاستشهاد على وجود البريد عندهم ، فامرؤ القيس وهو شاعر جاهلي ومن قبيلة قحطانية يمنية يقول : —

على كل مقصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل من خيلي بربرا
وقال آخر: فدتك عراب اليوم أمي وخالتي وناقى الناجى إليك بريدها (١) .

وعلى ضوء هذين البيتين نستطيع أن نقبس مادة تاريخية محترمة ، فعلاوة على إشارتهما إلى معرفة الجاهليين لكلمة بريد ، أقرر وأنا مطمئن أن اليمين هي الأخرى قد عرفتة وكان نصيبها فيه لا يقل عن نصيب الحجاز . ذلك لأن امرؤ القيس يعنى الأصل فهو يصور ما رآه من نظم إدارية لا في الحجاز وحدها بل وفي اليمن أيضا . ولا بد من التشابه بين أنظمة الإقليمين إذ المعروف عن التاريخ الاجتماعي للعرب أنهم ينقسمون إلى قسمين قحطانية ومنازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز .

(١) لسان العرب ج ٤ ص ٥٣ — الناجى إليك بريدها أى سيرها في البريد

وأنا لا أشك مطلقاً في معرفة عرب الجاهلية للبريد لسببين — الأول أن ما ضوره امرؤ القيس وغيره يتمشى مع منطق الحوادث التاريخية ومقتضيات الأحوال عند عرب الجاهلية الذين اتخذوا من الغارة والسلب وسيلة من وسائل العيش ، فتسطوا القبيلة على الأخرى تأخذ جمالها ونساءها وأولادها وتربص بها القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلت . فهذا التربص يتطلب إقامة الحراس على منطقة نفوذ القبيلة لإصدار شيخها بالخطر الخارجى قبل حدوثه ، كما يتطلب أيضاً بث العيون والأرصاد على حدود القبيلة المجاورة لينذروا شيخهم بالخطر في أدواره الأولى كي يتهيأ للدفاع عن قبيلته^(١) . والسبب الثانى الذى يقطع الشك في وجود البريد عند عرب الجاهلية هو أن كلا من دولتى الفرس والروم رأيت أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرّون ثم يكونون رداء لهم Buffer state يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ؛ فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم ، وكان الآخرون على ما يظهر أرقى عقلية حتى من عرب الحيرة لأنهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية^(٢) . لذلك كانت حياتهم بيزنطية في بذخها وترفها ويمكن أن يقال مثل هذا في نظمهم أيضاً . وعن هاتين الإمارتين العربيتين تسربت المدنيات المجاورة إلى قلب شبه الجزيرة العربية^(٣) . تلك حال البريد عند عرب الجاهلية والآن ننقل إلى العصر الإسلامى ، ولكن قبل استيعاب موضوع البريد في الدولة الإسلامية يحسن بنا أن نعرف القارى .

(١) وطبيعة العرب البدوية كانت تدفعهم — إذا لم يجدوا عدواً من غيرهم — إلى مقاتلة أنفسهم : وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا — فجر الإسلام ج ١ ص ١٠

(٢) فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣

(٣) على أن تأثير الروم في العرب كان مباشراً وأكثر وضوحاً من تأثير الفرس فنذ القرن السادس م حل عرب الحجاز محل اليمنيين في القبض على ناصية التجارة . وكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر ، وقليل ما يبيعونها في أسواق فارس لأن التجارة مع فارس كانت في يد عرب الحيرة . وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المسكيون قبل الإسلام — عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — إلى درجة عظيمة في التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شئونهم . بل وكان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية وللتجسس على أحوال العرب — فجر الإسلام ج ١ ص ١٤ ، ١٥

(٢) المعنى المقصود من « الدولة الإسلامية » : كان حادث الهجرة النبوية حادثاً

تاريخياً له خطره من الوجهتين الدينية والسياسية عده المؤرخون فاصلاً بين عهدين : العهد المكي والعهد المدني فبالنسبة للرسول نجده يصطبغ بالصبغة الزمنية ويصير زعيماً دينياً وسياسياً في الوقت نفسه ، وغدت السياسة من لوازم دعوته ، وبالنسبة لمكة نجد أنها أخذت في الأضمحلال والتدهور وورثتها المدينة في الزعامة السياسية فعظم شأنها وصارت قبلة أنظار العرب ، وتنازع القوة والسلطان في شبه الجزيرة حكومتان : إحداهما إسلامية مركزها المدينة والأخرى وثنية قرشية مركزها مكة ولم يكن ثمة ما ينبئ بأن هذه المدينة الصغيرة إنما هي الحجر الأول في صرح الدولة الإسلامية العظيمة التي قامت بعد ذلك بعشرين عاماً فقط على أنقاض دولتين من أعظم دول التاريخ ؛ هما الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية ، وظلت المدينة حاضرة الإسلام نحو نصف قرن ثم حدث أن فاض الجنس العربي بدينه ولغته وخيره على أم المشرق والمغرب ، فلفظت شبه الجزيرة دفعات من أهلها ، وقذفت إلى الخارج أفواجا بعد أفواج في كل جهة تقريباً ، فكانت ظاهرة التوسع هذه أشبه بهجرة قومية كبرى ؛ وتبع ذلك تبدل في أساليب الحكم والحكامين بل ومقره أيضاً ونتج عن هذا التبدل عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة ، مزج في الدم ، ومزج في النظم الاجتماعية ، ومزج في الآراء العقلية ، ومزج في العقائد الدينية ، ومزج في النظم الحكومية . . . نقلت العاصمة من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق فبغداد فسامرا ثم عادت إلى بغداد ، وطاب لها المقام وظلت في الأخيرة زهاء خمسة قرون ونصف ، تمتعت خلالها ببغداد ، بما لم تتمتع به عاصمة حديثة من أمهات الملوك وعظمة السلطان . فكان رسلها يجوبون العالم المعروف من مشرق الدنيا إلى مغربها يستظلون براية الإسلام ، ويتفاهمون بلغة القرآن أنى حلوا مع شعوب صهرهم الإسلام في بوتقته ، ثم كانت غزوات التتر وأصاب بغداد ما أصابها من ذل واستعباد ، وانتقل بلاط الخليفة العباسي إلى القاهرة أيام الظاهر بيبرس وبقي بها حتى مجيء السلطان سليم العثماني لمصر في القرن التاسع الهجري ، واعتبر هذا التاريخ نهاية للدولة الإسلامية التي عاركت الزمن حوالي عشرة قرون امتدت رقعتها إلى ما وراء سيحون وجيحون شرقاً ، وإلى ما وراء البرانس غرباً ، وإلى أبواب القسطنطينية شمالاً ، فبلاد النوبة واليمن جنوباً^(١) .

(١) جاب المقدس تلك المملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري وقدر طولها من أقصى المشرق بকাশغر إلى أقصى المغرب عند البحر المحيط بنحو من عشرة أشهر وقدر فراسخها نحو الألفين — أحسن التقاسيم ص ٦٣

(٣) البريد النبوي : قد أكون قاسياً في الحكم إذا ما رميت بعض الباحثين بالسقطات والطفوات لأنهم عند معالجتهم لتاريخ المدينة العربية والنظم الحكومية الإسلامية اقتصروا على ما كان عليه الحال زمن الأمويين والعباسيين ليتسنى لهم بعد التصريح بأنهم أخذوا ذلك عن اليونان والفرس لا عن القرآن والنبي ، غافلين ما كان عليه ذلك على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه عليه السلام كان يشغل بمجرد هجرته من مكة إلى المدينة منصب النبوة الديني على قاعدة جمع دينه القويم بين سياسة الدين والدنيا جمعا مزج بين السلطتين الروحية والزمنية حتى أن أحد المستشرقين (١) قال « أن تقدم المسلمين في الحضارة بدأ في نظم الدولة كما بدأ في إدارة الحروب » وعزز هذا القول ما وجدته لدى بعض المدققين (٢) في بحوثهم من قائمة بجميع المراتب الإدارية في حكومة النبي عليه الصلاة والسلام من وزارة بأنواعها ، وكتابة بأنواعها ، والرسائل ، والأقطاعات ، وكتابة العهود والصلح والرسل والترجمان ، وصاحب العسس في المدينة ، والسجان ، والعيون والجواسيس ، وكتاب الجيش ، والقضاة وصاحب المظالم ، وفارض النفقات وفارض الموارث ، والمارستان والمدارس والزوايا ، ونصب الأوصياء والمرضات والجراحين ، والسيارفة وصاحب بيت المال ومتولى خراج الأرض وقاسم الأرض ، وصانع المنجنقات والراحي بها وصاحب الدبابات وحافر الخنادق والصواغين وأنواع المناجر والصناعات والحرف ، فكان مدته عليه السلام مع قصرها لم تخل من ترتيب البريد ترتيباً يعطى رساله ورسائله مقاماً سامياً بين بقية العمال والعمالات ، فسعاته وكتبه قامت بدور خطير في سبيل دعوته لأداخل محيط شبه الجزيرة فحسب بل وخارج سياجها إلى العالم أجمع . ويمكن ملاحظة تبشير هذا النظام باقامة الحراس لنقل أخبار كفار مكة إليه منذ أن بدأت سراياه وغزواته . واستلزم الأمر مراقبة حدود المدينة وطرق القوافل المارة بها حتى لا تباعته قريش فيلتبس عليه أمر صدهم . . . وأظن هذا الاقتراض الخيالي لا يدخل الشك والريبة في نفس القارئ إذ يؤيده منطق الحوادث التاريخية وتتبعها الزمنى ، فمنذ اللحظة الأولى التي عادر فيها الرسول مكة بصحبة الصديق فرارا من قريش اتخذ عبد الله بن أبي بكر (٣) وهو غلام شاب فطن رسولاً يأتيهما بأخبار قريش يوماً بيوم فكان عبد الله يبيت عندهما في بيت العنكبوت ويخرج من السحر فيبيت مع قريش ويجمع أخبارها وما أتخذته من وسائل للبحث عن محمد والتنكيل به . وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد في تاريخ الإسلام .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ بارتولد ص ٥١ (٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦١ — الطبرى ج ٣ ص ١٢٣٦ .

وكانت وظيفة البريد أولى الوظائف الإدارية التي لاقت اهتماما كبيرا من جانب رسول الله فخطت لها وجودا حكوميا منذ الساعات الأولى من ساعات الهجرة ، فلما رتب الرسول حكومته بالمدينة كانت وظيفة البريد قد نضجت ثمراتها وأتت أكلها واتسعت في معناها ، فشملت الجاسوسية حتى أن الجماعة الإسلامية الأولى عندما كانت متحفزة ومتوثبة لمنازلة قريش في بدر خرج الرسول بنفسه ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فأخبره الشيخ بما عنده وهو لا يعلم أنه رسول الله ، ثم رجع الرسول إلى صحبه وأكثر من الرسل يلتمسون له الخبر عن أبي سفيان ^(١) . والأغرب من هذا أنه اتخذ في مكة نفسها عينا يكتب بأخبار قريش إليه ، وهذا العين هو العباس بن عبد المطلب عمه عليه الصلاة والسلام أسلم العباس قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله فكتب إليه مرة « إن مقامك بمكة خير » ^(٢) .

أعتقد إذن أنك تصدقني في صحة هذه الرواية التاريخية وتوافقني في القطع بوجود اختصاصات ديوان البريد في الدولة الإسلامية قبل نشأة الديوان نفسه ، لأننا لم نر بعد وجودا ولا أثرا لوجود كلمة « ديوان » في عصر الرسول . وإن كان ثمة شك في نفسك يخالفني في رأيي فسرعان ما تبدده حوادث السنة السادسة للهجرة ، وما صلح الحديدية الذي وقع فيها بين الرسول وقريش إلا ثمرة من ثمرات البريد النبوي بمعناه الاصطلاحي أي نقل الرسائل الشفوية والكتابية بين فريقين متخاصمين ، فالرسول وصحبه رغبوا في العمرة ، وقريش وعلى رأسها أبو سفيان أبت وأقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . فما الحل إذن وقد خرج محمد من المدينة وأذن في المسلمين بالزيارة والحج فلبوا نداءه ونزلوا في الحديدية ضاحية من ضواحي مكة . أرسلت قريش رسولا ليتعرف قوة محمد ويأمره بالعودة ، وبعث محمد رسوله يبلغها أنه ما جاء يريد حربا ، وإنما جاء زائرا

(١) ويجب ألا ننسى أن من بين الذين كانوا ينتقلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلا وكان من بين رجال قافلة قريش التي اعترضها الرسول في غزوة بدر أبو سفيان وعمر بن العاص ومخرمة بن نوفل وهم سادة قريش ، ومنهم من كان له يد في إدارة شئون الأمة في الإسلام بعد ، وهم أكثر استعدادا لنقل مدينة بني يرون من نظام في المعيشة ، وبني يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجي الضرائب ونحو ذلك وهذه التفت التاريخية وإن كانت مشوهة لا تخلو من أثر في عقلية العرب ، ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذه العرب في جاهليتهم من كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحشية نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم وأخضعوها لقوانينها ، فجر الإسلام ج ١ ص ١٧ .

(٢) التراتيب لإدارية ج ١ ص ٣٣٦

للبيت معظمًا لحرمة . تبادل الفريقان البعوث فكانت بعثة عثمان بن عفان إحدى السفارات النبوية ، انطلقت إلى قريش وطال مكثها هناك حتى ظن المسلمون هلاكها ، واشتد بهم القلق وعولوا على الحرب ، فبايعوا الرسول ببيعة الرضوان المشهورة وقد من الله بشأن هذه البيعة في قوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحًا قريبًا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزًا حكيمًا » (١) .

وبينما هم كذلك وصلت السفارة وقد نجحت نجاحًا باهرًا في مهمتها ، وسجل المفوض الإسلامي لأول مرة في تاريخ دولته انتصارًا عظيمًا على خصمه ودون هذا النجاح في عهد الحديبية . وهي دبلوماسيا تعتبر أولى الوثائق التاريخية الخالدة في تاريخ الدولة الإسلامية ، فالبرغم من أنه اشترط على الرسول العودة إلى المدينة من غير عمرة على أن يأتى في العام التالى ، وبالرغم من تدمير المسلمين من شروط الحديبية ، فإن سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة الدبلوماسية كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين ، وكان الفتح إحدى ثمرات يوم الحديبية كما كانت برده إلى العالم الخارجى إحدى نتائجها الباهرة ، وعلية نستمرسل الحديث عن الهام الجسام التي أداها البريد النبوى للدعوى عموم الرسالة خارج نطاق شبه الجزيرة ، في أواخر العام السادس ، نظم النبي بعوثه أو سفاراته لأكابر الملوك والأمراء المعاصرين فكانت تلك السفارات بين حوادث هذا العهد حادثا فريدا ، وكانت دليلا جديدا على ما تحيى به نفس الرسول العربى من سمو في الشجاعة وقوة الإيمان برسائلته ، وبلغ هؤلاء الملوك والأمراء الذين راسلهم ثمانية (٢) . كان أهمهم وأعظمهم بلارب قيصر الروم ، وملك فارس ، إذ كان الأول زعيم الأم النصرانية والثانى زعيم الأم الوثنية ، نظمت هذه البرد وأرسلت إلى مختلف الأنحاء لكل ملك وفد أو رسول ولكل كتاب نبوى ؛ وكانت مهمتها جميعا واحدة هي الدعوة إلى الإسلام والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . أما ما أسفرت عنه تلك البعوث من نتائج فكانت سلبية بالنسبة إلى قيصر وعاملية على مصر والشام ، ولم تكن حاسمة في شيء بيد أنها كانت ذات أثر معنوى عميق في البلاط الرومانى وفي الكنيسة ، يتضح ذلك في زواج النبي بمارية القبطية وفي بعض المجاملات والأقوال الودية والمحاطبات المتبادلة بين العالمين الإسلامى والنصرانى . . أما كسرى فارس فقد

(١) سورة الفتح

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عنان « الرسالة » العدد ٤٢ من السنة الثانية

مزق كتاب النبي وأهان السفير وطرده . وعلى العكس فكانت النتيجة عملية بالنسبة
لأمراء العرب ، فإن أمير البحرين وأمير عمان آمنوا برسالة النبي واعتنقوا الإسلام
وأدوا الجزية عن رعاياهم غير المسلمين ، وأما صاحب اليمامة وكان نصرانيا فرد الرسول
بكتاب خشن يطلب فيه مشاركة النبي في أمره وسلطانه شرطا لدخوله في دعوته . بقي
أخيرا سفارة النبي إلى الحبشة وهي السفارة الوحيدة التي أرسلت إلى ما وراء البحر
وتقول عنها الرواية الإسلامية أن النجاشي لبى دعوة النبي وأسلم وبعث إليه بكتاب يؤكد
فيه إسلامه . بيد أنه يلوح لنا أن القول بإسلام النجاشي مبالغة يمكن أن يحمل على
ما أبداه النجاشي من أدب ومجاملة في استقبال السفارة النبوية ، والمرجح أن النجاشي
لم يسلم ، ولو أسلم النجاشي يومئذ لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلها ولكانت
النصرانية قد غاضت منها ، بيد أن الإسلام لم ينتشر في الحبشة إلا بعد ذلك بعصر وكان
انتشاره في الجهات الشرقية والجنوبية فقط^(١) .

كانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية ،
بل كانت أول عمل قام به ديوان البريد في هذا الميدان بعد سفارة عثمان السابقة .
على أن هذه الدبلوماسية الفطنة التي لجأ إليها النبي في مخاطبة ملوك عصره لم تذهب كلها
عيثا كما رأينا ، بل كانت في الواقع عملا متحما للرسالة النبوية فلم تمض أعوام قلائل على
إيفاد هذه البعثات حتى كان الإسلام قد غمر قلب الجزيرة العربية وانساب تيار الفتح
الإسلامي إلى قلب الدولتين الرومانية والفارسية ، وأخذ العرب أبناء الدين الجديد
وحملة الرسالة المحمدية يعملون بسرعة خارقة على إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى .

وبلغ من اهتمام الرسول بالبريد أنه أمر عماله أن يردوا له البريد مع أناس يتوافر
فيهم حسن الوجه وجمال الحلقة حتى أنه قال « إذ أبردتني إلى بريدا فأبردوه حسن الوجه
حسن الاسم » وإذا بعث عاملا سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ويرى بشر ذلك
في وجهه ، وإن كره اسمه رأى كراهية ذلك في وجهه^(٢) . واشترط فيهم أيضا قوة
الذكاء وطلاقة اللسان ، وكان عليه السلام حريصا في توافر تلك الصفات في من بعثهم
إلى الملوك المعاصرين له ، لعلمه بأن المبعوث إنما هو لسان مترجم لرغباته وآرائه ، ومحجب
عن كل ما يسأل عنه . وكاف باعثة مثونة غيبته ، وإذا لم يكن كذلك خسر مهمته
ورجع على مرسله بالخسران المبين وحسبنا دليلا على عنايته عليه السلام برسالة أن

(١) المرجع السابق

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٤٦ — لسان العرب ج ٤ ص ٥٣

دحية الكلبي مبعوثه لدى قيصر الروم عندما قدم على الأخير قال له «يا قيصر ، أرسلني من هو خير منك ، والذي أرسله هو خير منه ومنك فاسمع ثم أجب . . . ثم قال هل تعلم أكان المسيح يصلي ، قال نعم . قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه ، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم بعده . . . فأخذ قيصر الكتاب . . . وقال له : «أمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له» (١)

وواضح من تلك العبارة أن دحية قد أحجم قيصر بالحجة والدليل العقلي فأكسب وده وتملك عواطفه ، وإن لم تكن النتيجة عملية إلا أن أثرها المعنوي كان أبلغ وأظهر وضوحا كما سبق القول . وهذا بفضل ما أمتاز به دحية من قوة الذكاء ووفرة الجمال ، فالرواية العربية تصوره في صورة الصحابي المبالغ في جماله ، المفرط إلى حد أن المرأة إذا رآته وهي حامل ألقت ما في بطنها ، الأمر الذي حمّله على التلثم خشية أن يفتن به النساء ، وبلغ من أثر جماله أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله في صورة دحية (٢) . ويحيل إلى أن الرواية ركبت متن الشطط في وصف جمال دحية إلى حد أنها كادت تضعه أو وضعته فعلا في مصاف الأنبياء والرسل ، فمثل هذا الوصف يذكرنا بما ورد عن قصة سيدنا يوسف في القرآن وأمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن بسبب جماله ، وعلى كل حال فإن مانهجه رسول الله من شروط في اختيار سفرائه ورسله لدى معاصريه أمر لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري اليوم لدى الدبلوماسية الحديثة من تبادل السفراء والقناصل ومراعاة الأناقة وجمال الحلقة والكفاءات الممتازة عند اختيارها لهم بصفته ممثلين لأمتهم ورمز المدى ما خطته من سطور في الحضارة والمدنية .

اتخاذ الخاتم لتوقيع رسائل البريد :

هناك ناحية أخيرة من نواحي اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضوع البريد هي أنه لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكسرى يدعوها إلى الإسلام ، قيل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما ، لأنهم يرون في ختم الكتاب تعظيما للسكرتوب إليه فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه «محمد رسول الله» وقد تختم به أبو بكر وعمر وعثمان من بعده ، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس من آبار المدينة وذلك في النصف من

(١) القلقشندي ج ٦ ص ٣٦٠ — التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٠

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٠

خلافته ، فاصطنع عثمان خاتما مثله ، وكان كل من ولى الخلافة بعده يصطنع له خاتما يهتمون به الكتب فى أسفل الكتابة وفى أعلاها بالطين أو المداد ثم صاروا يهتمون به الرسائل بالشمع بعد طيها (١) .

وتاريخ ختم الرسائل قديم قدم التاريخ يرجعه البعض (٢) إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام بتفسيرهم قوله تعالى حكاية عن بلقيس « إني ألقى إلى كتاب كريم » بأنه مختوم ، ومما يذكر عن الأسكندر الأكبر أنه عندما أشرف على الموت مسموما فى بابل وشعر بذلك استدعى فليمون وزيره ، وأمره أن يكتب إلى أمه يعزيها فى نفسه وينهاها بالتسلى والصبر ، ثم أمره بأن يختم الكتاب وينفذه فى السر لأمه (٣) . وبناء عليه يمكن القول بأن اختصاصات ديوان الختم عرفت فى الدولة الإسلامية قبل نشأة الديوان نفسه الذى يرجع فضل نشأته إلى معاوية كما سيحىء ، ويظهر أن اختصاصات ديوان البريد والختم كانت تديرها إدارة واحدة فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى لما هناك من صلة وتشابه بين طبيعته عمل الديوانين .

(٤) بريد الحلفاء الراشدين : ورث أبو بكر عن صاحبه صلوات الله عليه وسلم تركة مثقلة بالديون استنزفت دم شيخوخته وعصارة ذهنه ، وكانت حركة الردة وحدها تنو من ثقلها الجبال ولكن أبا بكر خير من توكل إليه مهام الأعمال فأثبت أنه خير خلف لخير سلف فعقد اللواء للجيش وأعطاهم الكتب إلى المرتدين بأمرهم بالعودة إلى حظيرة الدين ويخوفهم عاقبة الخروج على جماعة المسلمين ؛ وما هى إلا سنة واحدة والبريد يحمل إليه خبر عودتهم ونجاح قواده فى مهمتهم فكان هذا فضلا من فضائل البريد الأسلامى فى يقظته وسرعة نقله أخبار ميادين القتال إلى الخليفة .

ثم جاء عمر وشاهدت الجماعة الإسلامية لونا جديدا من ألوان الحكم وطرزا جديدا من طراز الرجال ، شاهدت رجلا يجمع بين السياستين المدنية والعسكرية بمعناها الحديث ، يدير حكومته فى الداخل ويرسم لقواده فى ميادين القتال خططا حربية لا تصدر إلا من رجل حذق فن الحروب ومارس العسكرية علما وعملا . . . وجد الفاروق أن العرب يندفعون فى فتوحاتهم غير حاسبين للهزيمة أدنى حساب ، فأقر لهم سياسة عدم الأنسياع فى أرض الدولتين الرومانية والفارسية متعلقا بتلايب جنده حرصا منه فى المحافظة على تلك السياسة التى يمكن فهمها من الكتب المتبادلة بينه وبين قواده بعد

(١) فتوح البلدان ص ٢٦٢ تاريخ التمدن الإسلامى ص ١٠٦

(٢) تاريخ اليهود ص ٨٩

(٣) القلقشندي ج ٦ ص ٣٥٣

موقعي أجنادين والقادسية^(١). وهى سياسة سليمة من غير شك وأن كانت لا ترضى قواد العصر الحديث النهمين الذين يدفعهم غرورهم واستهتارهم بالشعوب إلى القذف بشبانهم فى مجازر بشرية لا تجر عليهم إلا الدمار والخراب ، وهذا ماتحاشاه أكبر قواد المسلمين فى القرن السابع م . ذلك لأنه كان يعلم أن أقدام العرب لم تثبت بعد فى فتوحاتهم الجديدة ، وأن عددهم لا يكفى لمواجهة الجبهتين الداخلية والخارجية ، كما أنه كان يرى فى ابتعاد المحاربين عن حكومتهم المركزية ما يزيد من صعوباتهم وهو يريد ألا يفصل بحر بينه وبينهم ، هذه السياسة حملتنى على الاعتقاد بأن فتح فارس ومصر كان نتيجة لنهور القاديين العظمين عمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص واعتمادهما على شدة حزمهما وقوة إيمانهما . .

وواضح من تلك السياسة أن الأمر يستلزم الأبقاء على ما عرف من نظام البريد أيام الرسول بل والتوسع فى معناه ، والرواية العربية^(٢) تشير بصريح العبارة إلى اهتمامه بتلقف أخبار قواده ، من ذلك قولها أنه كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلما لقى البشير سأله « من أين » فأخبره ، قال له « حدثنى يا عبد الله » فقال « هزم الله المشركين » وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بأمر المؤمنين فقال له الرجل « فهلا أخبرتنى رحمك الله إنك أمير المؤمنين فقال عمر « لا بأس عليك يا أخى » وإنى أخشى من عبارة « يستخبر الركبان » أن يلتبس الأمر على حضرات القراء فيظنون خطأ أن عمر قد أهمل شأن البريد أو على الأقل لم يرتبه كما كان منتظرا بدليل أنه كان ينتظر الواردين من القادسية وقد تكون أخبارهم موضع شك لأنهم غير رسميين ولا تقع عليهم تبعة ما يقولون ، وإنى أرى أن غيرته على تطورات الحال بالنسبة للمسلمين فى القادسية واستقائه الأخبار من القادمين كان الحافز له عليها رغبة الأطمئنان على المقاتلين حتى تسعفهم الأخبار الرسمية ، وهل نجيز لرجل كعمر أنشأ الدواوين بأنواعها ورتبها كما كانت عند الفرس أن يعتمد فى أخباره على أناس غير حكوميين ويغفل تنظيم البريد وهو يعلم ما كان له من أهمية خطيرة أيام الأكسرة والقيصرية ، وهل نفى وجود بريد منظم فى الدولة الإسلامية قبل عصر معاوية بن أبى سفيان كما ذهب البعض^(٣) وأمامنا الدليل

(١) الطبرى مجموعة ١ ج ٥ ص ٢٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر والمجموعة ج ٥ ص ٢٣٦٧ — ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥

(٣) Ameer S. Ali. p. 62 دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١١٠ — النظم

واضحاً من الرواية الإسلامية العربية التي تذكر أن عمراً كان يحدد ساعات معينة في أيام معينة لخروج البريد من المدينة إلى ميادين القتال ، فإذا قدم الرسول عليه من بعض الثغور تبعه بنفسه إلى منازل المقاتلين فيعطى نساءهم كتبهم ويقول لهم ، أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فأقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن ، ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتهن حتى نبعث بكتبكن ، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواء (١)

وقد حرص عمر على تنفيذ تلك السياسة في الولايات فكتب إلى عماله يأمرهم بإعلان الناس في عملاتهم عن مواعيد خروج البريد إلى المدينة ، من ذلك أنه كتب إلى عامله بالبصرة كتاباً لمكتب الرسول عنده يقول فيه « أيا فاتح نادى مناديه ، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج ، فمن كانت له حاجة فليكتب » فكتب نصر بن حجاج وكان أمير المؤمنين قد أبعدته عن المدينة إلى البصرة كتاباً دسه المكتب إلى أمير المؤمنين (٢) وهذا الخبر فيه الدليل القاطع على إنشاء مكاتب للبريد الإسلامي في عواصم الأقاليم ، وهذه خطوة لا تقدم عليها الحكومات المحلية عادة إلا إذا كانت إدارتها كاملة في الحكومة المركزية . ويؤيد لك تعميم مثل تلك الدور والمكاتب بالحواضر الأخرى ، فالكوفة مثلاً كان بها دار مخصصة للبريد ينزل فيها الرسل إذا حضرت من الأمراء إلى الخلفاء : وقد صلى أبو موسى الأشعري في هذه الدار يوم أن كان أميراً على الكوفة في زمن عمر وعثمان وكانت تقع تلك الدار في طرف البلد ، (٣) وأقبل البريد يوماً على عمر وبه عقد من الجوهر أهده ملكة الروم إلى زوج عمر أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رداً على ما أهده أم كلثوم من طرائف بلاد العرب إليها . ولم يشأ عمر أن يؤدي العقد إلى امرأته حتى أمر فنودي في الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون استشارهم في هذا العقد فأشار عليه كلهم بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها ، ولكنه تخرج من ذلك لأنه حمل إليها في بريد المسلمين فأمر برده إلى بيت المال وأدى إلى امرأته ما أنفقت في هديتها لملكة الروم (٤)

وإذا عرفنا أن البريد أيام عمر خرج عن معناه البدائي وهو نقل الأخبار إلى عمل الرقابة بمعناها الحديث أدركنا الصورة التي كان عليها البريد في عهد الجمهورية الإسلامية

(١) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٣٠

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٢

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) عثمان بن عفان للدكتور طه حسين ص ١٢٩

الأولى . فبفضل رقابة عمال البريد في الولايات كان علم عمر بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجدته ، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح ، وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم ، حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به ، (١) وقد علق بعضهم على ذلك بقوله « كان لعمر عيون على الناس عجيبة » (٢) .

وقد حافظ الخليفة الثالث على نظام البريد بالصورة التي ورثها عن حكومة عمر والتي يمكن فهمها من الطريقة التي سلكها عثمان في جمع الأخبار حتى في أوقات مكثه في المسجد لتأدية فريضة الصلاة . فالرواية التاريخية تذكر أنه كان يحدث الناس والمؤذن يؤذن يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار وكان يفعل هذا يوم الجمعة على وجه الخصوص (٣) غير أنني لا أستطيع أن أبرح عصر عثمان قبل أن أشهد القارئ على ما يلقى التاريخ من تبعة على إدارة البريد في هذا العصر . لأن القائمين بأمره قد فرطوا في واجبه واستهانوا إلى أبعد حدود التفريط والاستهانة . الأمر الذي تسبب عنه مقتل عثمان . . وتفصيل ذلك أن التاريخ يصور عثمان في صورة الرجل المتدين اللين الجانب الذي أسلم مقود خلافته إلى مروان بن الحكم يؤازره بعض الأقارب في الولايات فثارت تلك وأوفدت وفودها إلى المدينة لمناقشة عثمان في الأمر ، وكادت ثورة القوم تهدأ بعد اتفاقهم على إهمال عثمان ثلاثة أيام لولا أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، حدث حادث هو في نظرنا أول الشرر الذي تطايرت منه نيران الفتنة ، وهو في نظرنا تسأل عنه إدارة بريد عثمان . . ذلك أنه بينما كان الوفد المصري قافلا في طريقه إلى مصر إذا بساعى البريد واسمه أبو الأعور ابن سفيان السامى على جمل لعثمان يدركهم في الطريق ، فلما رأوه على جمل عثمان استرابوا في أمره وقالوا له « هل معك كتاب قال « لا » . قالوا : فيم أرسلت . قال : لا علم لي ففتشوه فوجدوا معه كتابا برسم عبد الله ابن سعد بن أبي السرح عامل عثمان على مصر يأمره فيه بتعذيب الوفد وإليك نصه بعد الديباجة . « أما بعد فإذا قدم عليك عبد الرحمن ابن عديس فأجلده مائة جلدة ، واحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمرى ، وعمر بن الحلق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك . وعروة ابن النباع

(١) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٢٨

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦٣

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦٥

مثل ذلك . . . » فعاد أعضاء الوفد إلى المدينة لمناقشة عثمان الحساب منكرين هذه الحيانة ؛ فتبرأ سيدنا عثمان من أن يكون اطلع على هذا الخطاب ، فضلا عن يكون أمر به قائلا : « ما فعلت ولا علم لي بما تقولون » قالوا : « بريدك على جملك وكتابك عليه خاتمك » . قال : أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط ، وأما الخاتم فانتقش عليه . قالوا لا نعجل وإن كنا قد اتهمناك ، فأعزل عنا عمالك الفساق^(٧) . وحاصروه أربعين يوما انتهت باغتياله .

الظاهر أن مروان وكان يملك خاتم عثمان هو الذي كتب هذا الخطاب . . . والظاهر أن اختصاصات إدارتي البريد والختم كان مرجعهما إلى مروان . . . والظاهر أيضا أن مروان لم تتوفر فيه الشروط التي يجب توافرها في صاحب البريد والتي منعدها في الفصل القادم . فمروان أساء إلى عثمان وإلى الجماعة الإسلامية إساءة كبرى لا تغتفر . أساء إلى عثمان من ناحية قبضه على ناصية الحال من وراء ستار . وأساء أيضا من ناحية أنه كثيرا ما كان يحمل عثمان على أن يعلن في الناس عكس ما كان أعلن فيهم من قبل ؛ وأساء إلى الجماعة الإسلامية لأنه تسبب في فتنة مقتل عثمان التي أصابت وحادثتها لأول مرة في تاريخها فكانت كالجرح الذي لا يندمل أبدا ، وتسبب عنها ارتباك حكومة الخليفة الرابع وانشغاله بقمع ثورات الخارجين عن طاعته والمعارضين لخلافته ، فاندurst معالم البريد على ما أعتقد في هذه الفترة استنادا على صحت الرواية التاريخية عنها ، ولم تقم له قائمة إلا بعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان .

مما سبق نقرر وجود أصول وينابيع الحضارة الإسلامية وقت ظهور الإسلام فأعمال الرسول وأقواله وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من نظم الحكم ما هي إلا بذور تلك الحضارة التي سنرى أوج عظمتها أيام الأمويين والعباسيين ممثلة في موضوع نظام البريد ولا ننكر إذن أنه جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء وسار سيرا تدريجيا إلى أن وصل إلى أوجه في السمو والازدهار .

(٥) بريد الأمويين : قامت دولة بني أمية واتخذت دمشق عاصمة لها ، ونسبت بعض^(٢) الروايات التاريخية التي تعرضت للموضوع الذي نحن بصدده إلى معاوية بن أبي سفيان فضل إنشاء ديوان خاص لتنظيم البريد ، وفي هذا المعنى قال الأستاذ محمد كرد

(١) الطبري ج ٥ من الطبعة المصرية ص ١١٥ إلى ١١٧

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١١٠ — النظم الإسلامية ص ٢٥٤ — Ameer S.

على^(١) «ابتكر معاوية في الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ، منها أنه أول من وضع الختم للموك ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع القصور التي يصلى الملك أو الخليفة بها في الجامع منفردا عن الناس ، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة واختراع من أمور الدولة ديوان الخاتم» فكان الأستاذ يذهب إلى القول بأن تاريخ وضع البريد لنقل الأخبار في الدولة الإسلامية إنما يرجع إلى قيام الدولة الأموية ولم يكن معروفا لدى من سبقه من الخلفاء الراشدين . قد يتعارض هذا الحكم التاريخي مع العرض السابق عن البريد النبوي وبريد الخلفاء ، ... كما ينكره مؤرخ آخر^(٢) يقول أن البريد كان معروفا عند من سبق معاوية من الخلفاء الراشدين ، واشتهر أمره في مدة سيدنا عمر بن الخطاب والغريب أن الأستاذ كرد على ينقض نفسه بنفسه في رواية أخرى^(٣) ينسب فيها النظم الإدارية في عهد معاوية إلى أصولها الأولى أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن كل ماعمله معاوية هو المحافظة على تلك الأصول وعدم الحياد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعى إليه المحيط الجديد ، كإخراج الإدارة من سداجه البداوة إلى بمجوحة الحضارة وهذا ما كان يجب أن يذكره الأستاذ بشأن البريد ويقره بصراحة .

ونأخذ على الأستاذ أيضا أنه لم يعطنا رأيا قاطعا عما إذا كان معاوية قد نقل هذا النظام عن الفرس أم عن الرومان بل يقر بنقله عن الدولتين معا ، وقد أيدته في ذلك غير واحد من المؤرخين حيث يقولون^(٤) «فهو أول من وضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، وأحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالا بكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة وصاحب الخبر ، وهو الذي اختراع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم» أما السبب في اختراع معاوية لديوان الخاتم فهو أنه كتب مرة^(٥) إلى زياد بن أبيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مائة ألف درهم وسلم الكتاب إلى عمر ليحمله إلى زياد فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له . فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وأخذ عمر بردها وجبسه فأداها عنه أخوه عبد الله ، ومن ذلك الحين تجنبنا للتزوير أمر معاوية بإحداث ديوان الختم ، وحزم الكتب وختمها على

(١) خطط الشام ج ١ ص ١٤٣ (٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٢

(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٣٠

(٤) التعريف ج ١ ص ١٨٤ — القلقشندي ج ١٤ ص ٣٦٧ — الإسلام والحضارة العربية

ج ٢ ص ١٥٨

(٥) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٩ — تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٠٦

طرفها بعد طيها ولم تكن تحزم ؛ وعين عبد الله بن محض الحميري على ديوان خاتمه . على أنه يستدل من رواية القلقشندي (١) أن عمر بن الخطاب هو منشىء ديوان الختم وقد يكون هذا صحيحا لأن عمر أول من أنشأ الدواوين تشبها بالفرس ، وعلى كل حال فقد سبقت الإشارة إلى ختم الكتب في عهد الرسول لما أراد مراسلة الملوك المعاصرين له ودعوتهم إلى الإسلام .

وأخيرا نختم القول عن معاوية بأنه قد ورث نظام التراسل وطريقة ختم الكتب عن حكومات الجمهورية الإسلامية الأولى . وأن المراد من الروايات السابقة بصدد معاوية والبريد هو تنظيمه وترتيبه لهذا النظام على صورة أوسع نطاقا وأكثر وضوحا لكونه أول خليفة أقام الخيول على الطرق لنقل البريد (٢) وأول من رتب له الميل والمحطات (٣) مستعينا في ذلك على ما اقتبسه من قوانين الفرس والرومان معا ، ولكنى أميل إلى القول بأنه كان أكثر تأثرا بالرومان عن الفرس بحكم احتكاكه بنظم الحكم الروماني بالشام ودمشق ، وقدم صلته بعمال الروم منذ أن كان والده تاجرا في الجاهلية ، ومنذ أن كان هو واليا على الشام أيام خلافتي عمر وعثمان ؛ فلا بد وأن يكون قد شاهد بعيني رأسه نظم الحكم الروماني ولمس محاسن نظام البريد عندهم أيام غزواته بأرمينية وآسيا الصغرى وجزر اليونان ، والعقلية العربية بطبيعتها تمتاز بظاهرتي الاحتفاظ والإبداع فمعاوية بلا ريب نقل النظام وأدخل عليه تحسينات جمّة صبت في قالب عربي إسلامي

(٦) بريد المروانيين : تولى عبد الملك بن مروان الخلافة في وقت كانت جرثومة الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية قد أفرخت في شرايين العرب والأعاجم على حد سواء . فالخوارج في العراق وفارس يتزعمهم المختار بن أبي عبيد يعملون على ثل عرش الأمويين . . . والزيريون بالحجاز يعملون على تنصيب عبد الله بن الزبير وقيام خلافة مناوئة للأمويين . . . والرومان على حدود الشام يعملون على خدش حرمة الدولة بإسقاط حصونها الشمالية ، ولكن عبد الملك تمكن بحزمه ويقظته من تصيد أعدائه الثلاثة كل على انفراد وتفرغ لإصلاحاته الداخلية ، وخص البريد منها قسطا كبيرا كي يضمن له سلامة الأمن والإدارة في الداخل ، ويوقفه على حركات العدو في الخارج ؛ فأدخل على نظامه عدة تحسينات حق أصبح أداة هامة في إدارة شؤون الدولة . وقد

(١) القلقشندي ج ٦ ص ٣٥٧

(٢) History of the Saracens by Simon Ockley p. 383. —

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٢

أثر عنه أنه قال لأحد رجاله (١) واسمه ابن الدغيدغة . «وليتك ما حضر بياني إلا أربعة — المؤذن فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه ، وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام . والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة . والطعام إذا أدرك فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول » فهذا القول لا يصدر إلا عن رجل أدرك ماهية البريد فأولاه عنايته وتقديره وإلا ما ذكره دون سواه من النظم الإدارية الأخرى في الدولة ، وخص لديوانه رجلا من ثقاته الأوفياء هو قيصة بن ذؤيب الذي كان يقرأ الكتب الواردة من الأقاليم ويخبر عبد الملك بما جاء فيها (٢) .

ثم يأتي من بعده ابنه الوليد فلا يكتفي بما كان عليه البريد أيام والده من نقل الأخبار بل يتخذ وسيلة لتحقيق رغباته الاقتصادية والعمرانية ، فيستخدم خيله وابله في حمل الفسيفساء وهو الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق ليصفح به حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس الشريف ، ولا يزال بعض هذا الفسيفساء بجامع دمشق في الصحن وجامع مكة في توسعة المهدي يشهد بفضل دواب البريد في حملها إلى تلك البقاع المقدسة (٣) . ولأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية نرى مثل هذا التطور الجديد في مهمة ديوان البريد والذي نراه اليوم في مصلحة البريد من نقل الطرود المختلفة من جهة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر .

والأغرب من هذا أن يضيف عمر بن عبد العزيز إلى نظام البريد نفحة جديدة من نفحاته وهي الإكثار من بناء خانات للبريد على جوانب الطرق الرئيسية خصوصا بطريق خراسان ليبيت فيها الناس ، وأمكنة يقيم فيها الدواب من خيل وجمال ، ومياه في الأحواض للشرب (٤) . وهذا ليس بالأمر المستغرب على رجل كعمر بن عبد العزيز عرف بالتقوى والورع وعده أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين . وهذه حقيقة أيدتها حوادث سيرته التي قضاها في تدعيم أركان الدولة ومحاسبة عمالها حسابا عسيرا ميقنا إن هذا لا يتم إلا بالعناية بنظام البريد (٥)

وكثيرا ما كان خلفاء بني أمية يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس إلى الخليفة

(١) الفلقشندی ج ١٤ ص ٣٦٧ — النظم الإسلامية ص ٢٥٤

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٦٩

(٣) التعريف ج ١ ص ١٥٨ — الفلقشندی ج ١٤ ص ٣٦٧

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦٠٩ — مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادي

(٥) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ١٠٥

أو الأمير التماسا لسرعة قدومهم خصوصا هؤلاء الذين تحدثهم نفوسهم بالخروج على طاعة السلطان . ويحدثنا المسعودي^(١) في هذا المعنى عن خروج شبيب الخارجي على الحجاج بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان وكادت فتنته تفسد عليه الأمور هناك لولا أن استعان ببريد الشام في وصول النجدة إليه وتضييق الحصار على شبيب حتى نفر به فرسه وألقاه في النهر ثم حملت جثته على البريد إلى الحجاج . . . كذلك إذا أراد الخليفة إحضار شخص مآمن الأقاليم إلى عاصمة ملكه أمر بحمله على دابة البريد ، كما فعل يزيد بن عبد الملك بن مروان عندما وجه إلى صاحب مكة كتابا يطلب منه إرسال أحد الشعراء وقد سمع الخليفة عن شهرته في قول الشعر . « إذا أتاك كتابي هذا فادفع إلى . . . ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه ، وأحمله على ما شاء من دواب البريد » ففعل^(٢) . وهذه العبارة تدل على أن دواب البريد كانت من النوع الممتاز السريع العدو ، وعلى أهبة الاستعداد للسفر ، وأن أما كن راحتها مزودة بالبدل والعلف والماء .

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى يبلغ في بعض الأحيان أربعين أو خمسين دابة ، سيما إذا استخدمت في نقل الجنود لإخماد الفتن والثورات في جهة ما بالولايات كما حصل في ولاية هشام بن عبد الملك . وقد روى عنه العلامة ابن خلدون أن قبائل التركمان ببلاد الخزر خرجت عن طاعته وثاروا ضد واليه وإسمه الجراح الحكمي الذي عجز عن كبح جماحهم فقتلوه وعاثوا في الأرض فسادا يهلكون الحرث والنسل في طريقهم إلى الموصل . وهال هشاما الموقف فتقدم إليه أحد قواده الأفذاذ الذين يشار إليهم بالبنان وخاطبه بقوله « فابعثني على أربعين من دواب البريد ، وابعث إلى كل يوم أربعين رجلا مددا ، واكتب إلى أمراء الأجناد يواسوني »^(٣) . أفعم هشام من جرأة ذلك القائد وشجاعته التي أعادت إليه الثقة بالنفس والإيمان بالنصر ، فأجابه إلى طلبه ونجح سعيد في مهمته خير نجاح ، وكتب له السعد والفلاح . والفضل في ذلك من غير شك يرجع إلى ديوان البريد وعماله ودوابه الذين أسعفوه في نقل الجنود والمدد على جناح السرعة فتمكن من إحاطة الثائر ومباغتته .

هذا ما كان في وسعنا جمعه وتحصيله من مادة تاريخية عن البريد الأموي ، وهي تقطع بعناية خلفاء بني أمية بنظام البريد وحبسهم الأموال للأفئدة منها على دوابه وطرقه وعماله كي يتخذوه أداة صالحة في سبيل تأييد سلطانهم وكسر شوكة أعدائهم . ومما يؤثر عن

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٣

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٨٩

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٨٩

الخليفة الأموي هشام أن مصاريق البريد في خلافته بإقليم العراق وحده بلغت أربعة ملايين درهم^(١) . ويكفي الأمويين فخرا أنهم أصحاب السبق في ترتيب وتوسيع نظام البريد في الدولة الإسلامية بشكله وصورته المعروفة لدى الفرس والرومان مع تسميته ومسارته لنظرية النشوء والارتقاء تمشيا مع العصر والزمان .

(٧) بريد العباسيين : إن الثورة التي استخلصت السلطان من الأمويين ونقلته إلى منافسيهم العباسيين قد أحدثت انقلاباً خطيراً في العالم الإسلامي على وجه العموم وفي الإدارة الحكومية ونظمها على وجه الخصوص . ذلك أنها قضت على انفراد العنصر العربي بالحكم واستثأره بمناصب الدولة الكبرى وحل محله العنصر العجمي . فلا عجب إذا قلنا أن العنصر الفارسي باعتبارهم رعايا امبراطورية متعددة عظمة الشأن احتلوا أثر قيام الدولة العباسية المناصب اللاتقة بهم كمواعين في العالم الإسلامي ، كما فتحت أمامهم المناصب العليا على مصراعها . وغدت الفرص مواتية أمامهم لتطعيم الأداة الحكومية الإسلامية بما كان جارياً عند أجدادهم الأكسرة . وإذا عرفنا أن العرب يمثلون نظاماً معيناً سياسياً واجتماعياً ، فمعنى هذا أن هذه النظم قد ذهبت أدراج الرياح بذهاب سلطانهم ، وأن النظم الفارسية القديمة ذابت في المملكة الإسلامية ، وأصبحت حياة الفرس السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت أعين الخلفاء يعرفون عنها الكثير ، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً منها . فالشعب الفارسي له مدينة قديمة ، وماض عظيم وتأبي قوميته إلا أن يبعث التالك في ثوب خالد يناسب الظروف الجديدة والتعاليم الإسلامية . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا البعث تحسين وإخراج النظم الإدارية على أسس منظمة تضارع أنظمة الممالك الحديثة . وليس أدل على مقدرة الدولتين الأموية والعباسية من كثرة التشكيلات الحكومية في الدولة العباسية . تلك التشكيلات التي أخذت بها الدول الإسلامية المتعاقبة ، وسارت على نمطها كوظيفة الوزير وأستاذ الدار ، والسلطان ، ومجلس العزيز ، وتعدد الدواوين ، ومن بينها ديوان البريد وكلها نظم كسروية قديمة صاغها العقل العجمي في ثوب إسلامي جديد .

(١) عصر المنصور والمهدي : وعلى الرغم من هذه الحقيقة وأن كانت مرة على بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن نظام البريد ظل قائماً والعمل عليه دائماً في الدولة الإسلامية حتى تقوض بناء الدولة المروانية ، وانتكث حبلها فانقطع البريد ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية . قد اتفق معهم في هذا

القول لأن من عادة الدول أن تجند قواها العقلية والمادية وتصرف النظر عن مشاريع الإصلاح والتعمير لتسد النقص في الناحية الدفاعية المتولدة عن الفتن والثورات ، سواء أكان الدافع لها والباعث على تحريكها في الداخل أو الخارج . إلا أنى لا أتفق معهم عندما يسترسلون في حديثهم ويبالغون في عباراتهم فيعتبرون البريد في خبر كان بعد أنقراض أيام مروان آخر خلفاء الأمويين ، وكذلك أيام السفاح والمنصور ثم المهدي « والبريد لا يشد له سرج ويلجم له دابة »^(١) . أن صبح هذا القول عن عصر السفاح لا يصح أن يقال عن المنصور ، فالتاريخ والواقع والمؤرخون قديمهم وحديثهم ينسبون إليه الإدارة الحازمة والعناية الفائقة بأحكام نظام المركزية في بغداد ، وأظن هذا لا يتم له إلا عن طريق أحكام نظام البريد . ويفهم من رواية المسعودي إنه على الرغم من الارتباك الذي عم نظام الحكم على أثر معركة الزاب الكبرى فإن البريد قد قام بدور كبير في قيام دولة العباسيين ، وأن زعماء الدعوة بالكوفة لما مثل إليهم أبو العباس السفاح وأهل بيته في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة هـ . « وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس . »^(٢) أخفوا أمره حتى لا يكون في إعلانه وسيلة ينتهجها الأمويون في إفساد خططه قبل أن يقوم عمال البريد بحبك الأمور مع بقية أعضاء البيت العباسي المبعثرين في الأصقاع .

ومما يؤثر عن الخليفة المنصور أنه قال^(٣) « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم . قيل له من هم يا أمير المؤمنين قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم . أن نقصت قائمة وهي . أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لأثم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ، والرابع . . ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه . آه . قيل له وما هو يا أمير المؤمنين . قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » .

وصدور مثل هذا القول من رجل مسئول كأبي جعفر المنصور يعطيه قيمة علمية خاصة جديرة بالاهتمام ؛ فالمنصور يعترف في صراحة أن ملكه لا يصلح ولا يستقيم ولا تقم له قائمة إلا بنظام البريد الذي اعتبره أحد القوائم الأربعة التي شيد عليها دولته ، فكانت خير ما أنتجت العقلية البشرية من ضروب الإصلاح ووسائل الحكم والتعمير ،

(١) التعريف ص ١٥٨

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣

(٣) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٣٠٤ الا سلام والحضارة ج ٢ ص ١٩٩

وهو لا يكتفى بالأشادة بقيمة البريد وشأنه ، بل ويضعه على قائمة هذه الأركان الأربعة ، ويرجع صلاحية الأركان الثلاثة إلى صلاحية البريد فإن أحسن أحسنت بدورها وأن أساء أساءت هي الأخرى . ذلك لأن البريد حلقة الاتصال وهمزة الوصل بينه وبينها . ثم أعطى صاحبه ثقته الغالية تلك الثقة التي رفعت قدره لدى بلاطه وحكومته فأصبح كلامه حجة قوية في غنى عن الدليل والإثبات ، ولا أدل على ذلك من أن عامل البريد كتب مرة إلى المنصور^(١) يخبره بأن والى حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد . الأمر الذي صرفه عن شئون ولايته ، وصرف أموالها في أعداد كلاب الصيد ولوازمه . فلما وصل الكتاب إلى المنصور لم يتطرق إليه الشك في مدى صحة هذا الخبر ، ولم يتوان في أن يكتب إلى والى كتابا يؤنبه فيه تأنيبا شديدا على التفريط في حقوق المسلمين وأمورهم ، ويخطره بعزله وتولية من يحل محله . وهذا يعطينا فكرة واضحة عن سهره على عماله ومحاسبتهم على أعمالهم إن خيرا وإن شرا ، ولنا عودة في الفصل القادم إلى الحديث عن المنصور وعماله .

وعلى الرغم من عناية الخليفة المنصور بنظام البريد فإن بعض المؤرخين^(٢) قد ظن خطأ أن ابنه المهدي هو أول من رتب البريد في الإسلام ضاربين صفحا على مجهودات أبيه ومن سبقه من خلفاء بني أمية وغيرهم . ولعل سبب وقوعهم في هذا الخطأ أن المهدي أمر في سنة ١٦٦ هـ . بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يبق هنالك بريد قبل ذلك التاريخ . ولم يكتف المهدي بهذا بل نسق نظامه واهتم بطرقه ومنازله وأقام فيها البغال والإبل^(٣) . ويقال إن المهدي أغزى ابنه هارون الرشيد الروم وأحب أن يكون على علم قريب من خبره ، فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه ، ولما عادت الحملة قطع المهدي تلك البرد فظلت كذلك حتى نهاية خلافة الهادي^(٤) . إلا أني لا آخذ بقطع تلك البرد في وقت كانت الدولة أحوج إليها للوقوف على حركات الروم العسكرية على الحدود الشامية . إذ أن الحالة هناك كانت تستلزم الإكثار من العيون لكتابة التقارير إلى الخلفاء وسرعة إيصالها إليهم . فالعداء كان مستحكما بين

(١) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٣٩٩ — النظم الإسلامية ص ٢٥٦ — محاضرات تاريخ

الدولة العباسية ص ١٠٩

(٢) دائرة معارف البستاني ص ١٨١ — الطائر الفريد ذيل ص ٢١

(٣) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٥١٧ — أبو الفداء ج ٢ ص ٤٨ طبعة أوروبا — محاضرات الدولة

(٤) التعريف ص ١٨٥

العباسية ص ١٠٩

الدولتين العباسية والرومانية مما جعل الرشيد يحتاط لخطرهم فيما بعد بإنشاء إقليم العواصم ومراقبة حركات الروم شماله مراقبة شديدة ورتب لذلك الشواتي والصوائف .

وكما أن البريد قد استخدمه الخلفاء كوسيلة من وسائل استتباب الأمن وقمع الثورات والفتن ، وحمل الخارجين والتأثرين على دوابه إلى عاصمة الملك ، فإنه كذلك استخدم لمصلحة الثوار في الانتقال من مكان إلى مكان والخروج على طاعة الحاكم . فالرواية في حديثها^(١) عن ثورة الحسين المثلث العلوي التأثر على طاعة الخليفة الهادي . تشير إلى أفلات بن عمه أدريس من وقعه الفخ وفراره إلى مصر في طريقه إلى بلاد المغرب . وكان من الميسور القبض عليه وإرساله إلى بغداد لو كان عامل البريد من الطراز الذي رأيناه في عهد المنصور مخلصا لواجبه وفيما لحكومته ولكن عامل مصر وقتذاك كان يدين بمذهب الرافضية ، فضحى بمصلحة الدولة في سبيل مبدئه وعقيدته ؛ ذلك أنه مهد الطريق لأدريس وأمه بمن يرشده إلى أرض المغرب ، وقدم له دواب البريد فحملته إلى طنجة حيث نشر مذهبه وزرع الدولة الأدرسية ، فكانت شوكة في ظهر العباسيين وكان من الممكن تجنب قيامها لولا صاحب بريد مصر^(٢) .

(ب) عصر الرشيد والمأمون : ولما آلت الأمور إلى هارون الرشيد اختار يحيى بن خالد البرمكي مشيرا ووزيرا له ، فأشار عليه بأجراء البريد على ما كان عليه أيام أبيه والأمويين . وبين له الفوائد والمزايا التي تجنيها الدولة من العناية بترتيبه ، فأمره الرشيد باقراره . وكان يحيى خير من يضع الأمور في نصابها فصب نظام البريد في قالب جديد وجعل له البغال في المراكز ، وكان لا يجهز عليه إلا الرشيد أو صاحب الخبز^(٣) . ومما يدل على ما وصل إليه البريد من قوة أيام الرشيد أن رقابته على الولاة في الأقاليم لم يستثن منها أصحاب الجاه والسلطان . فالبرامكة أنفسهم كانت أخبارهم تصل إلى مسامع الرشيد عن طريق عمال البريد . من ذلك أن صاحب البريد^(٤) بنجراسان أنفذ كتابا إلى الرشيد يذكر فيه انشغال الفضل بن يحيى بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية . فلما قرأه الرشيد غضب ورمى به ليحيى وكلفه بإخطار ابنه بالعدول عن تلك الصغائر والإلتفات إلى أحوال المشرق ، فكتب يحيى إلى ابنه على خطاب الرشيد يوبخه ويردعه عن هذا . ومثل هذا القول يؤكده ما اتصف به الرشيد من اليقظة والانتباه

(١) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٥٦٠ - أبو الفداء ج ٢ ص ٥٦ - تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٨٢

(٢) عامل بريد مصر إذ ذاك هو واضح الذي عاقبه الهادي بضرب عنقه - يقال أيضا أن

الرشيد هو الذي ضربه وولى بريد مصر وأخبارها الشماخ - القديسي ص ٢٤٤

(٤) صروج الذهب ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) التعريف ص ١٨٦

لكل ما دق وجل من شئون الملك ، وأنه من أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرا . ولقد جاء خطاب عامل بريد خراسان مصداقا للحوادث فانصرف الفضل عن شئون المشرق أدى إلى قيام الفتن به واستفحال خطرهما ، واضطر الرشيد إلى مغادرة بغداد لقمعها وكان بصحبته ولده المأمون . وهناك وافق الرشيد المنية بطوس ، وحمل البريد خبر وفاته إلى بغداد حيث بويع ولده الأمين توابا بالخلافة بينما قام المأمون بمهام المشرق تنفيذًا لوصية أبيه .

وفي هذا العصر ظهرت أهمية البريد في الخلاف الذي استعر أواره بين الأمين والمأمون ، وكان لعمال البريد شأن كبير في تطير الأخبار وحكها ما بين بغداد ومرو وتفنن كل من الأخوين في تلقف وتصيد أخبار الآخر وأسراره متخيرا أنجب الثقة واذكاهم ، وقد سحر هذا الخلاف اعتماد الأمين على الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربي واعتماد المأمون على الفضل بن سهل زعيم الحزب العجمي ، وكان ماهرا في دبلوماسيته فلما هم الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد تحت الحاح ومشورة الفضل بن الربيع وزن الفضل بن سهل الموقف بميزان الحكمة ومعايير الرجال ، ودس قوما اختارهم ممن يشق فيهم من القواد والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبار يوما يوما ، وكان الفضل ابن الربيع قد أخذ بالمرصد لئلا يتجاوز السكتب الحد . وبالرغم من هذا لم يعجز رسول المأمون عن تخطي تلك الأشواك ، فأحتال مرة عليها بإرسال أخباره مع امرأة جاعلا السكتاب وديعة في عود منقور من أعواد الغاب (البوص) ، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر ، ومن الغريب إن المرأة مضت على الطرق كالمجتازة من قرية إلى أخرى دون أن تكون موطن الشبهة والظنة من حراس الطرق التابعين للأمين ، فلم تفتش ولم يعترض سبيلها أحد حتى خرجت من الحدود . وجاء الخبر إلى المأمون موافقا لسائر ما ورد عليه من السكتب ، قد شهد بعضها ببعض ، فقال لدى الرياستين « هذه أمور قد كان الذي أخير عن عينها ، ثم هذه طوالع مخبر عن أواخرها ، وكفانا أن نكون مع الحق ، ولعل كرها يسوق خيرا ^(١) » .

وقبل أن يكشف الأمين المأمون بالخلاف عليه أرسل في طلب بعض كور خراسان وإن يكون له بها صاحب بريد يكاتبه بأخباره ، فامتنع طبعاً المأمون لأن هذا معناه الرقابة الفعلية من صاحب البريد على تصرفات المأمون وأفعاله بالمشرق . ثم كشف الأمين أخاه بالحقيقة المرة عندما عاد البريد من بغداد بخلعه من ولاية العهد ، وأجابه المأمون

بإسقاط اسم الأمين من الخطبة وقطع البريد عنه^(١) . واحتاط المأمون للأمر بضرب حصار شديد على الحدود الغربية ، فلم يسمح لأى إنسان كائنا من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه خوفا من أن تتسرب إليها الكتب والدعايات المضرة التي قد تحرض الجمهور على العصيان والتمرد^(٢) . وعبارته الطبرى^(٣) توضح لنا أقصى ما اتخذ المأمون من ضروب الدقة والحذر فى مراقبة الحدود بين بغداد والمشرق حيث يقول : « ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة فى أمره ممن أتى بجواز فى مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ، ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول فى البلدان فى هيئة الطائفة والسابلة وفتشت الكتب » .

كان من الجائز أن تسفر تلك الاحتياطات عن نتائج مرضية بين الأخوين ، ولكن على النقيض نرى الحوادث تزداد سريعا لسوء تدبير الأمين ونصحائه وضعف القضية العربية ، فتتسع دائرة الخلاف وينشب القتال بينهما فى وقعة الرى الدامية ، وكل من الأخوين يتربص عن كسب ورود بريده حاملا خبر انتصاره على أخيه ، وكان لبريد المأمون الأسبقية فى الفوز والصر ، ذلك أن قائده طاهر بن الحسين كتب إليه^(٤) عبارة موجزة تشبه عبارة (يوليوس قيصر) التي بعث بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الروماني قائلا « كتبت إليك ورأس على بن عيسى قائد الأمين فى حبرى وخاتمته فى يدي وجنوده تحت إمرتي » ويقال أن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا من الرى إلى مرو فى ثلاثة أيام ، ويفهم من تلك الرواية أن البريد كان همزة الوصل بين الخليفة وكبار قواده فى ميادين القتال مهما بعدت المسافة بين الطرفين . كما توضح لنا دقة المأمون وعنايته بتمهيد طرق البريد وتعميدها وتزويدها بالخيول والرجال لضمان سرعة وصول الأخبار فى التو والحال ، وأظن أن هذه المسافة التي قطعها الرجل فى ثلاثة أيام أمر يستوجب الدهشة والأعجاب لحدوثها فى وقت يجهل القطار والسيارة والطائرة وما يروى عن المأمون أنه قاد حملة إلى بلاد الروم فى فصل الصيف وكان الجو حارا فنزل على نهر البردان وشرب من مائه ، فاستعذبه واستبرده وبلغ من أعجابه

(١) تاريخ بن خلدون ج ٣ ص ٢٢٣

(٢) السيد أمير على ص ٢٢١ من الترجمة العربية .

(٣) الطبرى مجلد ٣ ج ٢ ص ٧٨٣ .

(٤) الطبرى مجلد ٣ ج ٢ ص ٧٩٣ - السيد أمير على ص ٢٢١ ، ٢٢٣ من الترجمة العربية .

واستمتاعه بمائه أن قال (١) لمن معه من كبار حاشيته « ما أطيب ما شرب عليه هذا الماء رطب ازاز » وكان عليهم أن يحققوا رغبة الخليفة ولكن ما السبيل في تحقيقها ورطب ازاز لا يوجد إلا بالعراق وهم على أطراف الشام فإذا هم فاعلون . . . استعانوا بصاحب ديوان البريد في بغداد فدبر لهم الحل ، وأسرع في إعداد بغال البريد وحملها رطب ازاز ، واجتازت الطريق إلى النهر المذكور حيث ضرب المأمون خيامه ، وكانت مفاجأة سارة عندما رأى على مائدته رطب ازاز بجانب البردان ، فأكل وشرب حتى شبع وتعجب لبلوغ أمنيته وكان يظنها من المتعذرات المستحيلات لبعد المسافة بين النهر وبغداد ؛ وعد هذا العمل تطورا مدوسا لنظام البريد في عهده . وفي خلافة المعتصم قام الزط (٢) بثورة عنيفة في إقليم البصرة واستفحل خطرهم لدرجة أنهم قطعوا الطرق ونهبوا المارة وأوجست الحكومة خيفة منهم ، ولم يتمكن المعتصم من محاصرتهم وإخضاعهم إلا بعد أن رتب البريد بينه وبين عفيف بن عبيدة قائد جيوشه وأستعان بجيول البريد وسككه في إرسال الفرق والمؤن ، فرتب الخيل في سكة البرد تركض بالأخبار ، فكان الخبر يخرج من عند عفيف فيصل إلى المعتصم من يومه (٣) فيمده بالرجال والمؤن حتى قويت خطوط دفاعه فطبقت بالزط من كل حد وصوب ونجت البلاد من بلائهم وشرهم .

(ج) عصر الخلفاء المتأخرين : تولى الخلافة بعد المعتصم الخليفة الواثق ، وكان شاباً صغيراً مستنيراً اعتبر عصره نهاية البداية للعصر الذهبي في تاريخ الدولة العباسية ، وبوفاته تنطوى صفحة العصر العباسي الأول ، عصر القوة والعظمة بأجلى معانيها وفي أهم صورها ويبدأ عصر الخلفاء الضعاف أو العصر التركي الأول (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) وكانت السيطرة للجند التركي ، وفيه كان يعنى بالبريد أحيانا ويهمل شأنه أحيانا آخر حسب شخصية الخليفة وحرصه على الاحتفاظ بسلطته كاملة غير منقوصة . . . ومن هؤلاء الذين توفر فيهم هذا الحرص وأشارت إليهم بعض كتب التاريخ عن أهمية البريد في عهدهم الخليفة المتوكل على الله أو نيرون العرب كما أسماه البعض (٤) . بلغ المتوكل يوماً أن رجلاً من أهل البصرة وقع عنده سيف من الهند ليس له نظير فناقت نفسه إلى شراء هذا

(١) التعريف ص ١٨٦

(٢) الزط جيل أسود من السند تنسب إليهم الثياب الزطية وقيل هم جنس من السودان والهنود

(٣) النظم الإسلامية ص ١٥٦ (٤) أطلق عليه هذه التسمية الأستاذ السيد أمير على

لاستسلامه لشهواته وإغراقه في اللهو ومعايرة الخمر ، ولا تصافه بالقسوة وأسراره في سفك الدماء .

السيف ، فأحضر ميمون بن ابراهيم صاحب ديوان البريد ، وأمره بإنفاذ كتب البريد إلى عامل البصرة يكلفه بشراء السيف مهما كان ثمنه ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ؛ فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن في طلب السيف وابتياعه . وسافر البريد بالكتب إلى اليمن وجيء بالسيف إلى بغداد^(١) . وهذا دليل على احتفاظ نظام البريد بطابعه وقوته رغم الاحن والحن التي لحقت بالدولة في ذلك العصر .

ثم نفشت النعرة القومية في الامبراطورية الإسلامية من أقاصى المغرب إلى أقاصى المشرق أى من الأندلس إلى خراسان . . . وانتشرت الحركات الاستقلالية المحلية في كل مكان وكانت الغلبة في ذلك العصر العباسى الثالث أو العصر الفارسي الثاني (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) لأسرة فارسية الأصل هي أسرة بنى بويه التي استطاعت أن تجعل لنفسها وجوداً سياسياً على حساب الخلافة العباسية . وقد أسبقوا هذا الوجود بموجة قوية من حوادث الإرهاب والاضطراب في بلاد المشرق . نجم عنها اضطراب حبل الأمن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه ، وعمل البويهيون أنفسهم على عرقلة نظمه رغبة منهم في إخفاء الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحياناً قصدتهم بغداد ، وكان الخليفة لا يزال يأخذ بهم على بقة^(٢) . ولما استقرت الأمور للبويهيين بلغ البريد في عهدهم مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل من نواحي فارس وخوزستان إلى قصور السلاطين ببغداد طرية سليمة ، وتوقع أشد العقوبات بكل من توانى في أداء واجبه من موظفي البريد . وذكر أن أحد المرتبين قالت له امرأته «قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي ؛ فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى ، فضرب الطراد (المفتش على عمال البريد) والمتربون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصاً^(٣) .

وأخيراً جاء العصر العباسى الرابع أو العصر التركى الثانى (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) وهو عصر السلاجقة وأتباعهم المعروفين بالأتابكة . ويغلب على الظن أنهم جميعاً كانوا جادين في إعادة الوحدة الإسلامية إلى العالم العربى وتجديد ما كان للإسلام من عظمة وسطوة أيام الأمويين والعباسيين الأوائل ، فحاولوا من ناحيتهم إعادة تنظيم البريد

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٧٨ ومن الغريب أن هذا السيف أعطاه المتوكل لباهر التركى ليكون واقفاً به على رأسه فاستخدمه باغر في قتل المتوكل نفسه .

(٢) التعريف ص ١٨٧ . (٣) راجع تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٠ .

ليربط أجزاء دولتهم مستخدمين في ذلك الخيل والإبل^(١) وحرصوا على أن ترد إليهم أخبار دولتهم بانتظام وكان أشدهم حرصاً في هذه الناحية الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٥٣ - ٦٢٢) الذي عين أصحاب أخبار له بالعراق وفي الأطراف يطالعونه بحزنيات الأمور وكمياتها فأصبح لا يخفى عليه أكثر أحوال رعيته ، حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته ، لما يظن أن ذلك يطلع عليه الخليفة فيعاقب عليه . وعمل شخص دعوه ببغداد . وغسل يده قبل أضيافه فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره فكتب في الجواب «سوء أدب من صاحب البلد ، وفضول من كاتب المطالعة^(٢) . ولكن سرعان ما بوغتوا بالإغارة الصليبية ، فأوقفت تيار الإصلاح وعرقلت عجلة السير ، وشغل السلاجقة بصد الصليبيين ؛ ولم تكد الخلافة العباسية وحمايتها من السلاجقة والأتابكة يتنفسون من غارة الصليبيين حتى نكبوا بغارة جديدة أنكى خطراً وأشدّ مراساً من الصليبيين هي غارة المغول الذين اجتاحتوا الدولة العباسية اجتياحاً وانساحوا في قلبها انسياحاً بدخول هولاء في سنة ٦٥٦ هـ ببغداد ، وقضائه على الخلافة بقتل الخليفة المستعصم آخر العباسيين . ولسنا في حاجة إلى تسفيه ما قام به التتار من أعمال التخريب والتدمير في العالم الإسلامي ، فهذا أمر مفروغ منه ومقطوع بصحته أقره التاريخ في أكثر من موضع ، وإن كان ابن خلدون^(٣) يخالفنا في هذا عندما ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الإسلامية نظرة بسيطة وهي « خراب بعض المدن وانتقال الحضارة من مكان إلى مكان آخر » على حين أن الأوروبيين يجعلون استيلاء المغول والترك سبباً من أسباب سقوط الحضارة الإسلامية^(٤) .

فنظام البريد وطرقه وهو أحد عناصر هذه الحضارة لا بد وأن يكون قد ارتبك ارتباكاً مراراً^(٥) ، وكان ذلك عن قصد من التتار حتى لا تسبقهم أخبارهم إلى الدول التي لم تسمع بمجيئهم ، ولم يكن ذلك ناتجاً عن جهلهم بقيمة نظام البريد وعظمة فائدته للحكومات . فكتب التاريخ كثيراً ما تشير إلى عناية المغول بهذا النظام منذ ١٢٢٤ م عندما أنشأ له أو جادى إدارة على نمط البريد الصيني^(٦) كما أنشأ جنكزخان مصلحة نظامية للبريد والسعاة وزاد من استتباب الأمن بالطرق . وحافظ كوبلخان على الخانات

(١) التعريف ص ١٨٦ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢١٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٢ . (٤) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف بارتولد ص ٦١ .

(٥) ويشير القلقشندي (ج ١٤ ص ٣٧٠) بنوع خاص إلى بطلان البريد في سائر الممالك

الشامية على أثر وصول نيورليك إلى دمشق في سنة ٨٠٤ .

(٦) هامش : Sauvaget P. 13

الموجودة بالطرق ، كما اعتنى بالخيول والسعاة ووزع العربات في أنحاء الامبراطورية (١) أما تيمور لنك الأعرج فاستعان على تعرف أخبار مملكته الواسعة الأطراف برسل البريد التي ترد عليه بكثرة من مختلف المدن ومن القواد والأمراء . فمما يروى عنه أثناء غزواته للهند أنه كان دائم الاتصال بعاصمته سمرقند ورجاله بواسطة البريد التي تسير ذهابا وإيابا بينه وبين العاصمة ، والتي كانت تقطع المفاوز والسبل القائمة بين الهند وسمرقند في شيء من اليسر بسرعة لتبشر الناس بانتصارات تيمور على أعدائه الهنود ، وأنه غلب ملك دلهي وقتل من رجاله مائة ألف نسمة (٢) .

ونشير في الفصل الخاص بطرق البريد إلى اهتمام تيمور لنك بها .
لعلك أدركت في هذا الفصل أثر كل من الترائين الروماني والفارسي في الدولة الإسلامية ، وأن الأول كان أكثر وضوحا في العصر الأموي بينما كان الثاني أكثر غلبة في العصر العباسي . ولعلك أدركت أيضا التطورات الجديدة التي أضافتها العقلية العربية على نظام البريد ؛ حتى يصح لنا أن نقول أن هذا الفصل أشبه ببوتقة صهرت فيها خلاصة عناصر نظام البريد لدى العقلية الثلاث الرومية والفارسية والعربية ، والآل ينتقل بنا الحديث إلى ديوان البريد وعمالة ودوابه .

Cambridge med. Hist V. IV P. 629 (١)

(٢) تيمور لنك من ١٠٥ — ١٠٩ الترجمة العربية .

الفصل الثالث

ديوان البريد وعماله

كان للبريد في الدولة الإسلامية إدارة مستقلة به كما هو الحال عندنا اليوم تعرف بـ « ديوان البريد »^(١) أخذ العرب نظامها عن الرومان الذين خصصوا لها إدارة تحت اسم *Cursus publicus* على أن هذه الإدارة قد أدخل عليها عدة تحسينات فارسية في عهد هارون الرشيد ، يرجع الفضل في إدخالها إلى وزيره يحيى البرمكي^(٢) . ويظهر أن هذه الإدارة البريدية المستقلة لم تأخذ مكاتها وأهميتها بين الدواوين الحكومية الأخرى ولم تصل إلى حد الكمال والاتقان في الدولة الإسلامية إلا أيام العباسيين لأن سلطتهم كانت من النوع الأتوقراطي المركز في بغداد ، والذي يتطلب مباشرة الخليفة لكل كبيرة وصغيرة في أمبراطوريته .

(١) صاحب البريد : هو ذلك الرجل الذي يشرف على إدارة ديوان البريد والذي أختصه المؤرخون بهذا اللقب وهو من حيث الشخصية والاختصاصات لا يقل عن زميله « مدير مصلحة البريد » في عصرنا الحاضر بل هو يزيد قطعا من حيث النفوذ والسلطان يتولى تنفيذ ما يصدر من الخليفة إلى عماله بالأقاليم ، ويتلقى ما يرد منهم إلى دار الخلافة ويعرض خلاصته على الخليفة ثم يراقب العمال والموظفين التابعين لديوان البريد ، سواء منهم من في بغداد أو في الولايات ، وقد أورد هذه الاختصاصات قدامه بن جعفر في قوله « يحتاج البريد إلى ديوان يكون مفردا به ويكون الكتب المنفذه من جميع النواحي مقصودا بها صاحبه ، ليكون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع لها ، ويكون إليه النظر في أمر الفروانقيين ، والموقعين ، والمرتبين في السكك وتنجز أرزاقهم وتقليد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار »^(٣) .

(١) يقول الأستاذ بارتولد إن كلمة ديوان تدل على معنى *Chancellerie* وقد أخذت من اللغة الفارسية — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٥ Cambridge med. Hst .Vol.4 p. 283

(٣) ابن خرداذبة ص ١٨٤ — Sprenger P.5 تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٩

وبالرغم من أن الهير شبرنجر Sprenger قد أورد هذا النص في كتابه «البريد وطرق السياحة في الشرق» إلا أنه قد أنكر إنكارا تاما وجود نظام البريد الإسلامي بالمعنى الذي نفهمه ، واكتفى بالقول إن هذا البريد لا يخرج في صورته عما هو جار في عصره الذي كتب فيه كتابه ، أي حوالى منتصف القرن التاسع عشر في بلاد الهند وفي الأمبراطورية العثمانية . والصورة التي نقلها عما يجرى في هذه البقاع صورة قائمة وأخرى بها ألا تسمى بريدا ، بل هي مجرد الطريقة الساذجة البسيطة التي اتبعت في كل عصر ومكان لنقل خطاب من مكان إلى مكان في غير نظام ثابت ، وبدون الاستعانة بأشخاص مخصوصين أو التقيد بمواعيد معينة .

وما علينا إلا أن نقدم الدليل من النصوص والوثائق على أن البريد لم يكن بهذه الصورة المزرية . التي صورها شبرنجر ، وإنما كان على درجه رفيعه من النظام لم يبلغها في أى عهد من العهود الرومانية أو الفارسية . وحسبنا أن نشير إلى ما أوردته شبرنجر نفسه نقلا عن قدامه كما ورد في النص السابق ، وكما ورد في المرسوم الصادر بتعيين صاحب البريد « وأمره أن يعرض المرتين لجل الخرائط في عمله ، ويكتب بعدتهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ويوعز إلى هؤلاء بتسجيل الخرائط المنفذه على أيديهم ، والموقعين في إثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سيبله أن يرد السكة فيها ^(١) » فالمرسوم نص على وجود أشخاص مسئولين أمام صاحب البريد ، عليهم أن يؤدوا أعمالهم في المواقيت المقررة وفي السكك الموضحة بسجلاتهم ، وعليهم أن يدونوا مواعيد قيامهم ، ومواعيد وصولهم شأنهم في ذلك شأن سعاة البريد اليوم ، والمرسوم يرفع من قدر نظام البريد في العصور الإسلامية ويبين الدقة التي وصل إليها في ظل الخلافة العباسية ، كما يوضح خطورة منصب صاحب البريد وعمله في نقل الأخبار وهي من جملة الأمانات الداخلة في عموم قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ^(٢) . »

ولم يكن منصب صاحب البريد من المناصب اليسورة المنال لأى إنسان في الدولة إذ كان لابد من توافر صفات معينة لمن يتولى هذا المنصب ، تخلق في مجموعها رجلا فريدا في أمانته وإخلاصه وتحري الصدق في أخباره ، لأن مهمته ليست قاصرة على تصدير الرسائل إلى الجهات المطلوب إرسالها إليها وتسليم الوارد منها . . . وإنما تتناول أيضا الإشراف على جميع السلطات المختلفة في أنحاء الدولة ، لذلك يتعين أن يكون لصاحب البريد في كل

مدينة نائب أو وكيل أو مندوب يبعث إليه بالتقارير عما يجري حوله ، وعليه هو أن يعرضها بالتالى على الخليفة إما موجزه وملخصه أو يعرضها بنصها على حسب الأحوال . ولم يكن هناك وسيط بين صاحب البريد الذى يختار للقيام بهذه الوظيفة وبين الخليفة الذى كان يضع فيه ثقة كبيرة حتى كان يتمتع أحيانا بلقب الوزير (١) .

وابن خرداذبه جمع جوهر هذه الصفات فى العبارة التالية نقلا عن قدامه فى وصفه لصاحب ديوان البريد « أن يكون ثقة إما فى نفسه ، أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ » (٢) .

على أن المراد بالبريد وصاحبه فى الدولة الإسلامية غير ما يراد به الآن ، إذ كان الغرض منه فى أول وضعه سرعة إيصال الأخبار بين الخليفة وعماله ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عينا للخليفة على عماله وسائر رجال بطانته ، فقد كان صاحب البريد أشبه برئيس البوليس السرى أو أشبه برئيس القلم المخصوص بوزارة الداخلية فى وقتنا الحاضر أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو عينه الباصرة وأذنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله أو مساعى أعدائه ، وقد شبهه البعض برئيس قلم المخابرات فى وزارة الدفاع (٣) . ويمكن أن يحمل صاحب هذا المنصب فى عهد الخلفاء المستبدين على انتهاج الجاسوسية الخبيثة ولربما كان فى بعض الأحيان مصدر خطر على الأمراء أنفسهم (٤) ، وكان بنو العباس أكثر خلفاء المسلمين عناية فى هذا الشأن حتى نسب إلى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على أحوال ولاته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على أحوال العوام وآحاد الناس حتى يقال أن بعضهم رتب ذلك جهارا ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهى إليه ما يجري فى مجلسه فلا يحسن الوزير لأحد ، ولا يجتمع به أحد من الناس إلا بحضور ذلك الشخص ، وكذلك مع القاضى والنائب وجميع ولاة الأعمال . (٥)

وكثيرا ما كان الخلفاء يجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا ، فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كانت فيه تلك العلامة ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمة ، إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه كما حدث لأبى مسلم الخراسانى يوم أن دعاه المنصور إليه من خراسان إلى بغداد ، وخاف أبو مسلم عاقبة تلك الدعوة

(١) مقدمة Sprenger

(٢) ابن خرداذبة ص ١٨٤ — تاريخ الإسلام السياسى ص ٢٧٨ ج ٣

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠

(٥) تاريخ التمدن ج ١ ص ١٨٠

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١٠

فاستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له « أقم حتى يأتيك كتابي فإن أذاك محتوما بنصف خاتم فأنا ختمته ، وإن أذاك بالخاتم كله فلم أختمه » فلما جاء أبو مسلم إلى المنصور في المدائن وحدث ما كان من قتله كتب المنصور إلى أبي نصر على لسان أبي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وأن يقدم ، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم فلما رأى أبو نصر الخاتم تأملا علم أن أبا مسلم لم يكتب (١) .

وذهبت عناية الخلفاء بالبريد إلى حد إنشاء قوة كبيرة من البوليس السرى (٢) ونظام كامل للجاسوسية سارت فيما بعد من الزم الصفات للأداة الحكوميه . وتحقيقا لهذا الغرض يقول الأستاذ توماس (٣) أن تولد أن المصلحة استخدمت إلى جانب عمالها الرسميين اشخاصا من كل طبقه من طبقات المجتمع من تجار وباعة خردة (باعة متجولين) وحكام ورقائق مهمتهم ، التجسس على أحوال العمال والرعية في أنحاء المملكة ، ويكتبون تقاريرهم عن ذلك ويقدمونها للبلاط الخليفى ، ويؤكد هذا القول الهير شبرنجر في مقدمته (٤) في حديثه عن الخليفة المأمون الذى كثيرا ما لاقى الصعوبات فى سماع الأخبار والاشاعات التى تروج فى بغداد . فاستمع إلى تقارير ترفع إليه يتضمن بعضها أقوال بعض نساء بغداد العجائز اللاتى ينتقلن من بيت إلى آخر فينقلن إليه ما يدور فى المدينة من أقوال وإشاعات وما يتداول بين السكان من حكايات وأقاصيص . . . وهذا يذكرنا بالخليفة الحاكم الفاطمى الذى استخدم النساء كجواسيس ليتسللن فى المنازل ويراقبن تنفيذ أوامر الحاكم الخارقة للعادة ، كتحريم بعض المأكولات وليباشرن التعاليم التى وضعها المذهب الفاطمى ومدى احترام الناس لها .

(٢) موظفوا البريد : ينقسم هؤلاء إلى ثلاث عينات ورد ذكرهم فى الفرارين السابقين بتعيين صاحب البريد واختصاصاته ، وثلاثهم يلون صاحب البريد من حيث المرتبة والأهمية ، وقد اختصهم مشاهير المؤرخين بالذكر والإيضاح . أولهم المرتبون وهم خاصون بحمل الرسائل فى حقائب خاصة من مركز إلى آخر ، وصفهم شبرنجر بقوله (٥) « وهناك أشخاص يسكنون فى عشش ويعتنون بالحيوانات ،

(١) الطبرى مجموعة ٢ ج ١ ص ١١٧ — تاريخ المدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٢

(٢) وقد عهد إلى صاحب البريد بإدارة مدارس البوليس وديوان التفتيش فى الدولة علاوة على

رؤاسته للبوليس السرى Lammensp.408

(٣) Cambridge med.hist.V.4 p.283

(٤) مقدمة Sprenger

(٥) مقدمة Sprenger p.2

وهؤلاء الأشخاص كانوا يسمون (مرتبون) ولكن أطلق عليهم كلمة (المقيمون) Angestellt ، على أن هذه الكلمة لا تعبر تعبيرا دقيقا عن الكلمة الأصلية ، ولذلك فقد يكون من الأفضل ترجمتها بكلمة (القائمون) Aufgestellt ويكون معناها الأشخاص الحاضرون لتلقي الرسائل وإرسالها »

أما القائمون فإن طبيعة عملهم تظهر لنا مقدار ما كان عليه نظام البريد من دقة تشبه أن تكون دقة العصر الحديث ، ففي الأماكن التي يوجد بها مقر لواحد من رجال الإدارة يوجد كذلك موقع مهمته الإشراف على محطات البريد في منطقته ، وكان عليه أن يحدد بالضبط ويسجل الوقت الذي وصل إلى يده الخطاب المنفذ والوقت الذي ينبغي فيه أن يصل إلى يد زميله في المحطة التالية ^(١) . والمعروف عندنا اليوم أن السكك الحديدية والطيران وكل وسائل المواصلات يعطى فيها للسائق كتاب أو مذكرة يطلق عليها اسم « المانفستو » تعين فيه ساعة القيام ويكتب به ساعة الوصول لتبين مدى تأخر السائق عن الوصول إلى غايته ، هذا النظام الدقيق المحكم هو الذي نراه مسجلا في هذا المرسوم الذي يطلب من الموقعين أن يثبتوا المواقيت ويضبطونها حتى لا يتأخر السعاة ، وإثبات هذا لا يكون إلا بالكتابة ، ومراقبة العملية لا يكون إلا بالكتابة كذلك . . . وإذن فقد كانت هناك دفاتر خاصة . . . ومراقبة دقيقة بسرعة البريد ، وأوقات محدودة للوصول من محطة إلى محطة . . . وعقوبات على التباطؤ وكان هناك إشراف على ذلك كله من إدارة البريد العليا ، وغنى عن البيان أن ذلك لا يتم إلا بعدد من المفتشين وهم جماعة .

الفروانيقون ^(٢) وكان لكل خط من خطوط البريد فروانق لملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وهم أشبه بالمفتشين ، وعلى جميع هؤلاء الفروانيقين أن يقدموا تقاريرهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى عموم الإدارة في بغداد التي يظن أنها كانت محل إقامتهم ، كما كان عليهم أن يصدروا الرسائل إلى الولايات ويجمعوا تقارير النواب (الوكلاء) الموزعين على أنحاء الدولة لمراقبتها ، وتنظيمها وإرسالها إلى ديوان البريد ، وعندما يريد أحد الموقعين أن يقدم تقريراً يجب عليه أولاً أن يعرضه على أحد الفروانيقين ^(٣) . ويعتقد شبرنجر أن للموقعين السلطة المطلقة في إرسال رسائلهم بطريقة

(١) مقدمة p.3 Sprenger

(٢) فرونق كلمة محرفة عن برونك الفارسية ومعناها منذر أو دليل — الطائر الفريد ذيل ص ٢١

(٣) مقدمة p.4 Sprenger التراثيب الإدارية ج ١ ص ١٩٣ — الطائر الفريد ذيل ص ٢١

مباشرة إذا ما حدثت قلاقل في منطقتهم وبصفة خاصة إذا كانوا على الحدود ، الأمر الذي يستدعى التعجيل بارسال رسائلهم ، ففي هذه الحال كانت ترسل بغير واسط^(١) وصاحب ديوان البريد يعرض ملخص ما يهم من ذلك على الخليفة نفسه الذي يهتم بالبحث عن أحوال البريد وعمله ، ويصدر أوامره بتعيين الرؤساء ورواتبهم . وصار للبريد لأئحة عمومية تحتوي على قوانين البريد وسيره وجغرافيه الطرق وبيان أسفاره .

(٣) عمال البريد في الولايات : تقضى لأئحة ديوان البريد ببغداد أن يكون لصاحبه حق تعيين عامل بريد في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية ، ولهذا العامل عمال آخرون . مرءوسون له ويقومون بتنفيذ سياسته وتصريف شئون البريد في ولايته ، ومهمة عامل بريد الولاية علاوة على هذا الإشراف موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة في ولايته ، وما يدور فيها من خير أو شر . وله حق التجسس على جميع الموظفين فيها . . . وجاء في عهد بولاية بريد ما يحدد واجبات صاحب البريد بها إذ عليه « أن يعرف حال عمال الخراج والضيايع فيما يجري عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً ، ويستشفه إستشفافاً بليغاً . وينبهه على حقه وصدقه ، وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرق والعسف فيكتبه مشروحاً . الخ^(٢) » وهذا العهد شبيه بقرار تعيين صاحب البريد في الديوان العام في بغداد بل يكاد يكون صورة منه لاعتبار صاحب بريد الولاية ممثلاً لرئيسه العام في بغداد . لذلك جاءت حقوقه وواجباته مصوغه في قالب واسع السلطات ، تشبه في بعض وجوهها سلطة مدير المديرية في وقتنا الحالى ويظهر أن الحكومة العليا اتخذته وكيلاً لها في كتابة التقارير السرية عن أحوال الولاية وإدارتها وحالة الفلاحين ومواردهم . وتصرف السلطات المحلية معهم ، ودار ضرب النقود ، ومبلغ ما يسك فيها من الذهب والفضة . ومما لا شك فيه أنه ليس من حق عامل بريد الولاية الزام أحد موظفيها على تنفيذ عمل من الأعمال فهذا من حق المشرف .

وقد حدد الماوردي^(٣) الفرق بين إختصاصات كل من المشرف وصاحب البريد في الولاية بقوله : « وحكم المشرف يخالف حكم صاحب البريد من ثلاثة أوجه — أحدها أنه ليس للعامل أن ينفرد بالعمل دون المشرف وله أن ينفرد به دون صاحب البريد ، والثاني أن للمشرف منع العامل مما أفسد فيه وليس ذلك لصاحب البريد ؛ والثالث أن المشرف

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ١٢٩

(١) مقدمة P.4 Sprenger

(٣) الأحكام السلطانية ص ٢٠٢

لا يلزمه الأخبار بما فعله العامل من صحيح وفساد لأن خبر المشرف إستعداد وخبر صاحب البريد إنهاء ، والفرق بين خبر الإنهاء وخبر الإستعداد من وجهين — أحدهما أن خبر الإنهاء يشتمل على الفساد والصحيح ، وخبر الإستعداد مختص بما لم يرجع عنه دون ما رجع عنه ، وإذا انكر العامل إستعداد المشرف أو إنهاء صاحب البريد لم يكن قول واحد منهما مقبولا عليه حتى يبرهن عنه ، فإن اجتمعا على الإنهاء والاستعداد صارا شاهدين عليه فيقبل قولهما عليه إذا كانا مأمونين . فكان الماوردي جعل منزلة صاحب البريد منزلة السمع والبصر ، فهو منوط بحمل صورة واقعية وطبق الاصل لما عليه حال الولاية من صلاح وفساد وعمار وخراب ، وهي أمور يذنب على الأخلاص بروايتها اختلال التوازن بين الحكومة العليا وفروعها .

وقد ساعد عمال البريد الخليفة المنصور في إحكام الرابطة بينه وبين رعيته ، فبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاية وعلى ما يصدره القضاء من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال ، كما كانوا يوافقونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها ، وبلغ من انتظام البريد في عهده أن عماله كانوا يوافقونه بذلك مرتين في كل يوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلا الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور ، وبهذا وقف المنصور على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية . ولهذا كان شديد الإتصال بولاته فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا ، وإن رأى تقصيرا من أحدهم ونجه ولامه أو عزله من عمله مهانا^(١) . وعلى عامل البريد أن ينفذ أوامر الخليفة ليلا أو نهارا مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة فمما يروى . . . عن محمد الأمين أنه أراد إستعداد أحمد بن مزيد إلى حضرته ، فكلف عامل البريد بذلك فقام ليلا وأخذ يبحث عنه في القرى والمزارع حتى ألقاه وأحضره لساعته ، وكان أحمد بن مزيد يرغب في المبيت حتى الصباح ولكن عامل البريد أصر على الرحيل ليلا قائلا « إن أمير المؤمنين أمرني أن أشخصك أي ساعة صادفتك فيها من ليل أو نهار^(٢) » .

ولم يكن صاحب البريد يعنى فقط بالأخبار التي تتعلق بمهام سياسة الدولة بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من النواذر الطريفه والأخبار الممتعة ، فقد حدث في سنة ٢٠٠ هـ ، ٩١٢ م أن ورد كتاب صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكل بخبر التطواف رفع

(١) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٤٣٤ — محاضرات في الدولة العباسية ص ١١٠ — النظم

الإسلامية ص ٢٥٦ (٢) الطبري مجلد ٣ ج ١ ص ٤٣٤ — النظم الإسلامية ص ٢٥٦

إليه يذكر أن بغلة الرجل وضعت فلوة ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه ويقول « فوجهت من احضر لى البغلة والفلوة فوجدت البغلة كمتاء حلوقيه ، والفلوة سوية الخلق ، تامة الأعضاء ، مسدلة الذنب ، سبحان الملك القدوس لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب^(١) » ، والخبر يدل على دقة عمال البريد في تطير الأخبار ووفائهم للخلفاء في تلمس الحقائق ، لكونهم عقد الاتصال بين الخلفاء وعمالهم ، فاذا تكدرت العلائق بين الوالى والخليفة وأراد الأول التمرد والعصيان بقطع حلقة الاتصال وهو البريد عن الخليفة ، وجب على عامل البريد وفاء لواجبه أن يحتاط الأمر قبل حدوثه ، وهذا ما جعل الخلفاء يتحرون الدقة في اختيار عمال البريد ، وفي الرسالة التي^(٢) كتبها أبو يوسف القاضى للرشيد في الخراج نموذج من هذه العناية ومما جاء فيها « بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحى تخليط كبير ومحاباه فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاية والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية ، وسترُوا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس وربما كتبوا فى الولاية والعمال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم وهذا مما ينبغى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار » فبمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته فى اختيار عمال البريد والأمناء على الاخبار ، إذ من المنطقى السليم إلا يقبل خبر إلا من ثقة عدل .

وبالرغم من السلطة التى أعطاهها الخلفاء لعمال البريد إلا أنهم لم يعطوهم الفرصة لاستغلال نفوذهم فى الإثراء على حساب الغير بل كانوا يحاسبونهم حسابا عسيرا ، ويتلمسون الدقة فى أخبارهم . حتى كان الخلفاء أحيانا يشكون فى صحة أخبار عامل البريد ولا يعملون بقوله . وتذكر الرواية العربية أن صاحب بريد همدان بخراسان كتب مرة إلى المأمون يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما فرد عليه المأمون بقوله « إنا نرى قبول السعاية شرا من السعاية ، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شئ كمن قبله وأجازته ، فانف الساعى عنك فلئن كان فى سعائته صادقا ، لقد كان فى صدقه لئىما ، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه^(٣) . . . » وإنى أخذ على المأمون هذا القول إذا المفروض أن عامل البريد يكتب بما عنده إن خيرا وإن شرا

(١) صلة تاريخ الطبرى ص ٢١ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ١٩٢

(٢) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥ — الإدارة الإسلامية فى عز العرب ص ١٤٠

(٣) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٣٢

وعلى الخليفة أن يقرأ أحدها بما تقتضيه قرآن الأحوال وشواهد الأمور ؛ ولكن المأمون نظرا لإغراقه في كتب الفلسفة والنظريات يرد ردا لا يتفق ومنطق السياسة والحكم . فمثل هذا الرد من جانب الخليفة قد يحمل عامل البريد على إخفاء حقيقة الحال في الولاية ويستتر على عمال الخليفة بها مكثفيا بإرسال ما لا يستطيع إخفائه وفي هذا ضرر كبير بالصالح العام^(١) . وآية ذلك ما حدث للمأمون نفسه لما عزم على نقل الخلافة إلى الطالبيين وبائع وهو عمرو بن موسى الرضا فشق ذلك على بني العباس واضطربوا ونصبوا إبراهيم المهدي وياعوه ، وحاربوا الحسن بن سهل وإلى المأمون وكسروه ، والأخبار منطوية عن المأمون بسبب تمكن وزيره الفضل بن سهل من الأمور . فتجملت زوجة المأمون في أن بعثت له خلعا من خزوش وكتبت ما أرادت على بطائنها ، وجعلت فوق البطائن بطائن بآلية قدرة ، فلما عرضت على الفضل بن سهل أمر بحملها إلى المأمون دون النظر فيها ، فلما أراد المأمون لبسها نظر في رداءة بطائنها فزعها ورأى الكتابة على البطائن الأصلية فعظم ذلك عليه وعلم انطواء الأخبار عنه فأخرج البريد عن تعلق الوزير وتنكر ذلك من الفضل بن سهل فاعتذر بقوله « أردت أن أكفيك هذا الأمر ثم أعلمك به »^(٢) فلم يقبل المأمون عذره ورحل إلى العراق من وقته ، ومهما كان الأمر فإن يقظة الخليفة المأمون على عمال البريد جعلتهم يخشون بأسه إن هم حاولوا قطع الأخبار عنه ، لذلك نراهم يحرصون على إحاطته علما بالخارجين على طاعته ، فظاهر ابن الحسين وإلى أمر المشرق في عهد المأمون ولكن حدثته نفسه بالخروج على طاعة الخليفة وظهرت بوادر هذا الخروج في السنة السابعة من ولايته لما خطب يوما على منبر خراسان وأمسك عن الدعاء للمأمون فعاتبه صاحب البريد هناك . واعتذر له طاهر بأنه سهو وقع منه ورجاه ألا يكتب إلى المأمون بذلك ثم تكرر ذلك ثلاث مرات وظاهر يتقدم إليه ألا يكتب فقال له صاحب البريد « إن كتب التجار لا تنقطع من بغداد وإن اتصل هذا الخبر بأمر المؤمنين من غيرنا لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتي »^(٣) ثم

(١) وقد ظهر في العصر العباسي عائلة يقال لها عائلة البريدي ينطبق عليها قولنا إذ كان لها من النفوذ ما مكنها من أن تلعب بعض الأدوار السياسية الهامة ، وكان كبيرها مديرا للبريد في البصرة — تاريخ البريد في مصر ص ٣٨ — ويقول عنه الأستاذ السيد امير على (الترجمة العربية ص ٢٥٩) في حوادث عام ٣٢٩ هـ أن زعيما تركيا اسمه البريدي استولى على بغداد ففر بن رائق بصحبة الخليفة المتقي بالله إلى الموصل حيث كان حفيدا الأمير حمدان أمير الموصل وتكرت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردها الخاصة فاغتالا ابن رائق لكي يخلو لهما الجو ، وما هي إلا برهة حتى لقبهما الخليفة بناصر الدولة وسيف الدولة وعاد معهما إلى بغداد حيث اجلساه على عرشه ثانية .

(٢) آثار الأول في ترتيب الدول ص ٦٦

(٣) تاريخ بن خلدون ج ٣ ص ٢٥١ تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٠

كتب صاحب البريد إلى المأمون بنخلع طاهر بن الحسين وكان يخشى أن يسبقه خبر التجار خصوصاً وأن الخلفاء كما هو الشأن في الحكومات العصرية كانوا يتذرعون بأشخاص لا صبغة رسمية لهم لاستخدامهم في تلك المهام على نحو ما قدمنا شرحه ، وكانوا ينتخبون عادة من طبقة التجار والبيعة المتجولين فيوافونهم بالتقارير الوافية عما يقع من الحوادث وقد يخفيها عمال البريد عن الخلفاء . فلما وصل الخبر إلى المأمون أمر باستحضار طاهر ابن الحسين الذي وافته المنية قبل أن يصله رسول المأمون .

(٤) علامة عمال البريد : جرت التقاليد والعرف من أقدم العصور أن يكون لعمال البريد زى خاص بهم ، أو علامة خاصة يحملونها معهم لتشير إلى طبيعة عملهم ، وتميزهم عن سائر موظفي الحكومة ولا تزال مصلحة البريد المصرية إلى اليوم تراعى هذه التقاليد وتحترمها بل وتقدها ، فتخص ساعاتها بزى أصفر اللون ، وفي العصور القديمة كانت الأمة الرومانية من أحرص الأمم على احترام هذا العرف كما سبق الإشارة إليه في الفصل الأول ، كذلك كان الحال أيام خلفاء المسلمين إذ كانت علامة رسل البريد ^(١) في عهد العباسيين قطعة من الفضة بقدر الكف يعلقها العامل على كتفه ، وقد كتب على إحدى صفحاتها البسملة واسم الخليفة وعلى الصفحة الأخرى « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » وفي مصر بنوع خاص كان لعمال بريد الممالك علامة خاصة سنشير إليها في الفصل الخامس .

أما رسول تيمورلنك فكان يعرفه السكان من شكله وهيأته عند دخوله من أحد أبواب مدينة سمرقند ، إذ يجرى خلفه الأطفال فرحين بقدومه ولا يزال كذلك ينتقل من شارع إلى آخر حتى يصل إلى نائب تيمور حيث ينتظره الكتاب الذين يقع عليهم أمر نشر أخبار تيمور وفتوحاته بين الشعب ^(٢) . ويتميز الرسول في الحملات بعصاة طولها قدمين تقريباً يحملها في يده مشبوكاً بها الخطاب ومعلقاً بها راية صغيرة ^(٣) . واكتفت مصلحة البريد الإسلامية بالأعلان على أبواب المساجد أو المحلات العمومية مناداة بواسطة أحد الرجال عن مواعيد سفر عمال البريد إلى الولايات ، ويظهر أنهم كانوا يخرجون على هيئة صفوف منسقة تنسيقاً يشبه اصطفاة الجنود في ميادين القتال ، فيعطون منظراً جميلاً يأخذ بالألباب وكذلك كان الحال عند عودته إلى العاصمة ، ولا أدل على ذلك من

(١) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٦٣ — الطائر الفريد ص ٩٤

(٢) تيمورلنك — الترجمة العربية ص ١٠٦ (٣) مقدمة Springer P.3

أن أحد الخلفاء كان يلذ له أن يرى هذا العرض بنفسه فيأمر بأن يكون مرور البريد عن طريق قصره الخاص ، ثم يهرع إلى شرفته عند مرور كل بريد ليتفرج عليه ، وإذا خفض حاملوا البريد صوتهم المعتاد إبداءه إعلايا بوصول البريد أو مروره تلطفا أو احتراماً للخليفة ينذرهم بالعقاب حتى قال لهم ذات مرة «إن خفضتم صوتهم مرة أخرى خفضت راتبكم» ويقول متفاخراً «أن صوت بشرى البريد لا ذنى ألد من الكرى لعيني^(١)»

(٥) بريد الرحالة : وقد أطلق هذه التسمية ابن بطوطة في حديث عن البريد ببلاد الهند ، وقصد بها جماعة السعاة وهم رجال خفاف الحركة عرفوا عند العرب بقوم ياجوج وماجوج ، يفتكون بالعدو ولا يخشون بأساً ولا دركا حتى في الأراضي الوعرة . وقد وصفهم بعض الرحالين بكونهم ذو خفة عجيبة ومناظر غريبة ولا سيما عند خروجهم من المدينة وتفرقهم خارج بابها إلى الجهات التي يقصدون إيصال الرسائل إليها فانهم يظهرون للناظر إليهم عن بعد كأنهم قطع من الجداء ذهبت للرعى^(٢) ويرجع تاريخ استخدام السعاة في نقل الرسائل بالدولة الإسلامية إلى أيام بني بويه ، وكانت أول نشأتهم في بغداد على يد معز الدولة الذي أراد أن يخطر أخاه ركن الدولة سريعاً فأعطاهم الجرايات الكثيرة ، وانخذلهم من الذين يذغون في الجرى نبوغاً استثنائياً ، وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك^(٣) وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان قطع كل منهما ما يزيد على الأربعين فرسخاً (حوالي ١٨٠ كيلو متراً) من مشرق الشمس إلى مغربها وكانا أثيرين عند عامة الناس وقد أورد المؤرخون ذكرهما ، وهما فضل ساعى السنة ومرعوش ساعى الشيعة^(٤) . ونال هذه الشهرة في مصر أحد سعاة الملك الناصر محمد وأسمه الأقوش الذي لا يبعث إلا في مهم ، أمره ذات مرة بحمل خبر من مصر إلى حلب فجاء في السير وأسرع حتى أقطع المسافة بينهما في خمس وهي مسيره شهر^(٥) .

وتحدث ابن بطوطة عن ترتيب هذا النوع من البريد بأن يكون في كل ثلاث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب ، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس ،

(١) الطائر الفريد ص ٢٣

(٢) المرجع السابق ص ٤٩

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥ —

(٣) تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٨١

دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١١٠ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٢٥٦

(٥) ابن بطوطة ج ٢ ص ٦٠

تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٣

فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له ، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ، ومر باقضى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى المحطة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه . . . وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا عليه الفواكه المستطرفة بالهند وخراسان ، يحملونها في الأطباق ويشدون بها حتى تصل إلى السلطان أو الحاكم أو من يقوم مقامه (١) .

ومن أشهر السعاه عدوا الصينيين فإن الواحد منهم قادر على الإستمرار في السير جملة ساعات وهو حامل قدرا عظيما من المراسلات بلا كلل ولا ملل ، ويحكى أنه بينما كان أحدهم حاملا رسائل مهمة صدر الأمر إليه أن يتخذ حصانا ليسير بسرعة عظيمة ويصل إلى المحل المقصود ، ثم مر بقوم فدهشوا إذ رأوه يسوق الحصان أمامه وهو يعدو وراءه فسألوه لما لا تركب الحصان فقال « تبصرت قليلا فرأيت أنه إذا سارنا على ست أرجل وصلنا إلى المحل المقصود بأسرع ما يمكن من الوقت (٢) » وبلى الصينيين في الشهرة المصريون ، ومن الغريب أن الكهل منهم يجارى الفقى في العدو المستمر لما إمتاز به المصرى من القوة الجسدية المتولدة فيه نتيجة الرياضة الطبيعية في أشغاله المتعبة واشتهر المصريون كسعاة منذ القرن الخامس الميلادى إذ استخدموا في جماعات منظمة أطلق عليهم أسم « سيناكوى » في مصر السفلى ، وكانوا لا يزالون موجودين حتى القرن الثامن الميلادى بدليل ما نجده في إحدى ورقات دينر البردية .

وتتفق الروايتان الشرقية والغربية في القول بأن من أراد أن يكون ساعيا في الإسكندرية لا بد أن يحمل شعلة في سلة على هيئة مدفأة مثبتة في عمود طوله قامه رجل ، وله حلقات من حديد ، وأن يقطع المسافة التى بين رشيد والإسكندرية وطولها سبعة وعشرون ميلا ويعود في يومه قبل مغيب الشمس (٣) ، فكان وظيفة الساعى في ذلك الوقت أعتبرت من الوظائف الحكومية الهامة لا يلتحق بها الشخص إلا بعد أن يثبت لياقته بامتحان يجرى له ، ولا بد من إثبات أهليته واستعداده الطبيعى لتلك الوظيفة لما يكتنفها من أهوال وأخطار .

ولا يزال بريد الرجال يستعمل في مضر إلى الآن وتنعتهم مصلحة البريد بكاهنة « طوافه » وهم مكفون بتوصيل البوستة إلى القرى الغير موجود بها — مكاتب بوستة

(٢) الطائر الفريد ص ٨٩ ، ٢٠٤

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٧ — مسكويه ج ٥ ص ١٩٨

واستلام المراسلات من الصناديق في القرى المعين مرور الطواف عليها ، ومحذور عليهم أن يخالفوا الطريق المقرر مرورهم عليها أو أنهم يتأخرون عن الميعاد المحدد لهم بالجدول الذي يحمله كل منهم . وكثيرا ما تمت مصلحة البريد هؤلاء الرجال بحيوانات ينتقلون عليها من قرية إلى أخرى تخفيفا لآلامهم ورأفة بأبدانهم ويستعينون على ضبط مواعيدهم بساعة تعيرها مصلحة البريد لهم مدة خدمتهم .

ويخيل إلى أن مملكة الهند قد فاقت الممالك الإسلامية الأخرى في تنظيم جماعات السعاة ، ويروى القلقشندى^(١) أنها رتبّت لهم أماكن شبيهة بمراكز البريد في مصر والشام ، إلا أنها تمتاز بقربها من بعضها ، وفي كل مكان من هذه الأماكن مسجد وسوق وبركة ماء وعشرة سعاة ممن اتصف بالخفة والقوة . وجرت العادة كما هو متبع اليوم أن يحمل السعاة المراسلات داخل كيس أو جراب من الجلد معلق بإحدى كتفي الساعي أو مسترسل بعلاقة إلى جانبه الآخر على شكل حقيبة العساكر ويحمل بعضهم أجراسا^(٢) . ومما هو جدير بالملاحظة أن حياة هؤلاء السعاة مخوفة بالمخاطر ، فكثيرا ما يتهون الطريق أو تصادفهم وحوشا كاسرة تضطربهم إلى المرور في أرض غير مطروقة وغير سابلة الأمن ومتوفرة الماء .

(٦) بريد الخيالة : أطلق عليه بن بطوطة كلمة « الولاك » وهي خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال^(٣) .

والخيال هي الحيوان الشائع الاستخدام من أقدم العصور في نقل البريد قالت عنه الرواية العربية^(٤) أنه اتخذ كوسيلة لتبادل المكاتبات السياسية بين أمم الشرق الأدنى منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد . ويظهر أن العرب لم يستخدموا الخيل إلا بعد اتساع فتوحاتهم واجتياحهم شرقا وغربا أملاك الأكرسة والقياصرة . إذ أن شبرنج^(٥) يشير إلى استخدامهم الجمال في شبه الجزيرة العربية وسوريا لنقل بريدهم ، على حين كان الفرس يستخدمون الخيل والبغال لهذا الغرض . ولعل شبرنج يستند في استنتاجه على حقيقة بلاد العرب الجغرافية فالجمال هو الحيوان الوحيد الذي استطاع من غابر العصور بصبره وجلده أن يكيف حياته بهذه البيئة الصحراوية القاسية . ولكن يجب ألا نأخذ بقول شبرنج حتى لا نزعّم أن العرب حديثوا العهد بالخيال وأنهم لم يعرفوها إلا في عصر

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٩٨

(٢) الطائر الفريد ص ١٥

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١

(٥) Sprenger P.3

(٤) Cambridge Anc. Hist.V.2 P.228

الفتوحات . فالقرآن وهو مرجع تاريخي لا يحتمل الشك ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يؤكد معرفتهم للخيال بل ولجميع دواب البريد والنقل بدليل قوله تعالى « والخيال والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون »^(١) أما الجمل فورد في آية أخرى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت »^(٢) صحيح قد يكون الجمل أول حيوان استخدمه العرب في نقل بريدهم ، ولكن ليس صحيحاً أن الجمل ظل محسكراً لنقل رسائل البريد ، فركات التقدم والتطور التاريخي استبدلته بالخيال والبغال ، وشاع استخدام البغال بنوع خاص في نقل البريد بمملكة تونس^(٣) ، حيث كان من حق عامل البريد أن يركب بغل إما ملك له أو مستعار ويسافر إلى جهة قصده ، وكان على الولاة الذين ير بأرضهم أن يقدموا له البديل إما من جهتهم أو عن طريق السخرة من الرعايا ويتبع العامل نفس الطريقة عند عودته إلى المكان الذي بدأ منه .

وفي الغالب كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين دابة ، ويعلقون في أعناقها جلاجل أو سلاسل إذا تحركت سمعت لك قرقة تعرف عندهم بقرقة البريد^(٤) . أما المراسلات فكانت تجعل ضمن أكياس من الجلد وتوضع على ظهور الدواب ، ثم تقطر الدواب بعضها ببعض ويركب على كل دابة رجل . ويتصدر القافلة قائد خبير بمعالم الطرق يتوافر فيه من الصفات ما يتصف به دليل الهجاة اليوم ، من حيث بعد النظر ، وترجمة الأثر ، وقوة الملاحظة والجرأة والشهامة . وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع الدواب . ويقال أن معدل سير البريد بواسطة الخيالة والسعاة الذين يتغيرون في مراكز قريبة بلغ ١٢٠ ميلاً أنكليزيا في كل ٢٤ ساعة^(٥) .

وكان المتبع في إختيار خيالة البريد أن يكونوا من الرجال الأشداء ذووا الجلد ، المتمرنون على الركوب والعدو ، واشهر خيالة البريد التتر الذين كثر استخدامهم في الدولة العثمانية ، حتى صار يطلق بها اسم تترى على كل خيال حامل رسائل . ويلهم في الشهرة خيالة الفرس فإنهم يقاربونهم في النشاط والتجمل على السفر الطويل حتى في المسالك الوعرة^(٦) .

(١) سورة النحل

(٢) القلقشندي ج ٥ ص ١٤٨

(٣) سورة العاشية

(٤) الطائر الفريد ص ٢٥

(٥) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٢

(٦) المرجع السابق ص ٨٩

والراجح أن حكام المسلمين من أوائل القرن الرابع الهجري عدلوا عن استعمال الخيل في البريد إلى اتخاذ الجمازات ، فمن ذلك أنه لما قامت دولة الفواطم ببلاد المغرب وطمعت في الإستيلاء على مصر واقتطاعها من الدولة العباسية ، وكثرت غزواتهم على السواحل الشمالية ، وكل الخليفة المقتدر أمر صدهم إلى مؤنس الخادم وندب معه العسكر لمحاربتهم ، ولكي تصله أخبار مؤنس كل يوم رتب الجمازات من مصر إلى بغداد^(١) . وذلك لما امتازت به الجمازات من سرعة نقل الأخبار .

(٧) ميزانية البريد : الحديث عن هذا الموضوع أمره شائك وغامض لقلة ما عثرنا عليه من مادة تاريخية تتعلق به ، وحتى الراوية العربية نفسها لم تبين لنا على وجه التحقيق تفاصيل هذه التكاليف ، وينبغي الإشارة إلى ما قاله ابن خرداذبه^(٢) « أن سكك البريد في المملكة تسع مائة وثلاثون سكة ، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق البنادرة (البريد) والفرانقين لسنة مائة ألف دينار وأربعة وخمسون ألف ومائة دينار » .

لم يوضح ابن خرداذبه عما إذا كان هذا الرقم خاصا بعمال ودواب البريد في جميع المملكة ، أو في إقليم خراسان الذي كان يعمل به كصاحب بريد ، أو إقليم العراق باعتبارهم إقليم العاصمة ، الأمر الذي جر علينا مشا كل كثيرة إزاء صحته وعدم تفسيره وحمل المستشرقين على القيل والقال في كرامة وأخلاق الشرقيين فالهير شبرنجهر^(٣) مثلا نقل هذا النص عن النسخة الخطية بلندن وعلق عليه بقوله ، وعلى هذا الأساس تكون مصاريف السكة الواحدة مبلغ يناهز ١٦٦ دينار ، وإذا عرفنا أن مرتب الجندي الواحد كان يبلغ مائة دينار وأحيانا يزيد على ذلك استطعنا أن ندرك أن هذا المبلغ من التفاهة بحيث لا يمكن من الاحتفاظ بعدد كبير من الخيول ، أو من إعطاء مرتبات محترمة لموظفي البريد الذين كانوا ولا بد يعيشون على الرشوة والهدايا التي تقدم لهم من رجال المنطقة التي يعملون فيها ليستعوضوا بها عن قلة مرتباتهم ، ويخلص من هذا الأستنتاج الغريب إلى القول بأن الشرقيين عامة مرضى بداء الرشوة ويستدل على هذا من تجاربه الشخصية في هذا الموضوع ببلاد الهند ، ونحن نرى أن هذا الموضوع الذي أثاره حضرة المستشرق هو خارج عن الموضوع الذي يعالجه ، ولا يتفق بحال مع هذا الإيجاز الشديد الذي عالج به نظام البريد في الشرق .

(١) صلة تاريخ الطبري ص ٥٣ : ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٦ والجمازة شبهه — محفه على عجلة تجرها الخيول السريعة . يركبها عمال البريد ورجال الحرب وغيرهم ممن يتطلب عملهم السرعة — تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٨١

Sprenger P.4 (٣)

(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٣

وهذا أمر يدعو إلى الغرابه والدهشة من غير شك ، ويدل على رغبة شديدة في انتهاز الفرصة لتجريح الشرقيين ونقدهم في أثناء بحث علمي . . . هذا فضلا عن الخطأ العلمي الكثير فهو أولا قد أخذ رقما غامضا وربما كان خاطئا بدليل أنه ذكر الرقم ١٥٤١٠١ ، على حين ورد في النسخة المطبوعة والتي تحت يدنا ١٥٤١٠٠ ، كما أن حضرته عندما ذكر الرقم لم يتالك نفسه من أن يتساءل عن حقيقة هذا الرقم وهل هو لـكل عام أم لفترة من الزمن . ووضع بين قوسين كلمة سنويا مشفوعة بعلامة استفهام . مع أن النسخة المطبوعة ذكرت كلمة سنويا صريحة كما سبق في النص . . . وعلى كل فهذه الكتب القديمة كثيرا ما يعتورها النقصان والزيادة ، وهو يعتمد في هذه الفقرة على كتاب خطي نسخه بنفسه من نسخة خطية أخرى لابن خردادبه . ويقول في المقدمة أنه قد نقلها على وجه السرعة فلم يكن أمامه إلا أربعة أيام للقيام بهذه العملية . ومع هذه الظروف كلها فإن حضرته يتمسك بهذا الرقم كما لو كان يتمسك بنص من نصوص القرآن ، ويتخذ سنداً للوصول إلى حكم تاريخي يخالف العقل والمنطق ، ثم يبني عليه نتائج غريبة ، منها أن موظفي البريد كانوا يتقاضون الرشوة كالشرقيين جميعا وكما شاهد هو بنفسه في الهند .

ولقد قرر السيد أمير على بحق أن هذا الرقم إنما كان خاصا بنفقات البريد في العراق وحده . وهذا استنتاج أصح من غير شك وإليك نص عبارته ^(١) «ومصاريف إطعام هذه الدواب وشراء الجديد منها ومرتبات رجال البريد وموظفيه للعراق وحده بلغت ١٥٤ ألف دينار أو ما يقرب من مائة ألف جنيه . وفي حكم الخليفة الأموي هشام بلغت مصاريف البريد في إقليم العراق فقط أربعة ملايين درهم» . وقد ذكر البعض ^(٢) خطأ أن الرقم الأخير هو قيمة نفقات البريد لفرع اليمن ، وواضح طبعا أن هذا القول لا يتفق مع الحقيقة التاريخية إذ لا يعقل أن تكون تكاليف فرع اليمن ٣٢٠٠٠٠ دينار على حين أن تكاليف فرع العراق ١٥٤ ألف ، وفرع اليمن من غير شك يعتبر في المرتبة الثانية بعد فرع العراق ، والميزانية إذا وضعت لا يمكن أن توضع إلا لإقليم العراق فقط وهو كرسى الدولة ، وبهذا ترتفع نفقات المحطة الواحدة إلى ألف دينار بل ألفين إذا لم يكن في العراق ما يقرب من مائة محطة . وبذلك يكون هناك مجال كبير لدفع مرتبات عالية تغني الموظفين عن أخذ الرشوة . ويكفي لحفظ عدد كبير من الخيل .

(١) Ashart Hist, of the saracens P. 117

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٣ — الطائر الفريد ص ٢

على أننا من ناحيتنا لا نزال نتمسك بأن هذا الرقم الذى أورده حضرة المستشرق لا يدل بذاته على كل التكاليف التى يتكلفها البريد ، لأن النقود كانت تؤلف جزءا صغيرا من الإيرادات والمصروفات التى احتسب الجزء الأكبر منها عينا ، فقد بأتى لمقر الخلافة عدد من الخيول أو البغال أو الجمال كضريبة من الضرائب فتخصصه الدولة لأشغال البريد وهكذا . والمفهوم أن العرب لم يعرفوا الميزانية بمعناها الدقيق كما نعرفها نحن اليوم ، والمفهوم أيضا أن كل إقليم يقوم بنفقات مافيه من جند وما فيه من مؤسسات ومنشآت ، فمحطات البريد الموجودة فى مصر يصرف عليها من غلة مصر ثم يصدر الزائد إلى العاصمة وما يصرف على بريد خراسان هو من متحصلات خراسان ثم يوجه الزائد إلى العاصمة . هذا هو المقول وهذا هو المعروف ، بل وهذا هو الثابت لكل من ألقى نظرة ولو عابرة على ما كان عليه النظام فى ظل الخلافة العربية ، فلم يكن النظام المركزى منسقا . ولا يمكن أن يكون منسقا نظرا لاتساع أنحاء الإمبراطورية ، وإلا فهل يريد أن يتصور حضرة المؤلف الألمانى أن رجلا بأقصى خراسان على حدود الصين كان ينتظر أن يصل إليه مرتبه الشهرى من بغداد وأن بغداد هى التى كانت تدفعه .

أما كون موظفى البريد كانوا يعيشون من الهدايا والرشا التى كانت تقدم لهم ، فهو قول ادحضه بتقديم الدليل من النصوص التاريخية التى تثبت على أن الخلفاء أنفسهم كانوا أكثر يقظة ، وأكثر حرصا على إعطاء مرتبات جديرة بالاحترام لموظفى البريد ، كى يجمعون أخبارهم على الصحة ، وتفاديا لوقوعهم فيما أشار إليه الأستاذ شبرنجى من مرض الرشوة والهدايا .

إذ ورد فى الرسالة التى كتبها القاضى أبو سيف إلى هارون الرشيد فى هذا المعنى ما نصه^(١) « وينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال ، وليدر عليهم ، وتقدم إليهم فى أن لا يستروا عنك خبرا عن رعيتك ولا عن ولاتك ، ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليه خبرا » فكان القاضى أبو يوسف قرر رفع مرتبات موظفى البريد وزيادة أرزاقهم كشرط أولى لتلقف الأخبار الصحيحة منهم عما يدور فى الولايات .

وتحدث الأستاذ بارتولد^(٢) بصفة عامة عن رواتب العمال فى الدولة العباسية أيام

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٤ — ومن قوله . وارتفعت الرواتب فى زمن الخليفة المأمون فكان قاضى مصر فى أيامه : يتقاضى راتبا قدره أربعة آلاف درهم (٨٠ جنيه انجليزى) وفى رواية أخرى أعلى من ذلك ، أى يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا . (٣٥٠٠ جنيه انجليزى) وقاضى القضاء خمسمائة دينار (٢٥٠٠ جنيه انجليزى) وفى الجملة فإن رواتب العمال فى القرن الرابع وهو عهد تناقص الخلافة أعلى مما كانت فى أيام هارون الرشيد .

بعض الخلفاء وأورد لنا قيمة ما يتقاضاه بعضهم . وإن كان للأسف لم يرد مرتب صاحب البريد ، إلا أنه يفهم من الإحصائية أن مرتبات الموظفين كانت باهظة وسخية ، وربما أن صاحب البريد لا يقل مكانة عن الوزير والقاضي مثلاً فلا بد وأن يوازي مرتبه مرتبهما . وقد أشار أستاذى العبادى إلى ميزانية البريد فى العراق بأنها بلغت ١٦٠ ألف دينار . ولا شك أن مبلغاً كهذا كبير إذ لاحظنا القيمة الشرائية له فى الوقت الحاضر (١) . ولم يغفل المرحوم السير توماس أرنولد تلك المسألة بل يشير إليها فى إيجاز قائلاً : « إن إنشاء تلك المؤسسات البريدية الكبرى بمحطاتها المزودة بالجمال والخيول قد كلفت ثمناً باهظاً ، إلا أنها قد كفلت الأمن والإشراف الدقيق على الأداة الحكومية فى امبراطورية مترامية الأطراف كهذه (٢) » .

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى

(٢) Cambridge Med. Hist. V4. P. 283

الفصل الرابع

طرق البريد وسككه

تاريخ إهتمام الإنسانية بإنشاء الطرق قديم بقدم الحضارة البشرية . غير أن مجهود الانسان في هذا السبيل ضئيل لا يقاس بمجهوداته الأخرى في نواحي نشاطه العقلي ، ذلك لأن انتقال الإنسان في حياته البدائية الأولى كان محدودا . وكان القصد منه الحصول على القوت فقط لذا كانت الطرق التي اختارها في غدوه ورواحه أسهل الطرق وأكرمها ضيافة ولما شعرت الجماعات البشرية الأولى بحاجاتها إلى نشأة القرى والمدن ، تحددت اتجاهات الطرق وألف الناس السير على هذه الطرق المعينة وعلى مضي الزمن عرفت أصول الحضارة ووضعت معالم المدنية ، وحتمت الضرورة اعتماد طرق مختارة ومنفصلة على غيرها ، وهكذا ربطت الطرق البلدان وأصبح من اليسور على زعماء القبائل والعشائر أن يتصلوا بإخوانهم في الجهات الأخرى النائية ، وهذا الاتصال لا يكون إلا عن طريق إرسال رسلهم متتبعين تلك الطرق المحدودة المعالم . . .

على أن الأمر لم يقف بالطرق عند هذا الحد بل سرعان ما اتخذت لها مكانه سامية بين جميع مظاهر الحضارة عند الأمم الراقية . وذلك بمجرد إنسياح أمة من الأمم في بقعة فسيحة من الأرض ومد نفوذها وسلطانها على الأمم الأخرى . وهنا بدأ تفكيرها في إنشاء طرق رئيسية من بين الطرق الفرعية المعتمدة من قبل ، واعتبرت بعض تلك الطرق الرئيسية في نظر التطور التاريخي والإجتماعي طرقا عالمية يسلكها الزنجي والبربري والمغولي والأوربي كالطريق البري بين أوروبا والصين مثلاً والذي سيرد ذكره فيما بعد ويحفظ التاريخ للرومان فضل الأسبقية على غيرهم في الاعتناء بالطرق وتخصيص إدارة للإشراف عليها . لذلك كان من الضرورات العلمية أن أشير بكلمة عن الطرق عند الرومان قبل الكلام عن طرق البريد الإسلامية .

(١) الطرق عند الرومان : الرومان وإن كانت حضارتهم قد بدأت متأخرة عن

حضارات أمم الشرق الأدنى كمصر وبابل وآشور واليونان ، إلا أنها استطاعت بفضل من تعهدوها بالرعاية والعناية أن تتغذى بفيثاميتات قوية قصرت من أمد طفولتها، وغدت في مصاف زميلاتها الشرقيه ، بل وبزتها في نواحي كثيرة ، فمثلا لم يحفظ لنا التاريخ عن

البريد المصرى قدر ما حفظ عن البريد الرومانى . ولم يحفظ لنا عن الطرق المصرية القديمة قدر ما حفظ عن الطرق الرومانية . ومثل هذا يقال عن بابل وآشور فالقانون الرومانى لا يزال أثره موجودا إلى الآن . على حين أننا لم نقرأ الكثير عن قوانين بابل وآشور ، وفن العمارة واضح عند الرومان فى قصورهم ودواوين حكوماتهم . على العكس عند اليونان والمصريين لا نرى أثره إلا فى المعابد والمقابر .

لذا سنرى العرب قد فطنوا إلى ما فطن إليه الرومان من أهمية الطرق والعناية بأمرها ، ولعل هذا يكون مرجعه إلى اتساع رقعة كل من الإمبراطوريتين العربية والرومانية شرقا وغربا ، أو إلى طبيعة الحكم الذى ارتضته كل منهما ، فهو حكم أقطاعى مركزا فى بغداد وروما ، على عكس الحكم فى فارس كان إقطاعيا ، أو يكون سببه أخيرا إلى طبيعة الموقع الجغرافى لكل من العاصمتين بغداد وروما . فكنتاهما على نهر وقريبة من البحر ، وكنتاهما فى حاجة إلى طرق مستقيمة تشق ولاياتها من مشرقها لمغربها متجهة كلها صوب العاصمة . . . فكما كانت روما قلب الإمبراطورية الرومانية القديمة الحفاق حتى قيل بحق عنها وقتذاك « كل الطرق تؤدى إلى روما » كذلك كانت بغداد فى العصور الوسطى قلب الإمبراطورية الإسلامية الحفاق وقيل عنها ما قيل عن روما خصوصا فى العصر العباسى الأول^(١) .

وتفسير ذلك أن الرومانيين قد أدركوا منذ عصور مبكرة ما للطرق العامة من خطورة فى حياة الأمم ، وشعروا بالحاجة المضاعفة إليها بمجرد أن اتسعت رقعة إمبراطوريتهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وكان مبعث هذه الحاجة فى أول الأمر حربيا^(٢) إذ كان من الضرورى فى أى وقت أن تتحرك الفرق الحربية بسرعة من ولاية إلى أخرى ، وقد شعر الإمبراطور أوجسطس برداء طرق المواصلات ما بين إيطاليا وكل من غاليا وأعلى الرين ، كما أنه لم يكن هناك طريق سوى يتبعه صوب مقدونيا لعدم صلاحية ساحل دلماشيا لمرور الجند حتى فى أوقات السلم ، وإذا ما أراد الرومان الوصول إليه برا عن طريق الشمال نحو بوسنيا Bosnia اعترضتهم جبال الألب الجوليانية Julian Alps^(٣) وثمة سبب آخر لاهتمام الرومان بالطرق العامة وهو ربط أطراف الإمبراطورية بالعاصمة

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى .

(٢) The Roman System of Provincial Administration P. 18—Ca-

mbridge Anc. Hist Vol.10 P. 217,

Cambridge Anc. Hist, Vol.10 P. 352 (٣)

حتى يسهل على الحاكمين صيانة ونقل الأخبار الرسمية ما بين روما والحكومات المحلية أو العكس ، فكان عنايةهم بإنشاء الطرق ساعدت على نشاط وإزدهار حركة البريد عندهم .

وأقدم طريق روماني يذكره التاريخ القديم هو الطريق الآبي *Via Abi* اشتق اسمه من اسم القنصل الروماني أبيوس كلوديوس الأعمى الذي بدأ تشييده منذ اثنين وعشرين قرنا ونصف أي عام ٣١١ ق . م . ويجرى الطريق الآبي من روما إلى كابوا ثم إلى الميناء المعروف الآن ببرنديزي ، ووصف أحد المؤرخين هذا الطريق بالحملة اللاتينية — *longarum Rigina Viarum* أي سلطان المسالك والممالك ^(١) .

وإذا ما رحلت روما شمالا لقيت طريقا رومانيا شهيرا اسمه *Via Flaminia* وهو بالنسبة لشمال إيطاليا كأنه الطريق الآبي بالنسبة لجنوبها ، انشأ سنة ٢٢٠ ق . م . لكنه ما لبث أن تداعى ، وبعد مضي نصف قرن بدأ الإمبراطور أوجسطس إصلاحا عاما لجميع الطرق الرومانية في إيطاليا *General cura viarum* وكلف كل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ *Senatus* الإشراف على إصلاح طريق واحد من بين الطرق الرومانية وأبقى من نصيبه وعلى حسابه الخاص شرف إعادة طريق فلامينيا إلى ما كان عليه ، فشيّد من جديد جميع كباريه تقريبا ، ولقد أقيمت نصب وأقواس نصر لتحية أوجسطس عندما مر فوق كبرى فالفيوس آرمنيوس ^(٢) . وعن هذا الطريق خرج طريقان أحدهما إلى شمال أسبانيا لجنوبها إلى شمال إفريقية حتى قرطاجنة ، والآخر إلى بلاد الغال . وفي غالة نفسها يرجع تحسين طرقها إلى الإمبراطور أجريبا *Agrippa* الذي اتخذ مدينة *lugdunum* (مكان لبون الحالية) مركزا رئيسيا تفرع منها أربعة طرق — أولها إلى أكويتانيا ، وثانها إلى نهر الرين ، وثالثها إلى بحر المانش ، ورابعها مع نهر الرون جنوبا إلى مرسيليا ^(٣) .

(١) مجلة الراديو المصري العدد ٦٤ ص ٦ — ويقال أن الإمبراطور كلوديوس قارن بين الأهرام التي كانت يومئذ عجيبة الدنيا بأسرها وبين الطريق الآبي قائلا — إن الهرم الأكبر أثر يرضى غرور فرد واحد وحتى ذلك الفرد لا تدفن جثته فيه على الأغلب ولكن ما من عابر للطريق الآبي إلا وهو ذاكر بالفضل والحمد ذلك الرجل الذي شيده .

(٢) مجلة الراديو المصري العدد ٦٤ ص ٦ Cambridge Anc. Hist Vol. 10 P 205 ويقال أن أوجسطس قد عهد إلى لجنة من أعضاء السناتو بمهمة الإشراف على الطرق العامة *Cura viarum* عرفت هذه اللجنة باسم *Curatores Viarum* اختيروا من بين طبقة البراتور *praetores* المتخصصين في فن إنشاء الطرق Cambridge Anc. Hist. V. X P. 205
(٣) Camb. Anc. Hist. Vol 10 P. 217

أما طريق الشرق الذي يتجه صوب البلقان فيعتبره المؤرخون بمثابة العمود الفقري لأوروبا ويرجعون الفضل في إنشائه إلى أوجسطس أيضا ، ويبدأ من Aquileia (بين تريست وفيومي تقريبا) مارا بمدينة Singidunum (بلغراد الحالية) في طريقه إلى بيزنطة ، وهو الطريق الوحيد الذي يستطيع المسافر بواسطته في الوقت الحاضر أن يخترق مملكة يوجوسلافيا من غربها إلى شرقها في زمن قصير وراحة متوفرة وهو عصب المواصلات في الممالك البلقانية على وجه العموم الآن^(١) .

وتمتاز كل الطرق الرومانية باستقامتها من المبدأ حتى النهاية بصرف النظر عما يعترضها من عقبات طبيعية ، وأيضا تشتهر بقوة البناء ، ولا يزال الكثير منها باقيا إلى الآن وهي على الأغلب تستخدم كعصب للطرق الحديثة^(٢) . وكانت طريقتهم في إنشائها أن تقام على ارتفاع نسبي فوق أرض منبسطة ، ويلاحظ على جانبي الطريق الحفر التي منها أخذ التراب لإنشائه ، وكانت هذه الحفر في نفس الوقت بمثابة خنادق محصنة تستطيع الفرق الحربية في أية نقطة على الطريق أن تتجمع بداخلها في أقرب وقت وفي أمان من العدو^(٣) ، وعلى طول الطريق أسست محطات البريد بحيث يقسم الطريق إلى أميال وعلى رأس كل ميل حجر Milestone ويطلق على الميل الأول في روما - The Golden Milestone - أي معلم الميل الساطع^(٤) . ولما كانت روما تعتمد اعتمادا كبيرا على الجنود المحاربين في تمهيد وتعميد تلك الطرق في الولايات الرومانية ، فان قانون أجزاريا^(٥) Lex Agraria الصادر في سنة ١١١ ق م قضى بان تكون تلك الطرق ملكا للرومان أنفسهم . أما عن أثر هذه الطرق فانه علاوة على سهولة نقل الفرق الحربية من مكان إلى آخر وعلاوة على طمأننة أُل Cursus publicus على مؤسساتها ورجالها ودوابها ، فان الطرق كانت وسيلة من وسائل التبادل الفكري والعقلي بين الشعوب الخاضعة للحكم الروماني ، فتمكنت الحضارة الرومانية من أن تصبغهم بصبغتها الغربية وتقاليدها الوثنية أولا ثم المسيحية أخيرا ، بل وأكثر من هذا ساعدت الطرق البحرية الأساطيل الرومانية على تتبع القرصنة في مياه البحر الأبيض المتوسط واستئصال شأفتها^(٦) .

(١) The Roman System of Provincial Adm. P. 18-- Camb. Anc. Hist. Vol 10. p. 352.

(٢) الراديو المصرى العدد ٤٦٤ ص ٦ .

(٣) The Roman System of provincial Administration P. 18

(٤) Cambridge Ancient History Vol 10. P. 216

(٥) The Roman System of Provincial Adm. P. 116 - 117

(٦) Camb. Anc. Hist. Vol. 10 P. 217, 348.

(٢) الطرق عند العرب . تعودنا أن نلقن التلاميذ في مدارسنا المصرية الشيء الكثير عن عظمة الأوربيين وخصوصا الرومان الأقدمين في فن إنشاء الطرق ، وهذه من غير شك حقيقة تاريخية لا يختلف عليها إثنان ، ولا مجال لنا في إنكارها على الرومان كما سجلناها لهم على النحو السابق ذكره . . . وإنما الشيء الذي يحز في نفسى ويفعمنى بالحسرة والألم هو الإشادة والتشهير بعظمة الغير والجهل والقصور بفضل العرب على الحضارة الحديثة ، فالعرب الذين كونوا إمبراطورية عظيمة شملت أقطارا في العالمين الشرقى والغربى لم يفهم العناية بطرق المواصلات البرية والبحرية (١) . . . غير أنى لا أدرى أكانوا فى عنايتهم مقلدين وناقلين عن الفرس والرومان ، أم أن الضرورة الملحة واتساع رقعة إمبراطوريتهم ألزمتهم إنشاء الطرق لسهولة الاتصال بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية . . . أم كان الحافز طبيعيا ، إكمالاً لنمو حضارتهم وتمشياً مع نظرية النشوء والأرتقاء ، ويرى البعض (٢) أن فرق المشاة الرومانية قد مهدت بعض الطرق فى جزء صغير من بلاد العرب ، ولكن لم يبق من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة Via ومعناها الصراط عند أهل الدين وكلمة Iter التى تستعمل نادرا بمعنى الطريق ، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماة بالأُميال ، أما الطريق السلطانى فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن الفرس ، كما أخذوا عنهم هذه التسمية ، ولعل طرق ذلك العهد شأن طرق اليوم لم تكن الا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام . . . ومعنى هذا أن الأستاذ مترينفى كزميله الأستاذ شبرنجر وجود طرق منسقة ومنظمة للمواصلات والبريد عند العرب ، وهذا ليس بالشيء الغريب على الغربى فهو مشوق بطبعه إلى اىثار نفسه على الشرق ، فحملته تلك الأثرة على الإزورار والجحود بما خطه العرب للعالم المتحضر من مدنات جليلة القدر عظيمة الأثر ، واذا لم يكن للعرب طرق منظمة كما يقول حضرته ، أين إذن طريق وسط آسيا وطريق الخليج الفارسى ، اللذان اشتهرا فى العصور الوسطى ، وعنهما نقلت إلى أسواق أوروبا منتجات

(١) كان لعرب الجاهلية طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى . أحدهما يسير شمالا من حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسى ومن ثم إلى صور — والثانى يبدأ من حضرموت أيضا ويسير محاذيا للبحر الأحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنباً هضاب الشاطىء ووعورتها . وعلى الأخير تقع مكة فى المنتصف تقريبا بين اليمن وبطره . هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة وفتحت لهم بابا للرزق كبيرا ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ومنهم من كان يستخدم فى التجارة كأن يكون سائقا أو حارسا أو دليلا — فجر الإسلام ج ١ ص ١٤

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٤١ .

الشرق من توابل ومنسوجات ، ومجوهرات ثمينة ، وأحجار كريمة ، وعقاقير طبية ، فشوقت الأوروبيين إلى ضرورة الإستمتاع بملذ الحياة ، وتسابقت الدول فيما بينها على امتلاك الشرق ، ونتج عن هذا التنافس وذلك التسابق كشف طريق رأس الرجاء الصالح . . . ألم تكن طرق القوافل المنظمة والطرق التي أنشأتها الخلافة العباسية هي الوسيلة الوحيدة لنقل مثل هذه المتاجر من أقصى آسيا إلى أقصى أوروبا . . . ألم يدل ذلك كله على يقظة رجال ديوان البريد واشرافهم على تلك الطرق وحراستها ، وحسبى دليلا على ذلك ما كتبه الكاتب الإنجليزي هارولد لامب في وصفه لإمبراطورية تيمورلنك بقوله: «وقد اهتم تيمور بطرق المواصلات فعمر الجسور وأنشأ الطرق وأقام فيها حراسا للمحافظة في أيام الشتاء حيث تكثر الثلوج والأمطار ، وكان هؤلاء الحراس يسألون عن كل جمل أو فرس أو غيره يسرق من القوافل التي تمر في مناطقهم ، كما أن القوافل كانت تدفع جزية معينة لقاء هذه المحافظة التي يقوم بها جنود تيمور ، وأما الماء فكان يجلبونه بمجارير خاصة من منابع بعيدة^(١) » .

إذا قيل هذا عن امبراطورية تيمور فما بالك بالإمبراطورية الإسلامية يوم أن كانت عاصمتها في بغداد ذات الموقع الجغرافي الممتاز من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والعمرانية . . . تحدث جغرافيو العرب كثيرا عن طرق تلك الإمبراطورية وأبدى الأستاذ^(٢) Le Strange رأيه في كتبهم وأثنائهم على عنايتهم بعلم المسالك ، ووضع في مقدمتهم ابن خرداذبة وقدامه ، وكان الأول مديرا لمصلحة البريد في ولاية الجبال ، بينما كان الثاني عاملا للخارج وكلاهما تخصص في المسافات ، أما اليعقوبي فوصف بأسهاب طوبوغرافية بغداد . وابن رسته وقد اعتنى على وجه الخصوص بطريق خراسان والطريق الذي يمتد من بغداد جنوبا إلى الكوفة والبصرة فشيراز . والأربعة من جغرافي القرن الثالث الهجري . . . ثم حدث تطور في علم الطرق وظهر في القرن الرابع الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الأبعاد بالميل لكل إقليم على حدة فعد هذا تقدما كبيرا ومن مشاهير هؤلاء الإصطخري وابن حوقل والمقدسي ، والأول فارسى الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس ، والثاني لا يزيد عنه في شيء من حيث المادة الجغرافية ، أما المقدسي فيكتبه عظيم لأنه دون ملاحظاته الشخصية لبعض الولايات كل منها على انفراد من حيث وصف أما كتبها وعادات سكانها وحالهم وحرفهم الخ . والثلاثة معا أفادتنا مادتهم في تعيين بعض

(١) La Vie de Tamerlan P. 157 والترجمة العربية ص ٦٦ .

(٢) The Lands of Eastern Caliphate P. p. 11 — 13

المدن التي خربت على مر الأيام كما ساعدتنا على ملء الخرائط الجغرافية لتلك الأصقاع .
وقد لخص الأستاذ آدم متر^(١) أشهر الطرق المتفرعة من بغداد ، وأمانة للبحث العلمي
رأينا ارجاع هذه الطرق إلى مصادرها الأصلية كي يستطيع القارىء أن يكون صورة
ذهنية حقيقية عن هذه الطرق وهى فى أوج عظمتها ، وإليك هذه الطرق تقلا عن أقدم
هؤلاء الجغرافيين وهما بن خرداذبة وقدامه^(٢) ولنبتدىء بذكر

أولا : الطرق إلى سائر كور المشرق ونواحيه .

ابن خرداذبة وقدامه : من بغداد إلى النهروان أربعة فراسخ ، ثم إلى دير بازما
أربعة فراسخ ، ثم إلى الديسكرة ثمانية فراسخ ، ثم إلى جلولا سبعة فراسخ ، ثم إلى خافقين
سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر شيرين ستة فراسخ ، ثم إلى حلوان خمسة فراسخ . فذلك
من بغداد إلى حلوان أحد وأربعون فرسخا . ومن حلوان إلى مادرواستان أربعة
فراسخ ، ثم إلى مرج القلعة ستة فراسخ ، ثم إلى قصر يزيد أربعة فراسخ ، ثم إلى
الزبيدية ستة فراسخ . ثم إلى خشكاريش ثلاثة فراسخ ثم إلى قصر عمرو أربعة فراسخ
ثم إلى قرمسين ثلاثة فراسخ . فذلك من قرمسين إلى حلوان ثلاثون فرسخا .

ابن خرداذبة : من قرمسين إلى الدكان سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر اللصوص سبعة فراسخ
ثم إلى خنداذ سبعة فراسخ ثم عقبة همدان إلى قرية العسل ثلاثة فراسخ ثم إلى همدان
خمسة فراسخ .

قدامه : من قرمسين إلى قنطرة مريم خمسة فراسخ ، ثم إلى الدكان أربعة فراسخ
ثم إلى قصر اللصوص ستة فراسخ ، ثم إلى أسداباز سبعة فراسخ ، ثم إلى الزعفرانية
ستة فراسخ ، ثم إلى همدان ثلاثة فراسخ فذلك من قرمسين إلى همدان إحدى وثلاثون
فرسخا . . . ومن أراد الطريق من قرمسين إلى نهاوند أخذ من قرمسين إلى الدكان
سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر اللصوص تسعة فراسخ ، ثم إلى كراس خمسة فراسخ ثم إلى
نهاوند أربعة فراسخ . فذلك من قرمسين إلى نهاوند خمسة وعشرون فرسخا . .
ومن أراد من نهاوند إلى همدان فمن نهاوند إلى راكا ستة فراسخ ، إلى الديمر خمسة
فراسخ ، ثم إلى همدان سبعة فراسخ . فذلك من نهاوند إلى همدان ثمانية عشر فرسخا
ومن أراد من نهاوند إلى الكرج وهى قسبة الأبخارين فمن نهاوند إلى راكا ستة فراسخ
ثم إلى حواراب ثمانية فراسخ ، ثم إلى الكرج خمسة فراسخ . فذلك من نهاوند إلى

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) راجع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولا ضرورة لتكرار ذكره وصفحاته هنا .

السكرج تسعة عشر فرسخا . . . فمن احتاج إلى أن يعرف الطريق من همدان إلى الأيغارين وقصبتها السكرج فمن همدان إلى طاسبندا خمسة فراسخ ، ثم إلى حوار سبعة فراسخ ، ثم إلى السكرج خمسة فراسخ . فذلك من همدان إلى السكرج سبعة عشر فرسخا . ومن همدان إلى السكرج على رستاق سواء من همدان إلى جوران خمسة فراسخ ، ثم إلى صنداد سبعة فراسخ ، إلى سبعان سبعة فراسخ ثم إلى السكرج تسعة فراسخ . فذلك على هذا الطريق ثمانية وعشرون فرسخا . . . ومن أراد أصبهان من السكرج فمن السكرج إلى خرنا باز سبعة فراسخ ، ثم إلى أبتعة سبعة فراسخ ، ثم إلى جرباذقان ستة فراسخ ، ثم إلى قنوران ثمانية فراسخ ، ثم إلى مرج ورهن سبعة فراسخ ، ثم إلى المازمين أربعة فراسخ ، ثم إلى أزميزان اثني عشر فرسخا ، ثم إلى أصبهان ثلاثة فراسخ . فذلك من السكرج إلى أصبهان أربعة وخمسون فرسخا .

ابن خرداذبة وقدامة : من همدان إلى درنوا خمسة فراسخ ، ثم إلى يزدجرد خمسة فراسخ ، ثم إلى درة أربعة فراسخ ، ثم إلى طردة أربعة فراسخ ، ثم إلى الأساورة أربعة فراسخ ، ثم إلى دروة وبوسنة ثلاثة فراسخ ، ثم إلى داوداباذ أربعة فراسخ ، ثم إلى سوسنقين ثلاثة فراسخ ، ثم إلى دروذ أربعة فراسخ ، ثم إلى ساوة خمسة فراسخ ، ثم إلى مشكوبة ثمانية فراسخ ، (ابن خرداذبة ٩) ، ثم إلى قسطانة ثمانية فراسخ ، ثم إلى الري سبعة فراسخ . فذلك من همدان إلى الري أربعة وستون فرسخا .

قدامة : ومن الري إلى مفضلا باز أربعة فراسخ ، ثم إلى أفريدين ستة فراسخ ، ثم إلى كاسب ثمانية فراسخ ، ثم إلى حوار ستة فراسخ ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ، ثم إلى رأس السكب سبعة فراسخ ، ثم إلى سرخ أربعة فراسخ ، ثم إلى سنان أربعة فراسخ ، ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ، ثم إلى قرية دابة أربعة فراسخ ، ثم إلى قومس أربعة فراسخ ، ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ ، ثم إلى كوزستان أربعة فراسخ ، ثم إلى بدش ثلاثة فراسخ ، ثم إلى مجد اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى هفتدر سبعة فراسخ ، ثم إلى أسدا باز سبعة فراسخ ، ثم إلى بهمن باز ستة فراسخ ، ثم إلى النوق ستة فراسخ ، ثم إلى خسرو جرد ستة فراسخ ، ثم إلى حسينا باز أربعة فراسخ ، ثم إلى ستكردر خمسة فراسخ ، ثم إلى بيشكند خمسة فراسخ ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ ، فذلك من الري إلى نيسابور مائة وأربعون فرسخا .

ابن خرداذبة : ومن الري إلى قزوين ذات اليسار سبعة وعشرون فرسخا ، ثم إلى أبهر اثنا عشر فراسخ ، ثم إلى زنجان خمسة عشر فرسخا . . . ومن الري إلى مفضلا باز أربعة فراسخ . ثم إلى كاسب ستة فراسخ ثم إلى أفريدين ثمانية فرسخا ، ثم إلى حوار

سنة فراسخ ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ، ثم إلى رأس السكب^(١) سبعة فراسخ ، ثم إلى سمنان ثمانية فراسخ ، ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ، ثم إلى قومس ثمانية فراسخ ، فمن الرى إليها ثلاثة وستون فرسخا . ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ ، ثم إلى بدش سبعة فراسخ ، ثم إلى ميحد اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى هفتكند سبعة فراسخ ، ثم إلى أسداباذ سبعة فراسخ ، ثم إلى بهمن أباد ستة فراسخ ، ثم إلى النوق ستة فراسخ ، ثم إلى خسرو كرد ستة فراسخ ، ثم إلى حسين أباد ستة فراسخ ، ثم منكروور خمسة فراسخ ، ثم إلى بيسكند خمسة فراسخ ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ فمن بغداد إلى نيسابور ثلثمائة وخمسة فراسخ^(٢) .

ابن خردادبة وقدامه . من نيسابور إلى بفس أربعة فراسخ ، ثم إلى الحمراء ستة فراسخ ، ثم إلى المثقب من طوس خمسة فراسخ ، ثم إلى النوقان خمسة فراسخ ، ثم إلى مزدوران العقبة ستة فراسخ ، ثم إلى اركونية ثمانية فراسخ ، ثم إلى سرخس ستة فراسخ ، ثم إلى قصر النجار ثلاثة فراسخ ، ثم إلى أشز مفاك خمسة فراسخ ، تلمستانه ستة فراسخ ، ثم إلى الداند انقان ستة فراسخ ، ثم إلى ينو جرد خمسة فراسخ ، ثم إلى مرو خمسة فراسخ . فذلك من نيسابور إلى مرو سبعون فرسخا .

ابن خردادبة : ومن مرو طريقان أحدهما إلى الشاش وبلاد الترك ، والآخر إلى بلخ وطخارستان . فأما طريق الشاش والترك : فمن مرو إلى كشمهن خمسة فراسخ ، ثم إلى الديواب ستة فراسخ ، ثم إلى المنصف ستة فراسخ ، ثم إلى الأحساء ثمانية فراسخ ، ثم إلى بئر عثمان ثلاثة فراسخ ، ثم إلى آمل ثمانية فراسخ . فمن مرو إلى آمل ستة وثلثون فرسخا . . . ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ ويعبر إلى فربر فرسخ ثم إلى حصن أم جعفر مغازه ستة فراسخ ومنها إلى بيكند ستة فراسخ ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان

(١) يلاحظ اختلاف هذه الأسماء عادة على الخرائط وفي الكتب ، ويرجع (ص ١٩) Le Strange هذا الاختلاف إلى أن بعض القرى ومراكز البريد اشتق اسمها من المظاهر الطبيعية كقرية Salt, Camel village, myrtle village وهي بالفارسية على الترتيب Dih namah, Dih Ushturan, Dih murd مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأسماء الفارسية كانت شائعة الاستعمال في فارس وترجمها جغرافيو العرب إلى العربية . إلا أنه يلاحظ في بعض الأحيان في القائمة العربية اسم محطة بريد بالعربية على حين أنه لم يصلنا ما يقابلها بالفارسية كقرية Râs — âl Kalb مثلا .

(٢) في حين أنها بلغت عند قدامه ٣٠٦ فرسخا كآلاتي — من بغداد إلى حلوان ٤١ فرسخا ومن حلوان إلى قرميسين ٣٠ فرسخا ومن قرميسين إلى همدان ٣١ فرسخا ، ومن همدان إلى الرى ٦٤ فرسخا . ومن الرى إلى نيسابور ١٤٠ فرسخا = ٣٠٦

ثم إلى ماستين فرسخ ونصف ، ثم إلى بخارا فرسخ ونصف فمن آمل إلى بخارا تسعة عشر فرسخا . . . ومن بخارا إلى شرنج أربعة فراسخ ، ثم إلى طواويس ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كوكشيبغن ستة فراسخ ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ ثم إلى الدبوسيه خمسة فراسخ ، ثم إلى أربنجن خمسة فراسخ ، ثم إلى زرمان خمسة فراسخ ، ثم إلى قصر علقمة خمسة فراسخ ، ثم إلى سمرقند فرسخان ، فمن بخارا إليها تسعة وثلاثون فرسخا . . . ومن سمرقند إلى باركت أربعة فراسخ ، ثم إلى خشوفغن أربعة فراسخ ، ثم إلى بور نمذ خمسة فراسخ ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ ، وزامين مفرق طريقين إلى الشاش والترك وإلى فرغانه .

قدامه : ومن مدينة مرو طريقان أحدهما : إلى ناحية الشاش وبلاد الترك ، والآخر إلى ناحية طخارستان ، فمن مرو إلى كشمين خمسة فراسخ ، ثم إلى الديوان وبها سكة ستة فراسخ ، ثم إلى الطهملج موضع سكة فرسخان ثم إلى المنصف موضع سكة أربعة فراسخ ، ثم إلى الأحساء موضع سكة ثمانية فراسخ ، ثم إلى نهر عثمان موضع سكة ثلاثة فراسخ ، ثم إلى العقير موضع سكة ثلاثة فراسخ ، ثم إلى آمل خمسة فراسخ فذلك من مرو إلى آمل ستة وثلاثون فرسخا . ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ ، ثم إلى قرية على فرسخ ، ثم إلى حصن أم جعفر ستة فراسخ ، ثم إلى بيكند ستة فراسخ ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان ، ثم إلى ماستين فرسخ ونصف ، ثم إلى بخارا خمسة فراسخ ، فذلك من آمل إلى بخارا اثنا وعشرون فرسخا ونصف . . . ومن بخارا إلى شرنج أربعة فراسخ ، ثم إلى الطواويس ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كوك ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ ، ثم إلى الدبوسيه خمسة فراسخ ، ثم إلى ربنجن خمسة فراسخ ، ثم إلى زرمان ستة فراسخ ، ثم إلى قصر علقمة خمسة فراسخ ، ثم إلى سمرقند فرسخان . فذلك من بخارا إلى سمرقند سبعة وثلاثون فرسخا . . . ومن سمرقند إلى باركت أربعة فراسخ ، ثم إلى خشوفغن أربعة فراسخ ، ثم إلى فورنمذ خمسة فراسخ ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ ، وزامين مفرق طريقين طريق إلى شاش وطريق إلى فرغانة .

ابن خرداذبة : فأما طريق شاش ؛ فمن زامين إلى خاوص سبعة فراسخ ، ثم إلى شط نهر الشاش جسر تسعة فراسخ . ثم إلى نهر ترك أربعة فراسخ ، ثم إلى شطورك وبونوكت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى الشاش فرسخان . فمن سمرقند إلى الشاش اثنان وأربعون فرسخا . . . ومن الشاش إلى معدن الفضة سبعة فراسخ ، ثم إلى باب الحديد ميلان ، ثم إلى كبال فرسخان ، ثم إلى غرکرد ستة فراسخ ، ثم إلى امبيجاب أربعة فراسخ ،

فمن الشاش إليها ثلاثة عشر فرسخا . . . ثم إلى شاراب أربعة فراسخ ، ثم إلى بدوخنكت خمسة فراسخ ، ثم إلى تمتاج أربعة فراسخ ، ثم إلى أبا رجاج أربعة فراسخ ، ثم إلى منزل على النهر ستة فراسخ ، ثم إلى جويكت خمسة فراسخ ، ثم إلى طراز ثلاثة فراسخ ، فمن اسبيجاب إليها ستة وعشرون فرسخا . ثم إلى كويكت سبعة فراسخ . ومن طراز إلى إلى نوشجان السفلى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى قصر باس فرسخان ، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى حل شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى طولان أربعة فراسخ ، ثم إلى بركي أربعة فراسخ ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ ، ثم إلى توزكت ثمانية فراسخ ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ ، ثم إلى جول أربعة فراسخ ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ ، ثم إلى مدينة خاقان التركشي أربعة فراسخ ، ثم إلى نواكت أربعة فراسخ ، ثم إلى كبال ثلاثة فراسخ ، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين مسيرة خمسة عشر يوما للقوافل في المرعى ، فأما لبريد الترك فمسيرة ثلاثة أيام .

قدامه : فأما طريق شاش فمن زامن إلى خاوص ستة فراسخ ثم إلى نهر الشاش خمسة فراسخ ، ثم إلى بناكت أربعة فراسخ ، ثم إلى جينانجكت أربعة فراسخ ، ثم إلى بنونكت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى مدينة شاش فرسخان ، ثم إلى معسكرا فرسخان ، ثم إلى غركرد خمسة فراسخ ، ثم إلى اسبيشاب أربعة فراسخ ، ثم إلى شاراب أربعة فراسخ ، ثم إلى بدوخنكت أربعة فراسخ ، ثم إلى تمتاج خمسة فراسخ ، ثم إلى بارجاج أربعة فراسخ ، ثم إلى منزل ستة فراسخ ، ثم إلى شاوغر ثلاثة فراسخ ، ثم إلى جويكت فرسخان ، ثم إلى طراز فرسخان ، ثم إلى نوشجان السفلى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى قصر باس فرسخان ، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى كولان أربعة فراسخ فذلك من مدينة طراز إلى كولان أربعة عشر فرسخا . . . ومن كولان إلى قرية بركي غناء أربعة فراسخ ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ ، ثم إلى توزكت ثمانية فراسخ ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ ، ثم إلى جول أربعة فراسخ ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ ، ثم إلى قرية خاقان التركي أربعة فراسخ ، ثم إلى كندر ميراو فرسخان ، ثم إلى نواكت فرسخان ، ثم إلى بنجيكت فرسخان ، ثم إلى سوياب فرسخان ، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين^(١) خمسة عشر يوما على سير القوافل في المرعى والمياه ولبريد الترك سيره ثلاثة أيام .

(١) ويظهر أن هذا الطريق هو طريق الصين إذ يقول المقدسي (ص ٢٧٨) أنه كان بسمرقند باب يسمى باب الصين . ويقول الأستاذ آدم متر (ج ١ ص ٣٥٠) إن مجاوزة هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين كانت تتوقف على ما يكون فيه الأمن ، لأنه كان دائما معدن الخوف ، ففي =

أبن خرداذبة : أما طريق فرغانة ، فمن زامن إلى ساباط فرسخان ، ثم إلى أسر وشنه سبعة فراسخ ، فمن سمرقند إلى أسر وشنه ستة وعشرون فرسخا . . ومن ساباط إلى غلوك ستة فراسخ ، ثم إلى خجندة أربعة فراسخ ، ثم إلى صامغار خمسة فراسخ ، ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ ، ثم إلى مدينة باب ثلاثة ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ فمن سمرقند إلى فرغانة ثلاثة وخمسون فرسخا . . ثم إلى مدينا قبا عشرة فراسخ ثم إلى أوش عشرة فراسخ ، ثم إلى أوزكند سبعة فراسخ ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم ، ثم إلى أطباش مسيرة يوم ، ثم إلى نوشجان الأعلى مسيرة ستة أيام ، ثم إلى خاقان التفزغر مسيرة ثلاثة أشهر .
 قدامه : أما طريق فرغانة فمن زامن إلى ساباط فرسخان ، ثم إلى كركت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى غلوك أنداز ثلاثة فراسخ ، ثم إلى خجندة أربعة فراسخ ، ثم إلى صامغار خمسة فراسخ ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ ، ثم إلى ترمقان ستة فراسخ ، ثم إلى باب ثلاثة فراسخ ، ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ ، فذلك من سمرقند إلى فرغانة خمسة وثلاثون فرسخا . . . ومن فرغانة إلى قبا عشرة فراسخ ، ثم إلى أوش سبعة فراسخ ، ثم إلى يوزكند سبعة فراسخ ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم ، ثم إلى أطباش مسيرة يوم ، ثم إلى نوشجان الأعلى ست مراحل ، ثم إلى تفزغر مسيرة ستة أيام .

ابن خرداذبه وقدامه . الطريق من مرور إلى طخارستان ، من مرو إلى فاز سبعة فراسخ ، ثم إلى مهدى أباز ستة فراسخ ، ثم إلى يحيى أباز سبعة فراسخ سبعة فراسخ ثم إلى القريتين خمسة فراسخ ، ثم إلى أسدباز سبعة فراسخ ، ثم إلى حوزان ستة فراسخ (ه عند قدامة) ثم إلى قصر الأحنف أربعة فراسخ ، ثم إلى مرو الروذ خمسة فراسخ ثم إلى أرسكن خمسة فراسخ ، ثم إلى الأسراب سبعة فراسخ ، ثم إلى كنجاباز ستة فراسخ ، ثم إلى الطالقان ستة فراسخ ، ثم إلى كندسجاف خمسة فراسخ ، ثم إلى أرغين خمسة فراسخ ، ثم إلى قصر خوط خمسة فراسخ ثم إلى الغارياب خمسة فراسخ ثم إلى القاع تسعة فراسخ ، ثم إلى الشبورقان تسعة فراسخ ، ثم إلى السدرة ستة فراسخ « ليس بها إلا مسكة بريد وخانات » ، ثم إلى دست كرد خمسة فراسخ ، ثم إلى الغور أربعة فراسخ ثم إلى باغ ثلثه فراسخ (١) .

== طوال العصر الإسلامي بل في أثناء القرن الرابع من الهجرة كان الناس لا يعملون إلى اتخاذ أقصر الطرق التي تخترق هذا الإقليم وهو الطريق الذي يجتاز فرغانة وحوض التاريم ، وكان أهل الصين يؤثرونه في القرن الثامن الميلادي ، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركوبولو فلا نجد له ذكرا عند المؤلفين .

(١) من مرو إلى بلخ مائة وستة وعشرون فرسخا — ابن خرداذبة ص ٣٢ .

قدامة : من بلخ إلى سياجرد خمسة فراسخ ثم نهر بلخ جيجون سبعة فراسخ .
ابن خرداذبه وقدامه : طريق الصغانيان ، من الترمز إلى صريخان ستة فراسخ ،
ثم إلى دارزنجي ستة فراسخ ، ثم إلى برنجي سبعة فراسخ ، ثم إلى الصغانيان خمسة
فراسخ ، ثم إلى بونذا ستة فراسخ ، (ثلاثة عند قدامه) ثم إلى همواران سبعة فراسخ
ثم إلى أبان كسوان ثمانية فراسخ ، ثم إلى شومان خمسة فراسخ ، ثم إلى واشجرد
أربعة فراسخ . ثم إلى الراست مسيرة أربعة أيام وهي أقصى خراسان من تلك النواحي .
ابن خرداذبه : الطريق من بلخ إلى طخارستان العليا . من بلخ إلى ولاري خمسة
فراسخ ، ثم إلى خلم خمسة فراسخ ، ثم إلى بهار ستة فراسخ ، ثم إلى بكبانول خمسة
فراسخ ، ثم إلى قارض عام سبعة فراسخ .

قدامة : من بلخ إلى طخارستان العليا . من بلخ إلى ولاري خمسة فراسخ ، ثم إلى
سواحى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى خلم ثلاثة فراسخ ، ثم إلى بهار سبعة فراسخ ، ثم إلى
بكببانول خمسة فراسخ ، ثم إلى قارض عام سبعة فراسخ .

ثانيا : الطرق إلى نوحى :

الاهواز ، وفارس ، وأصبهان ، وكرمان ، وسجستان

قدامة : فمن بغداد إلى كلواذى فرسخان ، وإلى المدائن خمسة فراسخ ، وإلى
سبب بنى كوما سبعة فراسخ وإلى نهمانية أربعة فراسخ ، وإلى جبل خمسة فراسخ ،
وإلى نهر سابس سبعة فراسخ ، وإلى قم الصلح خمسة فراسخ ، وإلى واسط سبعة فراسخ
فذلك من واسط إلى مدينة السلم خمسون فرسخا ، ومن واسط إلى الرصافة عشرة
فراسخ ، وإلى القنطرة اثنا عشر فرسخا ، وإلى نهر معقل ستة فراسخ ، وإلى مدينة البصرة
أربعة فراسخ ، فذلك من واسط إلى البصرة خمسون فرسخا ، ومن البصرة إلى الأبله
أربعة فراسخ ، ثم إلى بيان خمسة فراسخ ، ثم إلى حصن مهدي على الظهر ستة فراسخ ،
وفي الماء على نهر الجديد ثمانية فراسخ ، ومن حصن مهدي إلى سوق الأربعاء أربعة فراسخ ،
ثم إلى المحول ستة فراسخ ، ثم إلى دولاب ثمانية فراسخ ، ثم إلى سوق الأهواز
فرسخان ، فذلك من البصرة إلى سوق الأهواز ستة وثلاثون فرسخا .

الطريق من سوق الأهواز إلى فارس

قـدـامـة

من سوق الأهواز إلى

٢ فرسخ	حويرول
» ٤	ثم إلى أزم
» ٤	ثم إلى سابك
» ٣	» » قرية الحباري
» ٣	» » العين
» ٤	» » رام هرمز
» ٤	» » وادي الملح
» ٢	» » الزط
» ٣	» » خابران
» ٢	» » المستراح
» ٢	» » دهليزان
» ٣	» » كبارستان
» ٣	» » بسابك
» ٥	» » أرجان
» ٧	» » داسين
» ٦	» » بندق
» ٦	» » خان حماد
» ٩	» » أمران
» ٦	» » النوبندجان
» ٥	» » الكركان
» ٥	» » الحرارة
» ٥	» » خلان
» ٤	» » جويم
» ٥	» » شيراز

فمن الأهواز إلى شيراز مائة فرسخ وفرسخان

ابن خرداذبة

من الأهواز إلى أزم ٦ فرسخ

» ٥	ومنها إلى عبيد
» ٦	ثم إلى رام هرمز
» ٦	ثم إلى الزط
» ٨	» » هليزان
» ٨	» » أرجان
» ٥	» » داسين
» ٦	» » بندك
» ٦	» » خان حماد
» ٤	» » الدرخويد
» ٦-٨	» » النوبندجان
» ٥	» » كرجان
» ٧	» » الحرارة
» ٥	» » جوين
» ٥	» » شيراز

ومن سوق الأهواز إلى دورق في الماء

١٨ فرسخ وعلى الظهر ٢٤ فرسخ

ومن شيراز إلى فسا ٣٠ فرسخ

» ١٨	» فسا » درابجرد
» ٢٠	» شيراز » جور
» ٧	ومنها » البيضاء
» ٢٣	ومن شيراز » النوبندجان
» ١٢	» » اصطخر

الطريق من شيراز إلى كرمان ثم إلى سجستان

قـدـامـة

١٢ فرسخ	من شيراز إلى اصطخر
» ٨	ثم إلى زياد أباد
» ٤	» » جوبانان
» ٦	» » قرية عبد الرحمن
» ٧	» » قرية آلاس
» ٦	» » صاهك
» ٩	» » سرمقان
» ١٠	» » بشتخم
» ١٠	» » بيچند
» ٤	» » السيرجان
» ٧٦	فمن شيراز إلى السيرجان
» ٦	من السيرجان إلى قهستان
» ٨	ثم إلى رباط كومخ
» ٦	» » ساهوى
» ٤	» » أمسير
» ٦	» » خناب
» ٤	» » غبيرا
» ٨	» » كورم
» ٨	» » كشك
» ١٠	» » راثين
» ٨	» » دارجين
» ١٢	» » بم
» ٨	» » نرماسير

ابن خرداذبة

٧ فرسخ	من شيراز إلى الراديان
» ٧	ثم إلى خرمة
» ٤	» » البرانجان
» ٦	» » كند
» ٦	» » الحيرة
» ٥	» » بئر عقبة
» ٨	» » الميسكانان
» ٨	» » صاهك
» ٧	» » سروشك
» ٧	» » شهر بابك
» ٨	» » قصر النعمان
» ٤	» » قرية إبان
» ٤	» » المرجان
» ٤	» » السيرجان
» ٦	» » قهستان
» ٦	» » قراطة
» ٦	» » رستاق
» ٤	» » خناب
» ٥	» » الفبيرا
» ٥	» » خان جوزان
» ٦	» » خان خوخ
» ٧	» » سروستان
» ٥	» » ديروزين
» ٩	» » بم
» ٧	» » نرماشير
» ٧	» » النهرج

ابن خرداذبة

- ثم إلى الاحساء ٨ فرسخ
 » » جرج منارة ٩ »
 » » رباط بعيدة ٧ »
 » » اسبيد ٩ »
 » » كراغان ٨ »
 » » بئر القاضي ٨ »
 » » راشد ٦ »
 » » كاونيشك ٤ »
 » » بردين ٨ »
 » » جaron ٥ »
 » » سجستان ٦ »

ومن سجستان إلى هراة ٨٠ فرسخ

قدامة : الطريق من شيراز إلى أصبهان .

من شيراز إلى نيسابور ٧ فرسخ ومن نيسابور إلى مائين ٧ فرسخ ثم إلى عقبة
 كيسا ٣ فرسخ ثم إلى خوسكان ٧ فرسخ ثم إلى قصرين ٥ فرسخ ثم إلى اصطخران
 ٧ فرسخ ثم إلى خوارش ٦ فرسخ ثم إلى سراي ماس ومروة ٤ فرسخ ثم إلى كرو
 ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٩ فرسخ ثم إلى أصبهان ٧ فرسخ . فذلك من شيراز إلى أصبهان
 ٧٠ فرسخ .

ومن أراد أن يأخذ من الأهواز إلى أصبهان فمن سوق الأهواز إلى عسكر مكرم
 ٨ فرسخ ثم إلى الميانيج ٧ فرسخ ثم إلى اينج ٣ فرسخ ثم إلى برنا بل ٤ فرسخ ثم إلى
 رستا كرد ٧ فرسخ ثم إلى شليل ٥ فرسخ ثم إلى خوزستان ٩ فرسخ ثم إلى أرمهشت
 أباذ ٤ فرسخ ثم إلى كركركان ٧ فرسخ ثم إلى بابكان ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٧ فرسخ
 ثم إلى أصبهان ٧ فرسخ فذلك من الأهواز إلى أصبهان ٨٥ فرسخ على طريق اينج .

ابن خرداذبة : الطريق من شيراز إلى نيسابور .

من شيراز إلى الزرقان ٦ فرسخ ثم إلى قنطرة الكوسجان ٢ فرسخ ثم إلى اصطخر
 ٤ فرسخ ثم إلى برد ٣ فرسخ ثم إلى منزل فيه بئر ٩ فرسخ ثم إلى جه ٥ فرسخ ثم إلى
 الكرجار ٤ فرسخ ثم إلى كركولان ٥ فرسخ ثم إلى هندسك ٧ فرسخ ثم إلى مهراباذ
 ٣ فرسخ ثم إلى أبركويه ٣ فرسخ ثم إلى مهاجر ١٠ فرسخ ثم إلى قصر الأسد ١٥ فرسخ
 ثم إلى قصر الجوز ٧ فرسخ ثم إلى القلعة ٥ فرسخ ثم إلى يزد ٦ فرسخ ثم إلى أنجيرة

قدامة

ثم إلى سجستان ١٠٠ فرسخ
 فمن السيرجان قسبة كرمان إلى سجستان
 ١٨٨ فرسخ

٦ فرسخ شم إلى خراته ١٣ فرسخ شم إلى ساغند ١٢ فرسخ شم إلى رباط محمد بن يزداد
 ٨ فرسخ شم إلى خان اشتران ٦ فرسخ شم إلى الحبائك ٧ فرسخ شم إلى جواران ٤ فرسخ
 شم إلى طمجرهان ٤ فرسخ شم إلى الطبسين ٨ فرسخ شم إلى قرية محمد بن خرزاذ ٤ فرسخ
 شم إلى سرخذ ٤ فرسخ شم إلى أفريندرن ١٢ فرسخ شم إلى زنجي ١٢ فرسخ شم إلى
 الطريثيث ٤ فرسخ شم إلى خامسكير ٨ فرسخ شم إلى قري قهستان ٤ فرسخ شم إلى الهوار
 ٦ فرسخ شم إلى قبرسه ٦ فرسخ شم إلى نيسابور ٦ فرسخ ومن نيسابور إلى هراة
 ٨٠ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من الأهواز إلى أصبهان .

من اينج إلى جواردان ٣ فرسخ شم إلى رستاجرد ٤ فرسخ شم إلى سليدست ٦ فرسخ
 شم إلى برين ٥ فرسخ شم إلى منوجر ٦ فرسخ شم إلى الرباط ٧ فرسخ شم إلى خان الأبرار
 ٧ فرسخ شم إلى أصبهان ٧ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من فارس إلى أصبهان .

من فارس إلى كام فيروز ٥ فرسخ شم إلى كورد ٥ فرسخ شم إلى تجاب ٤ فرسخ
 شم إلى سمارم ٥ فرسخ شم إلى سياه ٥ فرسخ شم إلى البورجان ٧ فرسخ شم إلى كيبالي
 ٦ فرسخ شم إلى خان الأبرار شم إلى أصبهان .

ابن خرداذبة : الطريق من أصبهان إلى الري .

من اليهودية إلى برخوار ٣ فرسخ شم إلى رباط رز ٧ فرسخ شم إلى أنبارز ٥ فرسخ
 شم إلى أضعافه ٦ فرسخ شم إلى الدنار ٤ فرسخ شم إلى باذ ٥ فرسخ شم إلى أبروز ٥ فرسخ
 شم إلى صواخر ٩ فرسخ شم إلى المقطعة ٥ فرسخ شم إلى قارص ٩ فرسخ شم إلى قم ٦ فرسخ
 ومن قارص إلى الدير ٧ فرسخ شم إلى دزه ٧ فرسخ شم إلى الري ٧ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من شيراز إلى درابجرد .

من شيراز إلى قرية بكار ثلاثة فراسخ شم إلى الرمان ٤ فرسخ شم إلى خورستان
 ٩ فرسخ شم إلى كرم ٥ فرسخ شم إلى فسا ٤ فرسخ شم إلى طمستان ٤ فرسخ شم إلى
 النستكان ٦ فرسخ شم إلى فسارود ٤ فراسخ شم إلى درابجرد ٨ فراسخ

ابن خرداذبة : الطريق من اصطخر إلى السيرجان مدينة كرمان .

من اصطخر إلى حفر ٧ فراسخ شم إلى البحيرة ٥ فراسخ شم إلى أسبنجان ٧ فراسخ
 شم إلى قرية الآس ٤ فراسخ شم إلى الصاهك الكبرى ٦ فراسخ شم إلى قرية الملح
 ٩ فراسخ شم إلى مورياته ٨ فراسخ شم إلى روان ٣ فراسخ شم إلى المرجان ١٠ فراسخ
 ومن شيراز إليها أحد وسبعون فرسخا . ثم إلى الروث ٣ فرسخ شم إلى فرمان ٢ فرسخ

ثم إلى السيرجان ١١ فرسخ فمن السرجان إلى السيرجان ١٦ فرسخ ، ثم إلى نارما
شير ٧ فرسخ ثم إلى النهرج ٤ فرسخ . . . ومن الرجان إلى بيحند ٤ فرسخ ، ثم إلى
السيرجان ٤ فرسخ ثم إلى الأرحاء ٦ فرسخ ، ثم إلى أستور ٤ فرسخ ثم إلى خان سالم
٨ فراسخ ، ثم إلى بأخته ٨ فراسخ ، ثم إلى وادي قهندز ١٢ فرسخ ، ثم إلى أسبيذنه
٤ فرسخ ، ثم إلى المعدن ٤ فراسخ ، ثم إلى الرباط ٤ فراسخ ، ثم إلى جيرفت ٤ فرسخ
ثم إلى بم ٢٠ فرسخ ، ثم إلى نهر سليمان ٢٠ فرسخ ، ثم إلى الدهقان ٥٠ فرسخ فمن
جيرفت إلى أول عمل مكران ٤١ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من الفهرج إلى السند .

من الفهرج إلى الطابران ١٠ فراسخ ، ثم إلى باسورجان ١٤ فرسخ . ثم إلى قرية
يحيى بن عمرو ١٠ فرسخ ، ثم إلى هذار ١٠ فرسخ ، ثم إلى مدر ١٠ فرسخ ، ثم إلى
موسارة ٩ فرسخ ثم إلى درك بامويه ٩ فرسخ ، ثم إلى تبين ١٠ فرسخ ثم إلى مقاطعة
البلوص ٢٠ فرسخ ، ثم إلى الجبل المالح ٦ فرسخ ، ثم إلى النخل ٩ فرسخ ثم إلى قلمان
٦ فرسخ ، ثم إلى سراي خلف ٤ فرسخ ، ثم إلى قنربور ٣ فرسخ ، ثم إلى حيس ٢٠ فرسخ
ثم إلى سراي داران ١٠ فرسخ ، ثم إلى الجيئه ١٠ فرسخ ، ثم إلى قصدار ١٠ فراسخ
ثم إلى الجور ٤٠ فرسخ ، ثم إلى أسروشان ٤٠ فرسخ ، ثم إلى قرية سليمان بن سميع
٢٨ فرسخ ثم إلى المنصورة ٨٠ فرسخ فمن أول عمل مكران إلى المنصورة ٣٥٨ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من البصرة إلى المشرق مع ساحل فارس .

من البصرة إلى جزيرة خارك ٥٠ فرسخ ثم إلى جزيرة لاوان ٨٠ فرسخ ، ثم إلى
جزيرة ابرون ٧ فرسخ ، ثم إلى جزيرة خين ٧ فراسخ ، ثم إلى جزيرة كيس ٧ فراسخ
ثم إلى جزيرة بن كاوان ١٨ فرسخ ، ثم إلى أرموز ٧ فراسخ ، ثم إلى ثارا مسيرة
٧ يوم ، ثم إلى الأيبل مسيرة ٨ يوم ، ثم إلى مصب مهران نهر السند في البحر ٢ فرسخ
ومن مهران إلى أوتسكين ٤ يوم ، ثم إلى كولي ٢ فرسخ ، ثم إلى سندان ١٨ فرسخ ،
ثم إلى ملي ٥ يوم ، ثم إلى بلين ٢ يوم ، ثم إلى اللجة العظمى ٢ يوم . . . ومن بلين
تفرق الطرق في البحر . فمن أخذ مع الساحل فمن بلين إلى بابتن ٢ يوم ، ثم إلى السنجلي
وكبشان يوم ، ثم إلى مصب كودافريد ٣ فرسخ ، ثم إلى كيلكان واللوا وكنجه ٢ يوم ،
ثم إلى سندر ١٠ فراسخ ، ثم إلى اونشين ١٢ فرسخ ، ثم إلى أيينه ٤ يوم . . . ومن
بلين إلى سرنديب يوم ومن أراد الصين من سرنديب إلى جزيرة النكباليوس ١٠ يوم
ثم إلى جزيرة كله ٦ يوم ، ثم إلى جزيرة بالوس ٢ يوم ، ثم إلى جزيرة جابه ٢ فرسخ ،

ثم إلى بلاد منبت العطر ١٥ يوم ... والطريق إلى الصين من مايط إلى قمار ٥ يوم ،
ثم إلى الصنف ٣ يوم ، ثم إلى لوقين ١٠٠ فرسخ ، ثم إلى خانفو ٤ يوم في البحر
و ٢٠ يوم في البر ثم إلى خانجو ٨ يوم ، ثم إلى قانطو ٢٠ يوم .

ثالثا : الطريق إلى نواحي الشمال :

ابن خرداذبة	قدامة
من الدينور إلى الخبارجان ٧ فرسخ	من سن سميرة إلى الدينور ٥ فرسخ
» ٦ » ثم إلى تل وان	» ٩ » ثم إلى الخورجان
» ٧ » » سيسر	» ٦ » » تل وان
» ٤ » » أندراب	» ٧ » » سيسر
» ٥ » » اليلقان	» ٤ » » اندراب
» ٦ » » برزة	» ٥ » » اليلقان
» ٨ » » سابرخاست	» ٦ » » برزة
» ٧ » » المراغة	» ٨ » » سابرخاست
» ١١ » » داخرقان	» ٧ » » المراغة
» ٩ » » تبريز	» ١١ » » ده الخرقان
» ١٠ » » مرند	» ٩ » » تبريز
» ٤ » » الحان	» ١٠ » » مرند
» ٦ » » خوى	» ١٠ » » من المراغة إلى كولسره
» ١٠ » » ومن المراغة إلى كولسره	» ١٠ » » ثم إلى سراة
» ١٠ » » ثم إلى سراة	» ٥ » » النير
» ٥ » » النير	» ٥ » » أردبيل
» ٥ » » أردبيل	» ٥ » » خان بابك
» ١٠ » » موقان	» ٨ » » برزند
» ٨ » » ومن أردبيل إلى خشي	» ٦ » » بهلاب
» ٦ » » ثم إلى برزند	» ١٢ » » من أردبيل إلى موقان
» ٢ » » سادراسب	» ٤ » » ومن برزة إلى تفليس
» ٢ » » زهرکش	
» ٢ » » دو الرود	

قدامة

ومن تفليس إلى جابروان ٦ فرسخ
ثم إلى نيز ٤ »
» » أرمية ١٤ »
» » سلماس ٦ »
ومن مرند إلى الجار ٤ »
ثم إلى خوى ٦ »
ومن أراد أرمينية من هذا الطريق فمن
مرند إلى السرى ١٠ فرسخ على الوادى
ومن الوادى إلى نشوى ١٠ فرسخ
ومن نشوى إلى ديبيل ٢٠ فرسخ .
ومن أراد ورثان إلى بردعه فمن
ورثان إلى قومام ٣ فرسخ ثم إلى البيلقان
٧ فرسخ ثم إلى بردعه ٣ فرسخ .

ابن خرداذبة

ثم إلى البذ ١ فرسخ
والطريق من برزند إلى صحراء بلاسجان
وإلى ورثان آخر عمل أذرريجان
١٢ فرسخ .
ومن المراغة إلى جنزه ٦ فرسخ
ثم إلى موسى أباد ٥ »
» » برزه ٤ »
» » جابروان ٨ »
» » نيز ٤ »
» » أرمية ١٤ »
» » سلماس ٦ »
ومن مرند إلى الوادى ١٠ فرسخ ثم
إلى نشوى ١٠ فرسخ ثم إلى ديبيل
٢٠ فرسخ
ومن ورثان إلى درمان ٣ فرسخ
ثم إلى البيلقان ٩ »
» » بردعه ١٤ »
» » البذ ٣٠ »

رابعا : الطريق إلى مكة :

ابن خرداذبة وقدامه . من بغداد إلى جسر كوش ٧ فرسخ ثم إلى قصر ابن هبيل
٥ فرسخ ثم إلى سوق أسد ٧ فرسخ ثم إلى شاهى سبعة فرسخ (٥ قدامه) ثم إلى الكوفة
٥ فرسخ ثم إلى القادسية ١٥ ميلا ثم إلى النديب ٦ ميلا ثم إلى المغيشة ٢٤ ميل ثم إلى القرعاء
٣٢ ميل ثم إلى واقصه ٢٤ ميل ثم إلى العقبة ٢٩ ميل ثم إلى القاع ٢٤ ميل ثم إلى زباله
٢٤ ميل ثم إلى الشقوق ٢١ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى قبر العبادى ٢٩ ميل ثم إلى الثعلبية ٢٩ ميل
ثم إلى الحزيمية ٣٢ ميل (٣٣ قدامه) ثم إلى الاجفر ٢٤ ميل ثم إلى فيد ٣٦ ميل ثم
إلى توز ٣١ ميل (٣٣ قدامه) ثم إلى سميراء ١٣ ميل (١٦ قدامه) ثم إلى الحاجر
٣٣ ميل (٢٣ ميل قدامه) ثم إلى معدن ٣٤ ميل (٢٧ ميل قدامه) .

ابن خرداذبة : فمن أخذ على المدينة فمن المعدن إلى العسيلة ٤٦ ميل ثم إلى بطن نخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميل .
 قدامه : من النقرة إلى مغيشه الماوان ٢٧ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معدن بني سليم ١٩ ميل ثم إلى العمق ٢٦ ميل ثم إلى أناعية ٣٢ ميل ثم إلى المسلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم إلى ذات عرق ٢٦ ميل — فاذا رجعنا إلى النقرة فمنها إلى العسيلة ٤٦ ميل ثم إلى بطن النخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه . الطريق من المدينة إلى مكة .
 من المدينة إلى الشجرة ٦ ميل ثم إلى مكل ١٢ ميل ثم إلى السيلال ١٩ ميل ثم إلى الرويته ٣٤ ميل ثم إلى السقيا ٣٦ ميل ثم إلى الأيواء ٢٩ ميل ثم إلى الجحفة ٢٧ ميل ثم إلى قديد ٢٧ ميل (٢٦ قدامة) ثم إلى عسفان ٢٤ ميل ثم إلى بطخامر ٣٣ ميل (١٦ ميل) ثم إلى مكة ١٦ ميل .

ابن خرداذبة : طريق الجاده من معدن النقرة إلى مكة .
 من المعدن إلى مغيشه الماوان ٣٣ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معدن بني سليم ٢٤ ميل ثم إلى السليلة ٢٦ ميل ثم إلى العمق ٢١ ميل ثم إلى الأفيعة ٣٢ ميل ثم إلى المسلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم ذات عرق ٢٦ ميل ثم إلى بستان بني عامر ٢٢ ميل ثم إلى مكة ٢٤ ميل فمن بغداد إلى مكة ٢٧٥ فرسخ : ٨٢٧ ميل .

الطريق من مكة إلى اليمن

قدامة

من الغمرة إلى الجدد ١٢ ميل وهو موضع البريد ثم إلى الفتق ثم إلى تره ثم إلى صفر وهي منزل فيه داران لصاحب البريد في الصحراء ثم إلى كرادبه وبه منزل صاحب بريد ثم إلى زنية ثم إلى تباله ثم إلى بيشه ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرم ثم إلى ييمجم ثم إلى كنتبه ثم إلى الثجة موضع البريد ثم

ابن خرداذبة

من مكة إلى بئر ابن المرتفع ثم إلى قرن المنازل ثم إلى الغتق ثم إلى صفن ثم إلى تره ثم إلى كرى ثم إلى رنيه ثم إلى تباله ثم إلى بيشة بعطان ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرب ثم إلى ييمجم ثم إلى كتنة ثم إلى الثجة ثم إلى سروم راح ثم إلى المهجرة ثم إلى عرقه ثم إلى صعده ثم إلى الأعمشية ثم إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم

ابن خرداذبة

الى صنعاء فمن صنعاء إلى خيوان ٢٤
فرسخ ومن خيوان الى صعده ١٦
فرسخ ومن صعده إلى المهجرة ٢٠
فرسخ فبين المهجرة وصنعاء ٦٠ فرسخ

قدامة

إلى شروم راح ثم إلى المهجرة ثم إلى
عركة ثم إلى صعده ثم إلى الأعمشية ثم
إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم إلى ربه
ثم إلى صنعاء قسبة اليمن وهذا الطريق
هو الذي عليه الأميال وهو طريق
العوامل والعمال

ابن خرداذبة . من صنعاء إلى صدى وجعفي وشنوءه ٤٢ فرسخ ومن صدى إلى
حضر موت ٣٠ فرسخ ثم صنعاء إلى حضرموت ٧٢ فرسخ . ومن صنعاء إلى ذمار ١٦
فرسخ ثم إلى نسفان وكلان ٨ فرسخ ومن نسفان إلى حجر وبدر ٢٠ فرسخ ومن
حجر وبدر إلى قرية عدن ٢٤ فرسخ فمن صنعاء إلى عدن ٦٨ فرسخ . . ومن ذمار
إلى علو يخصب ٨ فرسخ ثم إلى السحول ٨ فرسخ ثم إلى الثجة ٨ فرسخ ثم إلى الجند ٨
فرسخ . . . فمن صنعاء إلى الجند ٤٨ فرسخ، ومن صنعاء إلى العرف ٨ فرسخ ثم إلى
المان ١٠ فرسخ ثم إلى جبلان ١٤ فرسخ، فمن صنعاء إلى جبلان ٢٢ فرسخ ومن جبلان
إلى زبيد ورمع ١٢ فرسخ^(١) .

ولقد علق الأستاذ ادم متر^(٢) على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله : وعلى الرغم من
بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدول
الإسلامية ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات بل كان يغريها
أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تنهل إلى هناك من شتى
النواحي ، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ
إلى الشام ومصر وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر الخن عليهم من السلطان وعلى
عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البوزنطيين ففي سنة ٣٣٥ هـ التحق كثير
من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة
وكان فيهم قاضى طرسوس ومعه مائة وعشرين ألف دينار .

(١) وهناك طرق كثيرة من عواصم الأمصار إلى مكة ذكرت مرارا كزها دون مسافاتهما ورغبنا
عن ذكرها هنا كالطريق من مصر إلى مكة ثم من دمشق إلى مكة ، ثم من البصرة إلى مكة ، ثم من
اليامنة إلى مكة الخ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٥٣ .

خامسا : الطريق إلى نواحي المغرب :

ابن خرداذبة وقدامه . الطريق من بغداد إلى الرقة : من بغداد إلى السيلحين
٤ فرسخ ثم إلى الانبار ٨ فرسخ ثم إلى الرب ٧ فراسخ ثم إلى هيت ١٢ فرسخ ثم إلى
الناووسة ٧ فراسخ ثم إلى آلوسة ٧ فرسخ ثم إلى الفحيمة ٦ فرسخ ثم إلى النهاية
١٢ فرسخ ثم إلى الدازقي ٦ فرسخ ثم إلى النرضه ٦ فرسخ ثم إلى وادي السباع ٦ فرسخ
ثم إلى خليج بني جميع ٥ فرسخ ثم إلى الناش ٧ فرسخ (٦ قدامه) ثم إلى نهر سعيد
٨ فرسخ ثم إلى الجروان ١٤ فرسخ ثم إلى المبارك ١١ فرسخ ثم إلى الرقة ٨ فرسخ .

قدامه : طريق دمشق من الرصافة . من الرقة إلى الرصافة ٨ فرسخ ومن الرصافة
طريقان أحدهما إلى دمشق في البريه وآخر على حمص في العمران فأما طريق العمران
فمن الرصافة إلى الزراعة ٤٠ ميل ثم إلى قسطل ٣٦ ميل ثم إلى سلمية ٣٠ ميل ثم إلى
حمص ٢٤ ميل ثم إلى شمسين الشعر ١٨ ميل ثم إلى قارا ٢٢ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل
ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل فأما طريق البريه . من الرصافة
إلى دمشق . فمن الرصافة إلى الحزبه ٣٥ ميل واسمها بطلاميا ثم إلى النديب ٢٤ ميل
ثم إلى نهيا ٢٠ ميل ثم إلى القريبتين ٢٠ ميل ثم إلى جرود ٣٦ ميل ثم إلى دمشق
٣٠ ميل ومن سلمية إلى دمشق في طريق يعرف بالأوسط من سلمية إلى فرعايا ١٨ ميل
ثم إلى ماء شريك ٢٠ ميل ثم إلى صدد ١٨ ميل ثم إلى النبك ٣٥ ميل .

ابن خرداذبة : من حمص إلى دمشق . من حمص إلى جوسيه ١٦ ميل ثم إلى قارا
٣٠ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل .

قدامة : من حمص إلى دمشق . من حمص إلى جوسيه ١٣ ميل ثم إلى ايعاث
٢٠ ميل ثم إلى بعلبك ٣ ميل ثم إلى عين الجر ٢٠ ميل ثم إلى القرعون ١٥ ميل ثم
إلى العيون ٢٠ ميل ثم إلى طبريه ١٥ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه : من دمشق إلى طبريه . من دمشق إلى المكس ١٢ ميل
ثم إلى جاسم ٢٤ ميل ثم إلى نيف ٢٤ ميل ثم إلى طبريه ٦ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه . من طبريه إلى الرملة . من طبريه إلى اللجون ٢٠ ميل
ثم إلى قلنسوة ٢٠ ميل ثم إلى الرملة ٢٤ ميل .

قدامة وابن خرداذبة : من مدينة السلم إلى بردان ٤ فرسخ ثم إلى عكبرا ٥ فرسخ
ثم إلى بامشما ٣ فرسخ ثم إلى القادسية ٧ فرسخ ثم إلى الكرخ ٥ فرسخ ثم إلى جبلتنا
٧ فرسخ ثم إلى السورقانبه ٥ فرسخ ثم إلى بارما ٥ فرسخ ثم إلى السن ٥ فرسخ ثم إلى

الحديثة ١٢ فرسخ ثم إلى طهمان ٧ فرسخ ثم إلى الموصل ٧ فرسخ ثم إلى بلد ٧ فرسخ
ثم إلى باعينا ٧ فرسخ ثم إلى برقيد ٦ فرسخ ثم إلى أذمة ٦ فرسخ ثم إلى تل فراشه
٣ فرسخ ثم إلى نصيبين ٤ فرسخ . . . ومن نصيبين مفرق طريقين أحدهما ذات اليمين
إلى نواحي الشمال المقاربة لما ذكرنا من المشرق إليها والآخر إلى سائر نواحي المغرب .
الأول من نصيبين إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى كافر توتا ٧ فرسخ ثم إلى قصر بني نازع
٧ فرسخ ثم إلى آمد ٧ فرسخ ثم إلى ميفارقين ٥ فرسخ ثم إلى إرزن ٧ فرسخ . . .
والطريق من آمد إلى الرقة ذات الشمال منها إلى اشمشاط ٧ فرسخ ثم إلى تل جوفر ٥ فرسخ
ثم إلى جرنان ٦ فرسخ ثم إلى بامقدا ٥ فرسخ ثم إلى جلاب ٧ فرسخ ثم إلى الرها
٤ فرسخ ثم إلى حران ٤ فرسخ ثم إلى تل محرا ٤ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى
الرقة ٣ فرسخ . . . وأما الطريق من نصيبين إلى الرقة فمنها إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى
كافر توتا ٧ فرسخ ثم إلى العراده ٣ فرسخ ثم إلى رأس عين ٤ فرسخ ثم إلى الجارود
٥ فرسخ ثم إلى حصن مسلمه ٦ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى الرقة ٣ فرسخ . . .
فأما الطريق من بلد ذات الشمال إلى قرقيسيا وسنجار وطريق الفرات فمن بلد إلى تل أعفر
٥ فرسخ ثم إلى سنجار ٥ فرسخ ثم إلى عين الجبال ٥ فرسخ ثم إلى سكير العباس
٩ فرسخ ثم إلى الغدين ٥ فرسخ ثم إلى ماكسين ٦ فرسخ ثم إلى قرقيسيا ٧ فرسخ . . .
وأما الطريق من الرقة الثغور فمن الرقة إلى عين الرومية ٦ فرسخ ثم إلى تل عبدا
٧ فرسخ ثم إلى سروج ٧ فرسخ ثم إلى المزنبة ٦ فرسخ ثم إلى سميساط ٦ فرسخ
ثم إلى حصن منصور ٦ فرسخ ثم إلى ملطية ١٠ فرسخ ثم إلى كخ ٤ فرسخ ثم إلى
زبطره ٤ فرسخ ثم إلى الحدث ٤ فرسخ ثم إلى مرعش ٥ فرسخ .

الطريق من الرملة إلى مصر

قدامة

من الرملة إلى ازدود ١٢ ميل
ثم إلى غزة ٢٠ ميل ثم إلى رفح ١٦ ميل
ثم إلى العريش ٢٤ ميل ومن العريش
يفترق إلى اثنين : طريق الجفار من
العريش إلى الورداء ١٨ ميل ثم إلى
البقارة ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل .
وأما طريق الساحل فمن العريش إلى

ابن خرداذبة

من الرملة إلى ازدود ١٢ ميل
ثم إلى غزة ٢٠ ميل ثم إلى رفح ١٦ ميل
ثم إلى العريش ٢٤ ميل ثم إلى الورداء
١٨ ميل ثم إلى الثعامة ١٨ ميل ثم إلى
العذيب ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل
ثم إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى الفاضرة
٢٤ ميل ثم إلى مسجد قضاءه ١٨ ميل

ابن خرداذبة

ثم إلى بلبس ٢١ ميل ثم إلى القسطنطينية ٢٤ ميل .

قدامة

المخلصه ٢١ ميل ثم إلى القصر ٢٤ ميل
ثم إلى الفرما ٢٤ ميل ومنها طريق
الصيف إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى
فاقوس الفاضرة ٢٤ ميل ثم إلى مسجد
قضاة ١٨ ميل ثم إلى بلبس ٢١ ميل
ثم إلى مصر ٢٤ ميل . ومنها طريق
الشتاء إلى المرصد ومن المرصد إلى
الفاضرة ٣٤ ميل .

سادسا : الطريق من القسطنطينية إلى برقة وأفريقية والغرب :

ابن خرداذبة وقدامه . من القسطنطينية إلى الإسكندرية من القسطنطينية إلى ذات السلاسل
٢٤ ميل ثم إلى مرنوط ٣٠ ميل ثم إلى كوم سويد ٢٢ ميل ثم إلى الرافقة ٢٤ ميل
ثم إلى قرسطا ٣٠ ميل ثم إلى كربون ٢٤ ميل ثم إلى الإسكندرية ٢٤ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه : من الإسكندرية إلى برقة . من الإسكندرية إلى نونيه
٢٠ ميل ثم إلى ذات الحمام ١٨ ميل ثم إلى جنة الروم ٣٤ ميل ثم إلى الطاحونة ٣٠ ميل
ثم إلى كنائس الجون ٢٤ ميل ثم إلى جب العوسج ٣٠ ميل ثم إلى سكة الحمام ٣٠ ميل
ثم إلى قصر الشمس ٢٥ ميل ثم إلى خربة القوم ١٥ ميل (٢٥ قدامه) ثم إلى خرائب
أبي حليمه ٣٥ ميل ثم إلى العقبة أو المسقية ٢٠ ميل ثم إلى مرج الشيخ ٢٠ ميل
ثم إلى جب عبد الله ٣٠ ميل ثم إلى جباد الصغير ٣٠ ميل ثم إلى جباب الميدان ٣٥ ميل
ثم إلى وادي مخيل ٣٥ ميل ثم إلى جب حلمان ٣٥ ميل ثم إلى وادي المغار ٣٥ ميل
ثم إلى ناكيس ٢٥ ميل ثم إلى البدان ٢٥ ميل ثم إلى برقة ٦ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه . من برقة إلى طرابلس : من برقة إلى ملتنيه ٢٥ ميل
(١٥ قدامه) ثم إلى قصر العسل ٢٩ ميل ثم إلى أبوان ١٢ ميل ثم إلى سلوق ٣٠ ميل
ثم إلى برمست ٢٤ ميل ثم إلى بلبو ٢٠ ميل ثم إلى اجدايه ٢٤ ميل ثم إلى حى نجوه
(حرفن) ٢٠ ميل ثم إلى سبخه منهوسا ٣٠ ميل ثم إلى قصر العطش ٣٤ ميل
ثم إلى اليهوديتين ٣٤ ميل (٢٤ قدامه) ثم إلى قصر العبادى ٣٤ ميل ثم إلى سرت
٣٤ ميل ثم إلى القرنين ١٣ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى قصور حسان ٣٠ ميل ثم إلى

النصف ٤٠ ميل ثم إلى تورغا ٢٤ ميل ثم إلى دعوعا ٢٠ ميل ثم إلى ونداسا ١٨ ميل
ثم إلى المجتني ٢٢ ميل ثم إلى وادي الرمل ٢٠ ميل ثم إلى طرابلس ٢٤ ميل .
ابن خردادبه وقدامه . من طرابلس إلى القيروان : من طرابلس إلى برة ٢٤ ميل
ثم إلى بئر الجمالين ٢٠ ميل ثم إلى قصر الزرق ٣٠ ميل ثم إلى بادريخت ٢٤ ميل ثم إلى
النوارة ٣٠ ميل ثم إلى قابس ٣٠ ميل ثم إلى بئر الزيتونة ١٣ ميل (١٨ قدامه)
ثم إلى كبابه ٢٤ ميل ثم إلى السكس ٣٠ ميل ثم إلى القيروان ٢٤ ميل .
ابن خردادبه . من القيروان إلى قرطبة : من أفريقية (القيروان) إلى تونس
مرحلتان على البغال وبين تونس وبين الأندلس أرض البحر وهو هناك ٦ فراسخ
ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة ٦ يوم .

٣ — السكك :

يقول Sprenger^(١) أن كلمة سكة مستمد معناها من كلمة حارة (طريق) وأن التعبير
العربي والرسمي عن كلمة محطة البريد هو « سكة — والجمع سكك » . وكانت المسافة
بين محطة وأخرى يطلق عليها رسمياً كلمة سكة^(٢) . أما التعبير الشائع المستعمل بين الناس
فكانت كلمة بريد . أما في مصر فكانت محطات البريد تسمى مراكن البريد وقد عرفها
القلقشندي^(٣) بأنها الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريد فيها
فرساً بعد فرس . أما مؤرخو العرب فأطلقوا عليها كلمة منازل . من ذلك ما ذكره الطبري^(٤)
عن المنصور أنه لما دخل آخر منزل نزل من طريق مكة نظر في صدر البيت الذي نزل
فيه فإذا فيه مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم .

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من حر المنية مانع
فدعا المنصور بالمتولى لإصلاح المنازل فقال له ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من
الدعاة ، قال يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها فقال اقرأ ما في صدر
البيت مكتوباً . قال ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين . فدعا برئيس الحجابة فقال اقرأ ما على
صدر البيت مكتوباً . قال ما أرى على صدر البيت شيئاً . فأملى البيتين فكتباه عنه ،

(١) مقدمة Sprenger .

(٢) في لسان العرب (ج ٤ ص ٥٣) السكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة
أو رباط وكان يرتب في كل سكة بغال وبعد ما بين السكتين فرسخان وقيل أربعة .
(٣) القلقشندي ج ١٤ ص ٢٧٢ .
(٤) الطبري مجلد III ج ١ ص ٤٤٩ .

فالتفتا إلى صاحبه فقال اقرألى آية من كتاب الله جل وعز تشوقنى إلى الله عز وجل فقرأ
بسم الله الرحمن الرحيم «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» . فأمر به فوجى فسكاه
وقال ما وجدت شيئا تقرأه غير هذه الآية ، فقال يا أمير المؤمنين محى القرآن من
قلبي غير هذه الآية ؛ فأمر بالرحيل عن ذلك المنزل تطيرا مما كان وركب فرسا فلما كان فى
الوادى الذى يقال له سقر ، وكان آخر منزل فى طريق مكة كبا به فرسه فدق ظهره ومات
فدفن بيئر ميمون يفهم من هذا أن طريقة العرب كانت عبارة عن تقسيم كل
طريق إلى محطات أو مواقف أفراس أو هجن فيستبدل عمال البريد أفراسهم بأفراس
مستريحة فى كل موقف التماسا للسرعة^(١) . وهذا الموقف ورد فى كتبهم تحت اسم
«السكة» وقد بلغ عدد هذه السكك أيام الإمبراطورية العباسية ٩٣٠ سكة كما ذكر
علماء المسالك^(٢) . وإلى القارىء إحصاء رسمى عن أماكن سكك البريد وطرقه ، ولو أنها
لا تخلو من بعض التكرار كما وصلتنا عن اثنين فقط من جغرافى القرن الثالث الهجرى
وهما ابن خرداذبه وقدامة :

سكك طريق المشرق

ابن خرداذبة : من سرى من رأى إلى الدسكرة ١٢ سكة ومن بغداد إلى الدسكرة
١٠ سكة ثم إلى جلولا ٤ سكة ثم إلى حلوان ١٠ سكة ثم إلى نصير آباد ٩ سكة ثم إلى
قرمسين ٦ سكة ، ثم إلى خردان ١٠ سكة ، ثم إلى همدان ٣ سكة ، ثم إلى مسكرجه
٢١ سكة ، ثم إلى الرى ١١ سكة ، ثم إلى قومس ٢٣ سكة ، ثم إلى نيسابور ١٩ سكة .

قدامة : من بغداد إلى دسكرة ١٠ سكة ، ثم إلى جلولا ٤ سكة ، ثم إلى حلوان ١٠ سكة
ثم إلى قصر آباد المحطة الأخيرة فى هذه المقاطعة ٩ سكة ، ثم إلى قرماسين ٦ سكة ،
ثم إلى جدار آخر محطة فى منطقة البريد إلى دينوار ١٠ سكة ، ثم إلى مدينة همدان ٣ سكة
ثم إلى مشكوبه آخر محطة فى مقاطعة همدان فى اتجاه الرى ٢١ سكة .

ابن خرداذبة : من سامرا إلى واسط على البريد ما يأتى :

من سامرا إلى عكبرة تسع سكك ومنها إلى بغداد ٦ سكك ومنها إلى المدائن ٣ سكة ،
ثم إلى دير العاقول ٤ سكة ، ثم إلى جرجرايا ٨ سكة ، ثم إلى جبل ٥ سكة ، ثم إلى واسط

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٢ — Cambridge Med. Hist. Vol 4P. 283

(٢) ابن خرداذبه ص ١٥٣ — وما ذكرناه من سكك فهى عنه ولا داعى لتكرار اسمه
وصفحات الكتاب .

٨ سكة — ومن بغداد الى واسط ٢٥ سكة ، (١٤٠) وبين واسط والحدود من الأهواز ٢٠ سكة ، ثم الى نوبندجان ١٧ سكة ، ثم الى شيراز ١٢ سكة ، ثم الى اصطخر ٥ سكة .

قدامة : من بغداد الى المدائن ٣ سكة ، ثم الى جرجرايا ٨ سكة ، ثم الى سكة جبل ٥ سكة ، ثم الى واسط ٨ سكة ، ثم الى سكة باذيين ٣ سكة ، ثم الى ديرمانيه في نهاية شواطىء الدجلة نحو الأهواز ١٣ سكة ، ثم الى نهر تبرين ٤ سكة ، ثم الى سوق الأهواز ٣ سكة ، ثم الى البرجان آخر محطة في هذه المقاطعة من الأهواز ١٤ سكة ، ثم من الرجان لغاية سكة الرجان سكة واحدة ، ثم من سكة الرجان لغاية نوبندجان ١٧ سكة ، ثم الى شيراز ١٢ سكة ، ثم الى اصطخر ٥ سكة — وسكك طريق العادل من بادس الى البصرة فيه فيوج مرتبون ومن بادس الى عبدس ٥ سكة ، ومن عبدس الى سكة المدار ٨ سكة ، ومن المدار الى البصرة وكانت فيها دواب البريد ٣ سكة — السكك على الطريق الى بادس من البصرة من بادس الى ٥٠٠٠٠ سكة ثم الى سكة من دار (١) ١٨ سكة ثم الى البصرة ٣ سكة وكان بها خيول لحمل البريد .

قدامة : من حلوان حتى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان حتى مدينة السيروان ٦ سكة ، ثم الى سرسميرة ٤ سكة ثم الى دينور سكتين ثم الى زردجرد على حدود دينور في الطريق الى زنجان ١٨ سكة ومن سكة زردجرد الى زنجان ١١ سكة — ومن زنجان الى المراغة ١١ سكة ومن المراغة الى اليانج سكتان ، ثم الى أردبيل ١١ سكة ومن سكة ورتان آخر نقطة من أعمال أذربيجان ١١ سكة ، ومن سكة ورتان الى مدينة برذعة ٨ سكة ، ومن سكة برذعة الى المنصورة ٤ سكة ، ومن برذعة الى مدينة التوكلية ٦ سكة ومن التوكلية الى تفليس ١٠ سكة ، ومن البرذعة الى الباب والأبواب ١٥ سكة ، ومن برذعة الى وايل ٧ سكة .

ابن خرداذبه . من حلوان الى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان الى شيروان ٧ سكة ومن حلوان الى الضيمرة ٤ سكة .

ابن خرداذبه : الطريق الى أذربيجان وأرمينية . من سرسميرة الى الدينور ٢ سكة ومن الدينور الى زنجان ٢٩ سكة ثم الى المراغة ١١ سكة ثم الى اليانج ٢ سكة ثم الى أردبيل ١١ سكة ثم الى ورتان وهي آخر عمل أذربيجان ١١ سكة — ومن ورتان الى برذعة ٨ سكة ثم الى المنصورة ٤ سكة ومن برذعة الى تفليس ١٠ سكة ومن البرذعة الى الباب والأبواب ١٥ سكة ومن البرذعة الى دايل ٧ سكة .

قدامه وابن خرداذبه : الطريق نحو نهاوند من مديان في جيبت من دينوار إلى نهاوند ٣ سكة .

قدامة: سكك الطريق العادل إلى قم وأصبهان . من الزرقاء إلى قم ٣ سكة ومن قم إلى
أصبهان ٤٧ فرسخ ومن قم إلى سكة الرود آخر عملها مما يلي أصبهان ١٣ سكة والطريق
العادل من الدكان إلى قزوين من دكان إلى قزوين سكة .

ابن خرداذبه : من حمدان إلى قم ٤٧ سكة ومن الورقاء إلى قم ٣ سكة ومن قم إلى
أصبهان ١٦ سكة ومن مادران إلى نهاوند ٣ سكة .

سكك طريق المغرب

قدامة : من بغداد إلى البروان ٢ سكة ثم إلى عكبرة ٤ سكة ثم إلى سامرة ٧ سكة
ثم إلى جبلتا ٧ سكة ثم إلى السن ١٠ سكة ثم إلى الحديثة ٩ سكة ثم إلى الموصل ٧ سكة
ثم إلى بدء بلد جبت ١ سكة ثم إلى حدود مقاطعة الموصل حتى سكة بلد ٣ سكة
ومن بلد حتى أذرمة ٩ سكة ثم إلى نصيبين ٦ سكة ثم إلى كفرنوتا ٣ سكة ثم إلى
رأس عين ١٠ سكة ثم إلى الرقة ١٥ سكة ثم إلى النقيرة نهاية المقاطعة من دير نصر
١٠ سكة ومن النقيرة إلى منبج ٥ سكة ثم إلى حلب ٩ سكة ثم إلى قنسرين ٣ سكة ثم
إلى مبدأ مقاطعة حمص ١ سكة . ومن سكة المرج وهي أول سكة تلي عمل قنسرين إلى
حوران ٧ سكة ثم إلى حماة ٢ سكة ثم إلى حمص ٤ سكة ثم إلى الحمضية ٤ سكة ثم إلى
بعلبك ٥ سكة ثم إلى دمشق ٩ سكة ثم إلى دير أيوب في نهاية هذه المقاطعة ٧ سكة ومن
دير أيوب إلى طبرية ٦ سكة ثم إلى اللجون في مقاطعة الأردن ٤ سكة ثم إلى الرملة
قصة فلسطين ٩ سكة ثم إلى سكة المغينة آخر عمل فلسطين ٩ سكة ثم إلى نهاية الطريق
من جنار حيث تقع سكة البارورية ١٧ سكة .

ابن خرداذبه : من سامرا حتى جبلتا ٧ سكة ثم إلى السن ١٠ سكة ثم إلى الحديثة
٩ سكة ثم إلى الموصل ٧ سكة ثم إلى بلد ٣ سكة ثم إلى أذرمة ٩ سكة ثم إلى نصيبين
٦ سكة ثم إلى كفرنوتا ٣ سكة ثم إلى رأس العين ١٠ سكة ثم إلى الرقة ١٥ سكة
ثم إلى النقيرة آخر عمل ديار مضر ١٠ سكة ثم إلى مانبج ٥ سكة ثم إلى حلب ٩ سكة
ثم إلى قنسرين ٣ سكة ثم إلى صور ١٠ سكة ثم إلى حماة ٢ سكة ثم إلى حمص ٤ سكة
ثم إلى خرشنة ٤ سكة ثم إلى بعلبك ٦ سكة ثم إلى دمشق ٩ سكة ثم إلى دير أيوب ٧ سكة
ثم إلى طبرية قصة الأردن ٦ سكة ثم إلى اللجون ٤ سكة ثم إلى الرملة وهي قصة فلسطين
٩ سكة ثم إلى الجفار ١٧ سكة ثم إلى البارورية ١٧ سكة .

ابن خرداذبه وقدامة : من القسطنطينية إلى الاسكندرية ١٣ سكة ثم إلى جب الرمل
على الطريق إلى برقة ٣٠ سكة .

قدامة : سكك طريق العادل من منبج إلى الثغور الشامية . من حلب إلى قنسرين
٧ سكة ثم إلى أنطاكية ٤ سكة ثم إلى اسكندرونه ٤ سكة ثم إلى المصيصة ٧ سكة ثم إلى
أطنه ٣ سكة ثم إلى طرسوس ٥ سكة ومن المصيصة إلى عين زربه ٢ سكة — الطريق
من طبرية إلى صور ٧ سكة .

ابن خرداذبة : الطريق من حلب إلى الثغور الشامية . من حلب إلى قنسرين
٧ سكة ثم إلى أنطاكية ٤ سكة ثم إلى الاسكندرونه ٤ سكة ثم إلى المصيصة ٧ سكة ثم إلى
أذنه ٣ سكة ثم إلى طرسوس ٥ سكة .

قدامة : الطريق العادل من نصيبين أرزن وخلاط . من نصيبين إلى مدينة أرزن
١١ سكة ومن بدليس إلى خلاط ٤ سكة .

الطريق العادل من كفر توتا إلى سميساط . من كفر توتا إلى آمد ٧ سكة ومن آمد
إلى تل جوفر سكتان ثم إلى سميساط ٦ سكة ثم إلى قاليقلا ٢ سكة .

الطريق العادل من ديار مضر إلى طريق الفرات . من الرقة إلى سكة ديار آخر
عمل ديار مضر ٩ سكة .

الطريق العادل من حصن مسامة إلى الثغور الجزرية على حران والرها من الحصن
إلى حوارن ٣ سكة ومن حران إلى الرها ٢ سكة ومن الرها إلى سميساط ٣ سكة ومن
سميساط إلى حصن منصور ٢ سكة .

ابن خرداذبة : سكك اليمن . بين غمره وصنعاء ٩ سكة ومن صنعاء إلى ذمار
٤ سكة وبين ذمار وعدن ٧ سكة وبين زمار والجند ٤ سكة وبين صنعاء ومأرب ٧ سكة
وبين مأرب وعبدل وهي حضرموت على الإبل ٩ سكة .

قدامة : هذه السكك رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسماً للبريد .
هذه سكك البريد التي قال عنها شبرنجر^(١) أنها لم تكن أفضل منها في عهد الأتراك ،
فلم يكن الإنسان يستطيع البقاء فيها طويلاً ، ولم تكن تتألف إلا من سقيفة صغيرة من
القش ، ومن شجرتين يستظل تحتها زوج من الخيول أو البغال . وهذه السقيفة المغطاه
في حقيقة الأمر مفتوحة من ثلاث جهات وإلى جوارها بعض العشش حيث يسكن
الأشخاص الذين يعتنون بالدواب . وعلى الرغم من أن ابن خرداذبة^(٢) تحدث عن محطات
البريد المزودة بالخيول فإنه لا يزال هناك محل للظن بأن هذه كانت وقفا على الأشغال

(١) مقدمة Sprenger ص ٢ ، ٣

(٢) ابن خرداذبة ص ٢٢٥ ، ٢٢٦

الهامة التي تستخدم بريدا خاصا ، وإلا فإنه في بلاد فارس بصفة خاصة قلما كان الخطاب فيها ينقل من محطة بريد إلى أخرى بواسطة خيل متجددة . نستنتج من هذا أن الأستاذ المستشرق ينكر بصراحة العبارة وجود نظام ثابت للبريد إلا أن يكون هناك خطاب من الدرجة الأولى من الأهمية موجهها من الخليفة أو بأمره أو بأمر وزيره إلى ناحية من النواحي ، أو أن يكون هناك خبر في منتهى الخطورة يراد إبلاغه للخلافة . فهنا وهنا فقط ينقل الخطاب من محطة إلى محطة بواسطة خيول تتجدد في كل مرحلة . وفيما خلا هذه الأحوال الخاصة القليلة فلا محل للقول بوجود نظام كامل ثابت للبريد بأكثر مما عليه الحال في الهند المتخلفة والإمبراطورية العثمانية التي كانت في حالة الذبول .

وإذا جاز الخطأ على ابن خرداذبه في المسألة المالية فاننا قد نصدق ذلك لأنه لم يكن هناك ميزانيات تنشر على رؤوس الأشهاد كما هو حالنا اليوم . أما كونه يشير إلى ما ورد عن ابن خرداذبه من وجود محطات للبريد بها الخيول الكثيرة . يشير إلى ذلك بكثير من الشك والافتراض فهذا أمر لا جدال يجب أن يصدق فيه المؤرخ العربي لأنه أمر يشاهد بالعين . وهو لم يكن يعرف أن أحدا سيجاول في مقبل الشرقيين أن ينكر وجود نظام كامل للبريد فيعمل على المغالاة والتضخيم . بل إن ابن خرداذبه ثقه في هذه الناحية لأنه كان موظفا للبريد بالذات وهذا الموضوع من أخص وظيفته . فالخيول كانت موجودة إذن ، ولو أنه من غير المعقول أن توجد في جميع المحطات أرقام ضخمة من الخيول . بل المعقول أن تكون هناك محطات رئيسية وأخرى فرعية وحسبي أن أشير إلى عبارة ابن خلدون^(١) وقد سبق ذكرها في الفصل الثاني « فابعثني على أربعين من دواب البريد ، وأبعث إلى كل يوم أربعين رجلا مددا . . . »

هذه النص يدلنا على أن قائله أراد أن يبادر إلى ميدان القتال بأسرع ما يمكن فلم يكن أمامه إلا أن يستخدم أسرع الوسائل في ذلك الوقت ، فاقترح دواب البريد أو بالأحرى أن يكون انتقاله على أسلوب نظام البريد . إذ لو كان الأمر مجرد خيول عادية وانتقال عادي لما كان الأمر يأخذ صورة النجدة به ولا معنى لتخصيصه بأربعين ، فلا جدال أن الدولة تستطيع أن تجهز فورا مائتي أو ألف فارس أو أكثر يسافرون فورا ، وإنما اقتصر على أربعين من دواب البريد لأنه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا العدد من الخيول المجهزة للبريد في المحطات المختلفة . وإذن فنحن أمام نص يدلنا على أن قوافل البريد السريعة كان ينقل عليها فرق صغيرة من الجيش يبلغ عددها أحيانا الأربعين . . .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٨٩ .

وقد زاد عدد الخيول المجهزة عن الأربعين فكان في بعض المحطات أيام تيمورلنك^(١) مائة رأس ، وفي غيرها أكثر من ذلك حتى إذا أراد تيمور أن يعود مسرعا وجد في المحطات ما يحتاجه من الخيل القوية السريعة . فالحال لم يكن مجرد عشه صغيره بها زوج من الخيول كما تصور حضرة المستشرق بل أكثر من هذا أنشئت المصانع وخزانات المياه في بعض الطرق الرئيسية . ففي سنة ١٦١ هـ أمر الخليفة المهدي^(٢) باتخاذ المصانع في طريق مكة وتجديد الأميال والبرك وبحفر الركايا . . . ويظهر من بعض الأخبار التي تؤيدها الآثار أنه كان لدمشق مركز مهم لبريد العرب حتى أنه بقي اسمه إلى الآن مطلقا على أشهر محل من المدينة وهو باب البريد^(٣) .

شاهد المقدسي^(٤) هذا الباب وقال عنه « ويدخل العامة إلى محراب الجامع الأموى من أربعة أبواب . باب البريد عن اليمين كبير له فرخان عن يمين وشمال على كل واحد من الباب الأعظم . وللفرخين مصراعان مصفحة بالصفير المذهب ، وعلى الباب والفرخين ثلاثة أروقة كل باب منها يفتح إلى رواق طويل » .
وقيل سبب تسمية هذا المحل باسم البريد أنه كان مركزه فيه أيام العرب ، وقيل بل لأن البريد كان يمر منه^(٥) .

(٤) الرباطات^(٦) : تقول الرواية التاريخية^(٧) أن المسافرين على الطريق في بلاد فارس يجد ما يسمى « رباطا » فعند ما يحط المسافر رحاله في أحد هذه الأربطة فإن أول ما يفعله هو أن يدق له وتدا في الأرض يربط به حبلا وإلى هذا الحبل يعلق المسافر حيوانه أو دابته فيربط إحدى أرجلها الخلفية إليه . ومن هنا سمي هذا المكان حيث يربط الحيوان «رباطا» وقد تطور معنى هذه الكلمة ، وتوسع فيها فأصبحت تطلق على المراكز العسكرية حيث تقف الجنود لمواجهة العدو لمدة معينة أو على سبيل الدوام والاستمرار

La vie de Tamerlan P. 157 (١)

(٢) أبو الفداء ج ٢ ص ٤٣ . (٣) الطائر الفريد ص ٢٢ و ٢٣ .

قال الشاعر : ما بين جانيها وباب بريدها قر يغيب وألف بدر يطلع

(٤) المقدسي ص ١٥٨ . (٥) الطائر الفريد ص ٢٢ و ٢٣ .

(٦) للرباطات علاقة بموضوع البريد لأنها قامت بعمل السكك تماما في الجهات التي لم يكن بها سكك ، إذ كانت تجد بها أماكن للاستراحة وخزانات المياه ، كما أنها قامت بالمحافظة على الأمن ومراقبة الطرق . وهذا كله يساعد بطبيعة الحال عمال البريد على اجتياز الجهات الموحشة لتأدية وظائفهم . ويظهر أنها كانت شائعة في الجهات الصحراوية وعلى الحدود الشرقية الشمالية والشرقية .

(٧) المقدسي ص ٦٦ .

لاتقاء شره ومراقبة حركاته^(١). ويؤيد هذا المعنى ما ورد على لسان القرآن خاصة بقتال النبي مع الكفار « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . »^(٢) ويسمى الجنود القائمون على هذا الأمر في هذه النقطة مرابطين . « يا أيها الذين آمنوا صبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »^(٣) وقد خص المؤرخون^(٤) بلاد فارس بالأربطة نظرا لاتساعها وكثرة القلاقل التي تسودها والتي زادت شر اللصوص خصوصا في الصحراء الواقعة بين يزد وطبس . وكان عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) أول من أقر الأمن في هذه الربوع ، ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص ، واستبدال غيرها بها بين الحين والحين ، لتستطيع القوافل المسافرة في حراسة الحكومه اجتياز هذا الإقليم آمنة . وحوالي منتصف القرن الرابع الهجري ابتنى عضد الدولة محفرا معه خزان للماء العذب . وقد وصفه المقدسي^(٥) بقوله « رباط آب شتران هو معدن الخوف ومأوى الكوج ، به قناة عذيبه تصب إلى بركة ، والرباط حسن ، مارأيت أحسن منه بيلدان الأعاجم ، من الحجارة والجص على عمل حصون الشام ، وعليه ابواب حديد ، وهو شديد العبارة ، وفيه قوم يحفظونه ، بناء ابن سيمجور صاحب جيش ملك الشرق » ولكن إنشاء هذا المحفر لم يؤمن الطريق . فالمقدسي نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة في سبعين يوما مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخا بتقديرا بن خرداذبة ، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها^(٦) ولأن الطريق كان — على حد قوله^(٧) — مخوفا من قوم يقال لهم القنص ، يسرون اليه من جبال كرمان ، قوم لاخلق لهم ، وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس وجلاده ، لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تقتل الحيات ، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتصدع .

• (٢) سورة الأنفال

• (١) مقدمة Sprenger

(٣) سورة آل عمران . — وفي المصباح المنير (ج ١ ص ٢٩٣) الرباط ما يربط به القربه وغيرها والجمع ربط ، والرباط اسم من رباط مصاربة من باب قابل إذا لازم ثغر العدو ، والرباط الذي يبني للفقراء مولد ويجمع في القباس ربط ورباطات وفي كتاب « الإدارة الإسلامية في عز العرب » ذيل ص ٢٠ . المراقبة . أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره . وكل مستعد للقاء صاحبه فكانوا يربطون أي يقيمون على جهاد عدوهم بالحرب ومصرابات المسلمين مواضع خباهم المراقبة والمراقبة هم الجماعة رباطوا . (٤) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٥٣ . (٥) ص ٤٨٨ . (٦) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٥٤ . (٧) المقدس ص ٤٨٨ .

استخدمت هذه الخفافر التي تبنى في الطرق الصحراوية رباطات للزهاد ، وفي الوقت نفسه حصون عسكرية للجند ، وكثير عددها بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد . ويذكر الاصطخري^(١) أنه يوجد بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها إذا أنزل النازل أقيم له علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك .

والحق أن شرق المملكة الإسلامية أكرم من غربها ، فيحدثنا ابن حوقل^(٢) مثلاً أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات ووقف على مصالحها بقرا سائمة ، وجعل عليها قوامين يخلبونها ، ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها وما من رباط إلا فيه المائة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه . ويؤيد ذلك ما شاهدته الاصطخري^(٣) إذا يقول . وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف مرتباتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبل الجاه ووجوه الخير إلا القليل منهم . وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية أهله إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طريقه وكذلك كانت توضع جباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق وربما حمل إليها الماء من بعيد^(٤) . ويذكر الاصطخري^(٥) أيضاً أن رباط أبي علي ابن رستم يسكنه رجاله على النوب وهو منزل للمارة وله ماء جار من قرية بالقرب منه إلى حوض في الرباط . ويختار أهل القرى بفارس من بين أنفسهم رجلاً مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية ويسمونه الجزير^(٦) . وفي البلاد التي كانت نصرانية من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين ، وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلباً الراحة . إذ يوجد بدير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات ، ودير باعربا إلى الشمال من ذلك أما كن خاصه لتضييف المسافرين^(٧) . الذين من أجلهم بنيت المساكن بكثرة في بعض الأربطة . بلغت في إحداها عشرين مسكناً ، وفيه ماء وعليه رحي صغيرة ، وبالرباط زرع ونخيل ومراع^(٨) . ريذكر بعض الرحالة أنه رأى على مقربة من بحيرة وان بأرمينية طريقاً على امتداده عمد مقامه على الأرض ليسير المسافرون

(١) ص ٢٩٠ . (٢) ابن حوقل ص ٢٠٨ . (٣) الاصطخري ص ٢٩٠ .

(٤) القدس ص ٤١٦ . (٥) الاصطخري ص ٢٢٩ .

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٨) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٤٥ .

أيام المطر والضباب بهديها . كما أقيمت في الطريق الذي بين نفراوه وقسطيليه خشب
يهتدى المسافرون بها لكيلا يضلوا في الأرض السواخه التي بين هذين البلدين^(١) .
انتهينا من فصل الطرق وما يتعلق بها من سكك ورباطات ، ولا بد من أن
نتذكر — لنعرف قدر تلك الطرق — العقبات الطبيعية والحوادث الجغرافية من أنهار
وجبال وهضاب إلى صحارى وغابات ومستنقعات ، وكلها كانت حجرة عثرة في شق تلك
الطرق ، ولكن المتخصصين في بنائها تغلبوا عليها فرفعوا أرضا وخفضوا أخرى ،
واجتازوا نهرا ، واخترقوا جبلا^(٢) وإني أعتقد أن الأمريكيين والإنجليز
يتشبهون في حربهم الحالية^(٣) بالعرب فيما يتعلق بالطرق ؛ فطرقهم بصحراء ليبيا وإيران
المقسمة إلى أشواط وفي آخر كل شوط استراحه وعمال للصيانة ، ما هي إلا صورة
لما كانت عليها أيام العباسيين غير أن السيارة حلت محل الحصان والسائق حل محل
الفارس . فكما كان عامل البريد يستبدل فرسه بآخر مستريح ، ويأكل وينام بسكة
البريد كذلك يفعل السائق ، يقطع شوطه بالسيارة ثم ينزل ليأكل وينام ثم يركب
سيارة فارغة ليعود إلى قاعدته — أما السيارة التي بدأ بها الشوط منذ حين فتفحص
فحصا سريعا ثم تنطلق مزودة بالوقود يقودها سائق جديد وهكذا حتى تصل إلى
نهاية الخط .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) يقول الأستاذ آدم مترز (ج ٢ ص ٣٤٣) أن جنكيزخان أنشأ طريقا يخترق جبال تيان
شان جنوب بحيرة صيرم ، أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تنسج كل منها لعربتين تسيران متعاضيتين .

(٣) الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) .

الفصل الخامس

البريد في مصر الإسلامية

المعروف أن العرب بعد أن تم لهم فتح الشام سنة ٢١ هـ استأذن قائدهم عمرو بن العاص الخليفة عمر في فتح مصر ، ولسنا في صدد الكلام عن هذا الفتح ، وهل كان صلحا أم عنوة ، وهل حدث في سنة ١٦ هـ أو عشرين هـ أو ٢٥ هـ على رأى . فهذا موضوع يحوطه الغموض ، واختلفت في الحكم عليه الروايات ، ولا يزال في حاجة إلى عرض جديد وتصفية جديدة . . . والمعروف أيضا أن مصر ظلت خاضعة للرومان مدة تزيد على الستة قرون شاهدت في خلالها تشكيلات حكومية متباينة ، تخضع كلها في جوهرها لقواعد الحضارة الرومانية وقد قدر للمصريين أن يهضموا من تلك القواعد ما يتفق وروحهم وتقاليدهم . . . فلا غرابة إذن أن نرى معظم هذه القواعد معمولاً بها حتى بعد الفتح العربي ، فالعرب قد فطنوا من أول الأمر إلى أنه يوجد بمصر نظام إداري مستقر من قديم الزمان وإدارة مالية محكمة .

فأحسنوا في الاحتفاظ بهذه النظم الإدارية والمالية مع تعديل يسير في بعض الأحوال ويفهم من الوثائق^(١) أن نظام البريد كان من أهم تلك النظم الرومانية الموروثة بفسطاط مصر وكثيرا ما عولت حكومة الفسطاط على عمال البريد في الأخبار التي ترد إليها من المديرية عن تحصيل الضرائب الأميرية هناك .

(١) البريد المصري من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠ - ٦٥٦ هـ) :

لكي نفهم هذه الفترة يحسن أن نقسمها إلى ثلاثة مراحل : المرحلة الأولى من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ وفيها امتازت مصر بأنها كانت ولاية عربية بمعنى الكلمة يوم أن كان يحكمها وال من قبل الخليفة ، فلم يكن له شخصية دولية بالمعنى القانوني اليوم . . . والمرحلة الثانية هي المرحلة التي تمتعت فيها مصر بصفة الدولة المستقلة استقلالاً لا يكاد يكون تاماً . ولم يكن يربطها بالخلافة الإسلامية إلا السيادة الاسمية^(٢) فقط أيام الطولونيين

(١) Henri Iammens : Etudes sur le Siècle des O mayyades P. 314.

(٢) مظاهر هذه السيادة كانت ممثلة في ذكر اسم الخليفة في الخطبة وعلي السكة وفي دفع الجزية

سنوياً لدار الخلافة .

(٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) والأخشيديين (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ثم الأيوبيين أخيرا (٥٦٧ - ٦٥٦ هـ) وكانت الغلبة في هذه المرحلة للعنصر التركي بطبيعة الحال . فعلى الرغم من استقلال هذه الأسر بمصر إلا أن عمداها كانوا حريصين على الحصول على تفويض شرعى من الخلافة كي تقرهم حكما على مصر . . . والمرحلة الثالثة هى المرحلة التى شطرت المرحلة الثانية شطرين جاءت بعد الأخشيديين وقبل الأيوبيين وعرفت بعصر الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) وفيها تمتعت مصر بالاستقلال التام واعترفت الدبلوماسية المعاصرة وقتذاك بشخصيتها الدولية .

في الواقع تاريخ البريد في هذه الفترة يمكن أن أضفه بالبر لما يحيطه من الغموض واللبس ، فتارة أثير على إشارة عابرة من كلمة أو كلمتين يرد فيها ذكره ، وأخرى ينضب معينه ويحذف تماما ، وعلى ضوء هذه الشذرات ، وبقدر ما وصلنى من مادة مبعثرة هنا وهناك حاولت جهد طاقى أن أخفف من حدة هذا الغموض . فمثلا في المرحلة الأولى من عهد الفتح يشير التاريخ^(١) في سياق حديثه عن سياسة الولاة إزاء أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق ، يشير إلى حذرهم في تأمين أهل الذمة على تنفيذ سياسة جمع الجزية بالعدل والطمأنينة ، مستعينين في ذلك بصاحب البريد الذى عهد إلى عماله في الأقاليم بمراقبة الجهات الضرائب للحيولة دون تعسفهم مع أهل الذمة .

وفي نهاية هذه المرحلة تقريبا نلاحظ تطورا في سياسة عامل البريد في مصر ، إذ نراه فجأة يزج بنفسه في تيار النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين ، فعلى الرغم من تبعية « واضح » عامل بريد مصر^(٢) لصاحب البريد في بغداد وكونه مسئولا أمامه إلا أنه يقدم أدوات البريد من دواب ورجال لأحد الخارجين على الخليفة الهادى وهو إدريس بن عبد الله عند مروره بمصر في طريقه إلى بلاد المغرب ، يضع واضح أدوات البريد تحت تصرف إدريس فيستخدمها ليحارب الدولة في بلاد المغرب فينجو بنفسه ويؤسس حكما مناوئا للعباسيين هناك ، وقد دفع واضح ثمن هذه الخيانة غاليا على النحو الذى ذكرناه في الفصل الثانى .

وفي بداية المرحلة الثانية يلبس البريد المصرى لباس القومية ويتوق إلى الانفصال عن إدراته العليا في بغداد ، وذلك في وقت قبضت العناصر غير العربية على ازمة الأمور في بغداد وفي الولايات . ونمت في الأخيرة روح التمرد والانفصال ، وتجات بنوع خاص

(١) Etudes sur le Siècle des 6mayades P. 314.

(٢) المقدسي ص ٢٤٤ — الطبرى مجموعة ٣ ج ٢ ص ٥٦٠ .

في مصر ، فابن طولون أراد الاستفادة من مركز مصر الجغرافي وبالتالي من إدارة البريد في تحقيق أطماعه الشخصية ، وكانت الظروف طوعية أمره فينجح في تعيين أحد صنائعه صاحباً للبريد^(١) في الحضرة الخليفة ، فيجىء بطبيعة الحال أكثر إخلاصاً له من الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) ، و يترصد الكتب التي ترد من العناصر المعادية لابن طولون في مصر للإيقاع به عند الخليفة فيردها إليه ، ويعرف ابن طولون أصحابها ويراقبهم مراقبة دقيقة ، ثم يفتك بهم ، وما زال على هذا الحال حتى طهر مصر من أعدائه واطمأن بفضل الجاسوسية التي أقامها في بغداد لحسابه ، على أن الأمور لم تهدأ بالنسبة لابن طولون عند هذا الحد فسرعان ما تشتد العاصفة وتعمل على اقتلاعه من من ولاية مصر لولا سهر عمال بريده واعتماده عليهم ، فلما وقع الجفاء بين الموفق طلحة وابن طولون في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) كتب الأول إلى قواد مصر ليفسدهم على ابن طولون ، ولكن كتب القواد وقعت في يد ابن طولون وزادته توكيداً في عدااء الموفق له . وتفنن كلاهما في التنكيل والكيّد بالآخر . وحفظ لنا المقرئى^(٢) الكتب المتبادلة بينهما وكلها تدل على العدااء المر بين الرجلين . من ذلك ما يحكى عن الموفق أنه أرد أن يشغل قلب أحمد بن طولون فدس من سرق نعله من بيت حظية له لا يدخله إلا ثقاته ثم بعثها إليه . فقال له الرسول « من قدر على أخذ هذا النعل من الموضع الذى تعرفه أليس هو بقادر على أخذ روحك »^(٣) . فالموفق من ناحية يريد أن يشهر بسمعة ابن طولون لدى الخليفة ، ومن ناحية أخرى يريد أن يشعر ابن طولون بقوته وقدرته على الإبقاء عليه في مصر أو إخراجها منها .

ونزل ستار الرواية العدائية بين خمارويه بن أحمد بن طولون والموفق بهزيمة الأخير وعقد الصلح بين مصر وبغداد ، ومن شروطه زواج الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) من ابنة خمارويه (قطر الندى) وتغالى أبوها في جهازها مما حدا بنا إلى القول بأن هذا الزواج كان مسألة سياسية أريد من وراءها امتصاص ثروه مصر لإضعاف قوة آل طولون . ولا أدل على هذا من أن يأمر خمارويه بإدارة بريده بإعداد الطريق بين بغداد والقطائع على صورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ من قبل فيبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصرًا فخماً فيما بين مصر وبغداد . ثم تخرج قطر الندى مع عمها خزرج وصحب

(١) مصر في ظلال الحكم الإسلامى ص ٨٥ — تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) الخطط المقرئية ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) » » » » ١٨٠ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ١١٨ .

أبيها . فيسيرون بها سير الطفل في المهد ، ولذلك لم تعان شيئا من ألم السفر على بعد الشقة ، وكأنها في منازلها المختلفة لم تغادر بيت أبيها^(١) .

وأصاب بغداد من الإحن والكوارث في ظل سيادة البويهيين والسلاجقة ما جعل مادة المؤرخين عن البريد تنعدم انعداماً كلياً ، والمعروف عن السلطان السلجوقي ألب أرسلان أنه أبطل نظام البريد عند العباسيين ١٠٦٣ (٤٥٥ هـ)^(٢) ولم يحفظ لنا التاريخ في الكتب التي تناولتها شيئاً عن بريد الأخشدين . وظل حال البريد كذلك حتى أتت الدولة الزنكية فأعادت إنشائه وتنظيمه من جديد ودام الأمر كذلك أيام بني أيوب^(٣) ولكن على أية صورة أعيد تنظيمه وإنشائه ، هذا ما فشلت بحق في تحقيقه^(٤) وحتى الدولة الأيوبية نفسها لم تترك لنا آثاراً عن بريدها . وكما كانت دهشة عظيمة عندما تناولت كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتي وزير صلاح الدين الأيوبي . وأنا مشوق لإيجاد مادة خصبة فيه عن البريد فإذا بأملى يتبدد ويصبح ضرباً من ضروب الخيال عندما أراه يتحدث عن قوانين الدولة الإدارية والإقتصادية ولم يشر إلى كلمة البريد إطلاقاً . وكذلك كان الحال عند شهاب الدين في كتابه « الروضتين في تاريخ الدولتين » ثم تأتاني المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الفترة والتي عرفتها بعصر الفاطميين ، وكنت متوقفاً أيضاً مادة غزيرة في كتب هذا العصر ، فإذا بالبريد الفاطمي لم يكن أسعد حظاً من زميليه الإخشيدى والأيوبي . هذا على الرغم من استقلال مصر استقلالاً كلياً وانقطاع صلتها ببغداد واتصالها بالبلاطين البيزنطى في شرق البحر الأبيض المتوسط والأموى في غربيه ، ولم يشر أستاذى الدكتور حسن إبراهيم في كتابه « الفاطميون في مصر » وهو صورة صادقة للتطور التاريخي في هذا العصر إلى نظام البريد عندهم ، مع أنه تكلم بأسهاب عن حضارة الفاطميين ونظم حكمهم ، وليس معنى هذا أن الفاطميين لم يعرفوا قيمته ولم يعتنوا به ، وإنما سنرى في الفصل القادم اهتمامهم به من ناحية أخرى عن طريق الحمام الزاجل .

يستفاد من هذا أن بريد مصر ظل خاضعاً في إدارته لبغداد حتى استعمر أوار الفتن في أنحاء الامبراطورية وانتَهز ولاية مصر الفرصة وقطعوا صلتهم ببغداد ، وانفردت مصر ببريدها الخاص على أن هذا الانفراد أو إن صح الاستقلال لم يكن دائماً إلا في العهد

(١) مصر في ظلال الحكم الإسلامى ص ٩١ — تاريخ الإسلام السياسى ص ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) Sauvaget . (٣) التعريف ص ١٨٦ — القلقشندي ج ١ ص ٢٦٩ .

(٤) أشار Sauvaget ص ١١ إلى استخدام الأيوبيين للحمام الزاجل فقط وللأسعاف المشاة والإبل في الضرورات التي تستلزم سرعة نقل الرسالة .

الفاطمي وجزء من عهد الأسرة الطولونية . وما عداها فكانت هناك رابطة بين مصر
وبغداد . وقد فسر البعض هذا التحليل بقوله^(١) : فلما استقل الولاة بحكم مصر ألغوا
بريد الخلفاء وأنشأوا لأنفسهم بريدا خاصا كان ينقله السعاة المشاة ثم استخدم السعاة
الجمال إلى أن تولى الظاهر بيبرس حكم مصر سنة ١٢٦٠ م . فتيقظ إلى عظم الفائدة
التي يجنيها من ورائه ، فتوسل به في ربط أجزاء دولته المترامية الأطراف عندما بدأ في
توحيد قوى الإسلام في الشرق عقب الحروب الصليبية ، فارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء
المملكة بشبكة من البريد البري والجوى^(٢) .

(٢) بريد السلطان الظاهر بيبرس : لما وصل إلى مصر نبأ إغارة المغول على بغداد
وقتلهم الخليفة العباسي المستعصم سنة ١٢٥٨ م ثارت ثائرتها وخرجت لصددهم عن أملاكها
في الشام ، وهزمت زعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت المشهورة سنة ١٢٦٠ م ،
ويرجع الفضل في هذا الانتصار إلى بيبرس أحد قواد المماليك الذي نصب نفسه سلطانا
على مصر وجعل حكمه شرعيا في البلاد بإحيائه الخلافة العباسية في القاهرة . ولهذا وقع
اختيارنا على عصره لدراسة البريد المصري فيه دراسة وافية . وأيضا لأن مصر في هذا
العصر بلغت قوتها المادية والعنوية إلى أوج عظمتها واحتشدت فيها قوى العالم الإسلامي
أجمع وأصبحت دولة كبيرة يشار إليها بالبنان . فدراسة بريدها في هذا العصر هو أصدق
مثل لبريد الدولة الإسلامية في العصور الوسطى . وتقول الرواية المعاصرة للظاهر بيبرس
على لسان ابن فضل الله العمري أن الظاهر لما أراد تجهيز دولة إلى دمشق عين لها
نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للإنشاء ، وكان صاحب شرف الدين^(٣) أبو محمد عبد الوهاب
رحمه الله هو كاتب الإنشاء . فلما مثل إلى الظاهر ليودعه أوصاه وصايا كثيرة ، أ كدها
مواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج وقال له : « إن قدرت أن لا تبتني
كل ليلة الا على خبر ولا تصبغني الا على خبر فافعل . فعرض له بما كان عليه البريد في
الزمان الأول وأيام الخلفاء . وعرض عليه خسن موقعه منه وأمر به . قال عمي :
« فكنت أنا المقرر له قدامه وبين يديه ، وحدثني بذلك مفصلا مطولا عن عمي
جمال الدين عبد الله الدواداري البريدي المعروف بابن الشديد ، وهاهو الآن على ذلك
وهو جناح الإسلام الذي لا يحصى ، وطرف قامته التي لا تقص^(٤) » . هذه الرواية توضح

(١) تاريخ البريد ص ٢٧ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١٠ — النظم الإسلامية ص ١٥٨ — الظاهر

بيبرس ص ١٣٥ . (٣) صاحب شرف الدين هو عم ابن فضل الله العمري .

(٤) التعريف ص ١٨٧ — القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧٠ .

مدى اهتمام الظاهر بيبرس بنظام البريد منذ ساعة توليه الحكم ، والجهود التي بذلها لتركيـز نظامه وتثبيته حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل بالقاهرة الى دمشق — وهما المركزان الأساسيان في عهده للبريد — في أربعة أيام ويعود في مثلها ، كما ترد اليه أخبار الممالك في كل جمعة مرتين^(١) .

ومما يدل على أن نظام البريد قد بلغ في عهده مبلغا من الدقة يستوجب الإعجاب أن السلطان نفسه كان يعلق أهمية كبرى على سفر البريد في مواعيده المقررة الأمر الذي آزره على صد غارات التتر في الوقت المناسب كما آزره على تفقد الحالة في مختلف أنحاء السلطنة والإمام بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولاية والحكام^(٢) . . . ولم يأت ذلك كله للظاهر بيبرس إلا بعد أن أنفق أموالا ضخمة في سبيل ترتيبه^(٣) . وكان قصده من وراء ذلك قصر استعماله لصالح الحكومة فقط ولحمل العمال وناقل البريد^(٤) .

وسندرس الآن أهم الطرق التي أنشأها السلطان بيبرس . وكانت كلها تقتضب من المركز الرئيسي الهام بقلعة الجبل بالقاهرة . واليك أهم تلك الطرق البريدية كما وردت في أكثر من مصدر^(٥) .

(١) الطريق من قلعة الجبل إلى قوص محاذيا للنيل ومارا بالجيزة إلى برفشت ثم إلى منية القائد ابن خصيب ثم إلى الأشمونين ثم إلى ديروط الشريف ثم إلى المنهى ثم إلى منفوط ثم إلى أسيوط ثم إلى طما ثم إلى المراغة ثم إلى بلنسون ثم جرجا ثم البلينة ثم هوثن ثم إلى الكوم الأحمر ثم خان الدرنبا ثم قوص^(٦) وهي مركز تجارى غاية في عظم الشأن وملتقى الطرق ، فمنها يبتدىء طريق إلى أسوان^(٧) فبلاد النوبة ويركب البريد الهجن ، ويقال أن الخزينة العامة كانت تدفع سنويا مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التي تتطلبها ذلك الطريق^(٨) ومنها أيضا يبتدىء الطريق إلى عيذاب وهي ميناء على

- (١) المقرئى — السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ . ١١ . V. 11 . Hist . de L' P. 253—Lane Poole P.P. 246-264 Sauvaget P. 10.
(٢) تاريخ البريد في مصر ص ٤٠ . (٣) المقرئى السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١٠ . الظاهر بيبرس ص ١٣٥ .
(٥) التعريف ص ١٨٧ — ١٩٠ — زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧٣ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٧ . P. 259 . Vol.11 . Precis .
(٦) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ . (٧) من مصر إلى أسوان مسافة ٢٥ مرحلة وتمتاز جميع بلاد مصر بتقارب مسافاتها فلا يكون بين البلد والبلد أكثر من يوم أو يومين — الإدريسي ص ٥٢ .
(٨) Nassiri Khosrau P. 118 . — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٣ .

البحر الأحمر اتخذ التجار والحجاج على السواء ، وكلا الطريقين يوصل إلى مراكز للتعدين ومناجم من الزمرد في صحراء العرب^(١) وطريق عيذاب ذو شأن خطير في نظرنا لأنه كان موجودا منذ العصور القديمة . غير أن بدايته لم تكن ثابتة في العصر الإسلامي بل تراوحت أحيانا بين قفط وقوص وأحيانا كانت عند أدفو بل عند أسوان حتى ثبتت عند قنا حوالي القرن ١٦ م . وقد قدرت المدة اللازمة لقطع الطريق بعشرة أيام غير أن هذه المدة في الحقيقة كانت محض استثناء لأن الزمن اللازم أطول منها بكثير . . . وهناك طريق آخر عبر الصحراء من قوص إلى القصير التي لم تكن لها مطلقا من الأهمية ما كان ميناء ليسكاس ليمن Leukos Limen التي حلت القصير محلها^(٢) .

(٢) أما بريد الأسكندرية فكان له طريقان ، أحدهما محاذ للصحراء ويسمى ، طريق الحاجر مارا بالجزيرة فوردان ودمهور ، والثاني يسير بين فرعى النيل مارا بقلوب ومنوف والحلة الكبرى وقد تمكن الرحالة ابن جبير أن يقطع الطريق الثاني في ثلاثة أيام ونصف^(٣) على حين أن الإدريسي^(٤) يقول من الأسكندرية إلى مصر ٩ يوم . (٣) وأما الطريق إلى دمياط فمن مركز القلعة إلى سرياقوس فمدينة بلبيس وهي آخر المراكز السلطانية وفيها يتفرع خطان أحدهما إلى دمياط مارا باشمون الرمان وفارسكور والآخر إلى غزة فدمشق^(٥) .

(٤) الطريق إلى دمشق والفرات ، يبدأ من بلبيس وهي آخر المراكز التي لحيل السلطان وهي الحيل التي تشتري بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات ، ثم ما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفه ، يحضر بها أربابها عند هلال كل شهر إلى المراكز وتستعيدوها في آخر الشهر ويأتى غيرها ، ومن هنالك سميت خيل الشهارة ، وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة ويدوغها بالداغ السلطاني وما دامت تستجد فهي قائمة ، ومتى إكترى أهل نوبة ممن قبلهم فسدت المراكز لأن الشهر لا يهل وفي خيل المنسلخ قوة لا سيما والعرب قليلة العلف ، وتستخدم خيل الشهارة هذه من السعيدية أول مركز بعد بلبيس حتى العريش وهي آخر مراكز العرب الشهارة ثم مما يليها خيل السلطان ذوات الإصطبلات والخدمة تشتري بمال السلطان وتكلف منه^(٦) .

(١) المقتطف عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧ . (٢) المرجع السابق ص ٤٩ .
(٣) ابن جبير ص ٤٤ — زبدة كشف الممالك ص ١١٩ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ .
(٤) الإدريسي ص ١٥٠ . (٥) زبدة كشف الممالك ص ١١٩ .
(٦) التعريف ص ١٩٠ — ١٩٢ — القلقشندي ج ١٤ ص ٣٧٧ — راجع =

ويمتد الخط من العريش الى غزة وتعتبر دهليز مصر وبداية الإقليم السوري الفلسطيني، ومنها الى دمشق فحمص وحماة وحلب حتى يصل الى ضفاف الفرات حيث توجد قلعة برته التي كانت تعتبر مفتاح السلطنة . ومن حمص يتفرع طريقان أحدهما للقوافل يصل الى بغداد^(١) وتدمر . والآخر يؤدي الى قلعة رحاب على الفرات . ومن دمشق يتفرع ثلاث طرق . أولها الى عكة وصيدا ويبروت ، وثانيها الى بعلبك ، وثالثها الى مكة وينتهي عند قلعة الكرك شرق البحر الميت^(٢) .

وحسبنا من هذا أن نعرف أن الطريق البريدي بين دمشق والقاهرة هو نفس الطريق الحربى الذى سلكه الغزاة فى دخولهم الأراضى المصرية منذ أقدم العصور فهو الطريق الذى اجتازه بنو اسرائيل عند خروجهم من مصر . وهو الطريق الذى سلكه السيد المسيح وهو طفل بصحبة أمه مريم ويوسف النجار فرارا من يهود فلسطين الى مصر . وهو الطريق الذى وطئته أقدام جنود قميز والإسكندر وعمرو ابن العاص . . . وعلى طول هذه الطرق جميعا حدد بيبرس مراكز فيها خيول مجهزة فى جميع الأوقات يستطيع فيها البريديون أن يستبدلوا جيادهم^(٣) . وكانت المسافة بين المحطتين المتعاقبتين لا تتجاوز أربعة فراسخ^(٤) ، وتقارب المحطات بهذه الصفة يساعد الرسل على اجتياز المسافات البعيدة بسرعة عظيمة .

وقد زود الظاهر بيبرس تلك المراكز بكل ما يحتاج اليه المسافر^(٥) من زاد وعلف كما راعى فيها توافر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد ، وأعد بكل منها خيولا عرفت بخيل البريد وعندها عدة سواس ، وللخيل رجال يعرفون بالسواقين ، وأحدهم سواق يركب مع من رسم ركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهامه ، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطاني^(٦) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بأن يكون السفر آمنا هينا ، فأقام فى كل طريق خفراء يحفظ المسافرين^(٧) . فكانت الطرق عامرة خصوصا فى الشام حيث يوجد بها

= Sauvaget P. 24 عن طرق البريد الفرعية التى أنشأها بيبرس فى سوريا وتاريخ إنشائها .

(١) من مصر الى بغداد ٥٧٠ فرسخا أى ١٧١٠ ميلا . الأدريسى ص ١٦٣ .

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٠ . (٣) المقطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧ .

(٤) تاريخ البريد فى مصر ص ٣٨ . (٥) القلقشندي ج ١٤ ص ٢٧٢ .

(٦) خطط المقرئى ج ١ ص ٣٦٧ — الظاهر بيبرس ص ١٢٥ .

(٧) Quatremère V. 1 ier parti P. 227

عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره . ولا مستناب الأمن قال فيها المقرئى^(١) . « إن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء » . وزاد قوله تأكيداً ما ذكره القلقشندي . « وسرعان ما بدلت المراكز الخوف أمناً والوحشة أنساً »^(٢) .

ولا شك أن المراكز الكبرى كانت مجهزة بأبنية تسمى بحسب العصر والمكان والغرض الذي شيدت من أجله خانات أو فنادق أو وكالات (okelle أو okell)^(٣) وابن بطوطة^(٤) رحالة القرن ١٤م الكبير يقول في هذا المعنى « ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ولكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزل المسافرون بدوابهم ، ونحارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته » ، وكتب المقرئى^(٥) أيضاً عن خانات القاهرة وذكر منها خان مسرور وخان قوصون وخان الخليل . ولسنا في حاجة إلى التعرض إليها في قليل أو كثير وإنما الذي يعيننا منها خانات البريد التي امتازت ببساطة بنائها ، ولكنها على اتساع كاف لتخصيص محل لإقامة الصلاة ، ونافورة وأحواض الماء الصالح للشرب ، وسوق صغيرة يعرض فيها ما يحتاج إليه المسافر ، فضلاً عما يلزم للموظفين والدواب من الغذاء . ولذا كان في الإمكان تقليل ما يحمل من الزاد والماء إلى أدنى حد ، ولم تكن الحاجة ماسة إلى نقل الأدوات اللازمة لنصب الخيام . وكان من صالح التجار أنفسهم أن يؤسسوا الخانات ولو في أبسط أشكالها كأن يبنوا قاعة مسقوفة .

وقد يكون من السخف أن نعزو إلى السلاطين المماليك تأسيس هذه الفنادق فإنهم إنما هم أشاعوا استعمالها .

(١) Preci s V. 11 P. 2 58 — خطط المقرئى ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) القلقشندي ج ١٤ ص ٢٨٠ — الواقع أن فضل الاهتمام بالطرق ما بين مصر والشام يرجع إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي شيد بها الحصون والقلاع وزودها بالحراس والماء والزاد وغدت القوافل الحربية والتجارية تعبرها في أمان وسلام ؛ وورث خلفاء صلاح الدين عنه تلك العناية بالطرق ، ونخص منهم بالذكر السلطان الكامل بن العادل الذي أقام في كل طريق خفراء تحفظ المسافرين ، وبلغ من مهابته أن الرمل — فيما بين العريش ومصر — كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأعمال من الثياب من غير خوف . وسرق مرة فيه بساط فأحضر الكامل العربان الذين يخفرون الطريق وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه فبدلوا عوضه شيئاً كثيراً ، وهو يأبى إلا إحضار السارق والبساط . السلوك للمقرئى ج ١ قسم ١ ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

(٣) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٥

(٤) ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣ — Preci s V. II P. 258

(٥) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٦

والحق أننا نعرف أنه يوجد بسوريا خانات أو فنادق من أواخر القرن ١٢ م (١) والنصف الأول من القرن ١٣ م بل قبل ذلك أبدى ناصر خسرو (٢) إعجابه بعظم اتساع مائتي فندق بمصر القديمة . وإنى أعتقد أن الإكثار من تشييد هذه الفنادق وتزويدها بالنافورات المائية والحوانيت على طول الطرق كان الحافز له تغلب النزعة الدينية على نفوس سلاطين المماليك بغية الحصول على أجر كبير في الآخرة . ويؤيد ذلك ما نقشه أمير شيخو على واجهة إحدى النافورات شمال القلعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل أى الأعمال يثاب عليها المرء فأجاب تقديم الماء للظالمين (٣) .

Comme on demandait au prophète quel-était l'acte le plus méritoire; il répondit donner de l'eau a boire.

(٣) إدارة البريد المملوكي : كان يدير أعمال البريد « ديوان الإنشاء » الذى

يتولاه الديوادار ويلقب كذلك باسم أمير البريد ، ومن واجبه السهر على سرعة إرسال بريد السلطان وإذاعة أوامره . ومن خصائصه أن يقدم للسلطان التقارير الخاصة بالأعمال الإدارية ، والأوراق التى يراد توقيعها ، والالتماسات التى يرجو أصحابها مقابلة السلطان (٤) وللديوادار مساعد يقال له « كاتب السر » يتولى بنفسه تصدير البريد وإعطاء قوائم السفر التى تجيز لحاملها الحصول من المحطات المختلفة على جياذ بالعدد الذى يلائم مكانته وأهمية مأموريته (٥) . ولعل السبب فى إسناد إدارة البريد إلى ديوان الإنشاء وعدم إنشاء ديوان خاص لها كما كان الحال أيام الخلفاء يرجع إلى طبيعة عمل كل من ديوانى البريد والإنشاء ، فكلاهما جزء مكمل للآخر حسب النظم الديوانية المملوكية .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بريد من بلد من بلاد المملكة أحضره أمير جاندار والديوادار وكاتب السر بين يدى السلطان ، فيقبل الأرض ، ثم يأخذ الديوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدى ثم يناوله للسلطان فيفضه ، ويجلس كاتب السر فيقرأه عليه ويأمر

(١) تاريخ البريد ذيل ص ٣٧ — Precis Y. II P. 272 شهد سوفاجيه بقايا هذه الخانات على الطريق من جهة دمشق إلى حمص وطريق حلب الرحبة وطريق دمشق بعلبك وأرجعا إلى العصر الأيوبي وقال إن بيبرس اتخذها محطات للبريد حيث يجد عمال البريد والمسافرون مايلزمهم من خبز وأحذية وعلف للخيول — Sauva get G. 29-30

(٢) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٤ — Nassiri khosrau G. 156

(٣) Precide l'hist. Vol 2 P. 277

(٤) القلقشندي ج ١٤ ص ٢٧١ — النظم الإسلامية ص ٢٥٨

(٥) تاريخ البريد فى مصر ص ٢٩ وراجع p. 28 sauva get

فيه بأمره^(١) . وإذا أمر السلطان بكتابة شيء على لسان أحد من الدوادارية حمل بريدي من البريدية الرسالة كذلك عن ذلك الدوادار إلى كاتب السر فيسمع كلام البريدى ، ويكتب على القصة إن كانت أو ورقة مفردة ماثله . « حضرت رسالة على لسان فلان البريدى بكذا وكذا » . ويعينه على من يكتبه من كتاب الإنشاء^(٢) ؛ وهذا يدل على ما كان يتمتع به البريدى من ثقة غالية أكثر من كاتب الإنشاء فكان كلامه حجة بعد السلطان مباشرة .

وقد عهد إلا الدوادار^(٣) حفظ ألواح البريد بالديوان ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه فى ذهابه وإيابه ، وكانت هذه الألواح من الفضة ، وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة » ، وعلى الوجه الآخر ماصورته ، « عز لمولانا السلطان الملك فلان ملك الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، فلان ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلانى فلان خلد الله ملكه » ، وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدى فى عنقه بإدخاله رأسه بين البندين ، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه والشرابة خلفه من فوق ثيابه ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه فى عنقه ويذهب إلى جهة قصده ، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدى ، وبواسطة ذلك تدعى له أبواب المراكز بتسليم خيل البريد ، ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود ، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء^(٤) .

ولقد كان عنصر الفطنة والذكاء من العناصر الضرورية عند اختيار رسل البريد أشار إليه القلقشندى^(٥) بقوله ، « إذا كان الرسول متمكنا من عقله ، عالما بما يأتى وما يذر ، كفى ملكه مؤنة غيبته وأجاب عن كل ما يسأل عنه ، وإذا كان بخلاف ذلك انعكست القضية ، ورجع على مرسله بالوبال » . ويستشهد بحكاية دحية الكلبي حين

(٢) القلقشندى ج ٦ ص ١٩٤

(١) القلقشندى ج ٤ ص ٥٩

(٣) ويذكر البعض (Precis V. II P. 246) أن أسرار الدولة كانت موكولة إلى الضباط المتعطين دائما إلى تدبير المؤامرات فانتزعت إدارة البريد فى عصر المماليك الشراكسة من الدوادار وهو ضابط مملوك وسلمت مقاليدها إلى كاتب السر وهو موظف مدنى .

(٤) القلقشندى ج ٤ ص ٣٧١ — Precis v, II p. 258 — النظم الإسلامية

sauvaget p. 20 — ٢٥٨

(٥) القلقشندى ج ٦ ص ٣٦٠ .

دخل على قيصر بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له دحية : هل تعلم أكان المسيح يصلى ، قال نعم ، قال فاني أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه ، فألزمه من صلاة المسيح أنه عبد لله تعالى . . . وكانوا يتصفون أيضا بالإخلاص واليقظة ، وهذا ما نلمسه في رواية المقرئ (١) عن حادثة طريفة وقعت للسلطان الظاهر بيبرس نفسه مع أحد عمال البريد تجلى فيها اخلاصهم لواجبهم وتنفيذهم الأوامر السلطانية بنصها وروحها حتى على السلاطين أنفسهم . ففي أثناء تجوال بيبرس في دولته بالشام أراد التوجه إلى مصر خفية ، فدبر حيلة خرج بها من القصر ولم يفطن به أحد ، وتكون ركبه من خمسة أنفس ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص . وفي مكان يسمى القصير المعينى دخل السلطان إلى الوالى ليأخذ فرسه فقام إليه بنحو خمسين رجلا ليهوشه وقال « الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا ، تروحوا وإلا قتلناكم » فتركوه وساقوا إلى بيسان وأنوا دار الوالى وقالوا « تريد خيلا للبريد » فأنزلهم وقعد السلطان عند رجل الوالى وهو نائم ، ثم التفت إلى أحد الأمراء وقال « الخلائق على بابى وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت إلى وليكن الدنيا نوبات » وطلب السلطان من الوالى كوزا فقال « ما عندنا كوز ، إن كنت عطشانا اخرج واشرب من برا » ، فأحضر إليه أحد الأمراء كوزا (قارورة) شرب منه وركبوا وصبحوا جنبيين فوجدوا بها خيلا للبريد عرجاء معقرة (مجرحة الظهر) فركب السلطان منها فرسا لم يكذب يثبت عليه من رائحة عقوره .

والقصة تفسر حسن اختيار السلطان بيبرس لعمال البريد من الثقات الأمناء الذين ينتخبون عادة من خدمه ، ذوى الكفاءة والدكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ، الأمر الذى أكرمهم مكانة محترمة حببت السلطان فيهم ، وكثيرا ما كان يثيب الأمناء منهم ، ويعقد عليهم من النعم ما يعقد عادة على كبار رجال الدولة .

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن قانون الانتقال من قطر إلى آخر ، وهل كان ذلك مباحا للمسافرين بلا قيد أو شرط ، وهل كان للسابلة حرية اجتياز تلك الطرق بكل بساطة . . . الجواب على ذلك ما حفظته لنا سجلات إدارة البريد المملوكية ، وما تضمنته الرواية التاريخية قديما وحديثا . . . ففي مصر بنوع خاص كان بها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية

(١) السلوك للمقرئ الجزء الأول القسم الثانى ص ٥٧٥ — Quatremère v lier

التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولى الأمر ، ويقال أن عامل مصر أصدر أمره سنة ١٠٠ هـ بالقبض على من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل ، وإذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيها (فيه) . ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عثر عليه من أوراق البردى ، ويؤخذ من رواية المؤرخ عربي أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر ، ولا بد أن يدرج في هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانوا عبيده (١) .

وابن بطوطة الرحالة المشهور يقول في هذا الصدد ، أنه عند مركز بريد قطيا المشهورة تفتش أمتعة التجار ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا براءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا براءة من الشام احتياطيا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين ، وطريقها في ضمان العرب وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحا فينظر إلى الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء (٢) .

أما في المشرق فالأمر على خلاف ذلك ، إذ نجد المقدسي يستنكر ما حدث في أيام عضد الدولة من أنه لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من يحمل جوازا (٣) .

يتبين لنا إذن صحة ما تعمله مصلحة الحدود المصرية الآن من توزيع عساكرها وضباطها في نقط معينة عند مداخل مصر لتفتيش الغادين والرائحين ، وعدم السماح لمن لا يحملون منهم جوازات مرور جيئة وروحة ، وأن إنشاء إدارة خاصة بوزارة الداخلية لإعطاء جوازات السفر خارج القطر ، كل ذلك ما هو إلا صورة ناطقة بما نقلناه عن أصول الحضارة الإسلامية ونظمها لدى أسلافنا الصالحين .

(٤) البريد وحمل الثلج: بقي للقارىء مسألة أخرى اعتنت بها إدارة البريد المملوكي يحتم علينا الواجب العلمي والأمانة التاريخية أن نسوقها له ، وهي ما وضعته تلك الإدارة من ترتيبات لحمل الثلج من دمشق إلى القاهرة لتبريد الماء في زمن الحر ، وكان لنقله مراكب تحمله في البحر ، اختلفت عدتها باختلاف الأوقات - فبلغت حينما ثلاثا

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣

(٣) المقدسي ٤٢٩

وحينا آخر إحدى عشر مركبا ، وكانت منتظمة الرحلات فيما بين شهرى أبريل ونوفمبر من كل سنة ، تأخذ طريقها من الثعور الشامية وهي بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط المحروس ، ثم ينقل من مراكب بحر النيل ثم يؤتى به إلى بولاق ، ومنها ينقل الثلج على البغال السلطانية إلى الشربخانة حيث تخزن في صهرنج ، والواصلون بالمراكب في البحر يعودون على البريد في البر ، وينقل من الثلج في البر صنف أنظف وأبقى مما ينقل في البحر ، ويجهز مع كل نقله بريدى بيده تذكرة ومعه ثلاثون خبزا بحمله ومداراته طول الطريق وهو خاص بمشروب السلطان ، والمرصد لكل نقله خمسة أحمال والمرصد في كل مركز ستة ، ليكون أحدهم فضله ، وعدة نقلاته أو ان الثلج إحدى وسبعين نقله ، وكان للهجن منظر يشير دهشة السوريين^(١) .

وأقيمت له المراكز على طول الطريق من دمشق إلى القاهرة مثلها مثل مراكز البريد ، فمن دمشق إلى الصمين ثم منها إلى طفس ثم إلى أربة ثم إلى جينين ثم إلى فاقون ثم إلى لد ثم إلى غزة ثم إلى العريش ثم إلى الواردة ثم إلى المطيلم ثم إلى قطيا ثم إلى الصالحية ثم إلى بلبس ثم إلى القلعة^(٢) ، وقد اعتنى بنوع خاص محمد بن قلاوون بهذه المراكز وعين في كل منها ست هجن ، خمسة للأحمال وهجن للهجان ، وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، ومن الواردة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية^(٣) . هذا بلا ريب تطور ملموس في نظام البريد كونه يستخدم في الإشراف على تحقيق الرغبات الشخصية للماليك بعد أن كان القصد منه أولا المصلحة الحكومية في الدولة ، ويروى لنا الفقهاء من القرن الرابع عشر أن البريد كان يستخدم لإحضار مغن مشهور إلى البلاط أو مملوك أمر^(٤) .

والنتيجة الطبيعية لتلك الجهود العظيمة التي بذلها سلاطين الممالك في سبيل إنشاء نظام للبريد على قوائم وأسس متينة لم تكن قاصرة على تمتع الحكومة بثمار ذلك النظام بل وأيضا الأفراد ، فالاهتمام بطرق البريد ومحطاته أدى بدوره إلى تنشيط تجارة الأفراد بدرجة ملموسة الأثر ، بالنظر إلى تشييد الخانات وحفر الآبار وتأمين الطرق . وما يدلنا على أن سلاطين الممالك المتأخرين ومملوك الشرق الآخرين لم يهتموا شأن البريد

(١) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — التعريف ص ١٩٧ ، ١٩٩ — القلقشندي ج ٤

ص ٣٩٦ .

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٧

(٣) التعريف ص ١٩٩ — القلقشندي ج ١٤ ص ٣٩٧ .

(٤) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧

وجود تلك الخانات التي لازلنا نشاهدها في الطرقات القديمة مثل الطريق المحاذي للبحر من دمشق الى الغرب (١).

ويجب ألا ننسى أن مركز مصر الجغرافي يعين تمام التعمين دورها الإقتصادي فطرق مواصلاتها تعمل على توكيد تقدمها التجاري ، فتعقد العلاقات عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والشرق الأقصى من جهة ، ومع حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق موانئها من جهة أخرى ، وكان قلب الحياة النابض في شمال مصر حيث قام تبادلها التجاري في أوسع حدوده بالإسكندرية .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١١

الفصل السادس

البريد الجوى

لم نقصد من هذه التسمية ما هو شائع ومتداول الفهم الآن من ذلك البريد الجوى الصناعى ، أعنى به طائرات البريد ، وإنما قصدت إطلاق هذه التسمية على حمام الزاجل المعروف بحمام الرسائل ، ويعبر عنه أحياناً بالهدى^(١) أو كما أسماه البعض بحمام البطاقة ، وهذه اللفظة مأخوذة من بتاكيون باليونانية ومعناها رقعة وهى القطعة الصغيرة من الورق ، وقد أطلق هذا الاسم على الحمام لحمله صغائر الرسائل ، وقال البعض الآخر إن اسم ورقاء بالعربية أطلق فى الأصل على هذا النوع من الحمام لحمله ورق الرسائل وهو مشهور بسرعة الطيران^(٢) .

(١) بريد الحمام قبل الإسلام : من العجيب أن استخدام الطيور فى حمل الرسائل قديم جداً فى التاريخ ، والفضل الأول فى ذلك يرجع إلى سيدنا نوح عليه السلام على ما جاء فى التوراة ، ذلك أنه أرسل حمامة من الفلك أثناء الطوفان فعادت إليه بغصن من شجر الزيتون فى منقارها ، فاعتبرها المؤرخون أول حمامة أطلقت من السفينة إلى البر^(٣) . ثم جاء من بعده سيدنا سليمان عليه السلام وقد منحه الله سبحانه وتعالى من قوة السيطرة والاستعلاء على مخلوقاته ما ذكر فى القرآن الكريم من قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون »^(٤) . وكان الهدهد إحدى تلك الطيور التى جندت وجيشت ، فلعبت دوراً دبلوماسياً خطيراً فى صراعه العنيف مع بلقيس ملكة سبأ . . . والقرآن الكريم وهو أقدم كتاب عربى إسلامى ، وهو كتاب تاريخ كما هو كتاب دين وتشريع قد نطق بما أداه الهدهد من الجاسوسية والاستطلاع ما لم يستطع عامل البريد فى عصر من العصور التاريخية أن يؤديه حتى ولا سفراء العصر الحاضر ، فعند ما كان سيدنا سليمان^(٥) يتفقد الطير لم يجد الهدهد وقد سأل عنه خاصة

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٨ (٢) القلقشندي ج ١٤ ص ٣٩٠ — الطائر الفريد ص ٨

(٣) تاريخ البريد فى العالم ص ١٤ — الطائر الفريد ص ١١ . وراجع هامش ص ٢٨٢

من السلوك ج ١ قسم ١ للمقرئ

(٤) سورة النمل . (٥) تفسير الطبري ج ١٩ ص ٩٠ — تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٧٦

ليستخبره على بعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره ، والهدهد يعلم مكانه . فغضب وتوعده « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبه عذابا شديدا أو لا أذبحه أو ليأتيني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين^(١) » .

وصار هذا الخبر للهدهد عذرا وحجة عند سليمان درأ به عندما كان أوعد به . فقال له سليمان قد اعتللت « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم . ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملؤ إني ألقى الى كتاب كريم^(٢) » . اعتقد سيدنا سليمان^(٣) أن ليس في الأرض أحدا له مملكة معه ، فلما دله الهدهد على ملك هو لغيره وقوم كفرة يعبدون غير الله رأى في غزوهم الثواب العظيم . وحققت للهدهد المذرة وصحت له الحجة في مغيبه . فهدهد سيدنا سليمان هو سفير أحد أصحاب الجلالة في عصرنا الحاضر ، وأسفرت دبلوماسية الهدهد عن هذه العبارة الخالدة على لسان بلقيس . « قالت رب انى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين^(٤) » وهذا القول الكريم لم يدع مجالا للشكك والهواة أن ينكروا ويحجدوا مقدرة الطائر على نقل الأخبار .

وتاريخ بنى اسرائيل^(٥) يشير الى مجهودات الحمام في هذا المضمار يوم أن تكاثر الأعداء حول يهوشع وأعيته الخيل في الخلاص منهم ، فوقف ييـكى ويطلب من ربه أن يفرج عنه وعن بنى اسرائيل ، وأخذ يهوشع يتحنى على ربه حمامة ، فاذا بحمامة قد حطت في حجره فكتب كتابا الى بينج ابن عمه الملك على السبطين يطلب منه النجدة ، ثم طوى الكتاب فخطفته الحمامة فيها وحلقت وطار ورمت الكتاب في حجر بينج وهو جالس على كرسي ملكه يحكم في قومه ، وأجاب الحمامة الى طلبها وكتب الله النصر لبنى اسرائيل .

على أن أول من استخدم الحمام الزاجل فيما بعد الأنبياء والرسل الفرس الذين نقل عنهم الإغريق طريقة تدريبيه على حمل الرسائل فاستخدموه في نقل أنباء الألعاب الأولمبية^(٦) . وجاء من بعدهم الرومان فاستخدموه في سباق العجلات ، وأول من جاء عنه أن مصارعا من جزيرة إيحين أخذ معه حمامة الى محل الألعاب الأولمبية ،

(١) سورة النمل .

(٢) سورة النمل .

(٣) تفسير الطبرى ج ٩ ص ٩١

(٤) تاريخ اليهود ص ٢٣

(٥) سورة النمل .

(٦) Encyclopaedia Brit. v. 17 P. 921

فإذا تغلب على مصارعيه علق في عنقها قطعة من الأرجوان وأطلقها فتبلغ بيتها في ذلك اليوم ، فيعرف أهله بفوزه ، وكانت تملطخ الحمامة أحيانا بلون قرمزي كما فعل طورسينوس Torisinus حينما أخبر أباه بانتصاره في الألعاب الأولمبية^(١) كذلك كان الذين لا يستطيعون الذهاب إلى سباق العجلات في روما يرسلون إليه أصدقاءهم وعلماهم ومعهم حمام البطاق فيطلقونه عند نهاية السباق مصبوغا أو مخضبا بلون الحزب الذي فاز في السباق فترجع إلى أوكارها فيعرف أصحابها من اللون ما إذا كانوا قد ربحوا أو خسروا . ومن ذلك تنبه العالم المتمدين إلى صلاحية الحمام الزاجل للتراسل^(٢) ، وليس خطر اقتناء حمام الزاجل إبان الحرب بدعا أو جديدا ؟ فقديمًا تساءل المؤرخ بلينيوس إذ لمس أثر الحمام في إفشاء أخبار المتحاربين فقال « لماذا تقام الأسوار ويضرب الحصار ، وتبث العيون والأرصاد في السهول والأودية وتنصب الشباك في الأنهار والجداول . وللاخبار رسول أمين وسبل خالصة في الهواء » وسعر قوله ما قاله زملاؤه مؤرخو الفرنجة أن أول من استخدم الحمام في الحرب هم الرومان إذ أرسل أنطونيوس حين حاصر مورينا سنة ٤٣ ق . م إلى رئيس حكومته رسالة معلقة بعنق حمامة فأجابه عنها برسالة معلقة في رجلها^(٣) .

ويستدل من قول هؤلاء المؤرخين أن التراسل بواسطة الحمام كان واقيا بالمقصود في تلك الأيام وشاع استعماله بين جميع الأمم وقتذاك . سيما البحارة المصريون والإغريقون الذين اعتادوا — في عهد البطالمة — إطلاق الحمام في الجو ايندانا باقترابهم من أرض الوطن^(٤) ولعل الحمام كان أحد العوامل التي ساعدتهم على شق عباب البحار بعد أن كان من سبقهم يجوبونها على مقربة من الشاطئ خشية أن يضلوا أو تعترضهم الأحوال والخاوف . أما الصينيون^(٥) فقد ذكرت كتبهم أنهم استخدموا الحمام الزاجل في أواخر القرن السابع الميلادي . والفضل في ذلك يرجع إلى تجار العرب والهنود الذين جلبوه معهم إلى هناك .

(٢) بريد الحمام الزاجل في الدولة الإسلامية : ثم جاء الإسلام وأحدث انقلابا خطيرا اهتزت له عروش القياصرة والأكاسرة . وأدخل تغييرات جديدة في نظم الحكم

(١) Ameer Ali S, P, 118

(٢) الطائر الفريد ص ١١ — تاريخ البريد في العالم ص ١١ .

(٣) الطائر الفريد ص ١١ (٤) تاريخ البريد في مصر ص ٤٠ .

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ذيل ص ٣٥٧ — المقتطف عدد خاص سبتمبر

سنة ١٩٣٧ .

على النحو الذي رأيناه في نظام البريد ، غير أن عناية خلفاء المسلمين بحمام الزاجل (١) . لم تكن دون عنايتهم بالبريد البري . فمن ادارة تشرف على الحمام في أنحاء المملكة . ومن عمال في الأبراج يراقبون مجيء الحمام وسفره ، ومن بغال تنقل مجاميع الحمام من المطارات الرئيسية الى الفرعية . كل ذلك جمعه ورتبه نظام دقيق شامل ستراه بعد ثوان . يقال أن أول استخدام للحمام في حمل الرسائل نشأ في الموصل . . . ثم في مصر على عهد الفاطميين ثم العباسيين . قامت بين الأسكندرونة في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب (٢) بينما يقول العلامة هيوبرت (٣) برد أن الخليفة المهدي ثالث خلفاء بني العباس هو أول من نظم استخدام الحمام في البريد وذلك في القرن الثامن الميلادي في حين أن أول وثيقة جاءت مصداقا لهذا الموضوع وجدت في حكم المعتصم عندما أرسلت إليه — وهو بمدينة سامرا — أنباء القبض على بابك بواسطة حمام الزاجل واليك نص عبارة المسعودي (٤) أحد مؤرخي القرن الرابع الهجري « وأطلقت الطيور الى المعتصم . وكتب اليه بالفتح . فلما وصل ذلك ضج الناس بالتفكير وعمهم الفرح ، وأظهروا السرور ، وكتب الكتب الى الأمصار بالفتح » على أن الخلفاء من بعده خطو خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام ، ففي حكم الخليفة الناصر لدين الله يبدو أنها كانت تستخدم على نطاق واسع (٥) .

وفي أوائل القرن الرابع نجد أخبارا كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق ، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة في سنة ٣٠٤ هـ وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطياف بخروجه في يومه (٦) وحكى عريب في حوادث سنة ٣١١ هـ أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجيء الخبر الى البصرة بأربعة أيام . ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر (٧) . وعند ما قرب القرامطة

(١) الزجل ، الرمي بالشئ تأخذه بيدك فترمى به والزجل ارسال الحمام الهادي من مزجل بعيد . وقد زجل به يزرجه . وزجل الحمام يزرجهما زجلا أرسلها على بعد وهي حمام الزاجل والزجل وربما أوقع الزاجل على الغناء قال وهو يغنيها غناء زاجلا . والزجل رفع الصوت المطرب وقال : يا ليتنا كنا حمى زاجل — لسان العرب ج ١٣ ص ٢٠

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١٧ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١ التعريف ص ٥٨ . (٣) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨ .

(٤) مروج الذهب طبعة باريس ج ٧ ص ١٢٦ — Ameer Aly S. P. 118

(٥) Ameer Aly S. P. 118 (٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٧) صلة تاريخ الطبري ص ٥٧

من الأنبار تشوق المقتدر إلى معرفة أخباره ، فلما عرف أبو علي بن مقلة ذلك طلب أطيّارا وأنفذها إلى الأنبار وكتب له عليها أخبار القرمطى وقتا بعد وقت (١) . فلما اشتد خطر القرامطة في تلك السنة رتب الوزير علي بن عيسى بين بغداد وبين مقرهم المرتبين ، وسلم اليهم مائة طائر إلى مائة رجل يكتبون له على أجنحتها كتباً بنجر العدو في كل ساعة (٢) . وفي سنة ٣٢١ هـ استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطى لأن أطيّار جاره — وهو من أهل الكوفة — حملت إليه أنباء أصدق مما حملته أطيّار صاحب المعونة المعين في الكوفة من قبل الوزير ، فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار الكوفة من صاحب المعونة (٣) .

ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ أن طائراً وقع لغلمان بحكم فوجدوا على ذنبه كتاباً من بحكم بخط كاتبه إلى أخيه يعرفه فيه أخبار بحكم وأسراره ، ووصلت الرسائل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيّار في يوم وليلة (٤) وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف — وكان علويًا وجيهاً متمولاً ببغداد — طيور كوفية وبالكوفة طيور بغدادية ويكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها ، وجلس هذا الشريف عند الوزير مرة فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة وأنه لا بد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول ، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتنال الإشارة وهو جالس مع الوزير وكان هذا يحسبه متهاوناً في الأمر (٥) .

ويغلب على الظن أن مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري قد عول كثيراً على البريد الجوي في انجاح حركته واحداث الارتباك في جنوب العراق . وهذا من غير شك عمل كبير قامت به الجماعة ، ذلك الطائر الوديع ، ذو الصوت الموسيقي الجميل ، وهذا العمل لا يمكن أن يتم بغيرها اللهم الا بواسطة التلغراف اللاسلكي ، وهذا لم يكمل اتقانه الا في الأزمنة الحديثة وحق بالرغم من هذا فإنه لم يكن من المستطاع الاستغناء عن الحمام في نقل الأخبار .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ — ٢٤٠ ، تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٩٨

(٢) تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٩٨

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤١٦ (٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥٩ .

ويعمل الأستاذ هيو برث (١) بدسبب اهتمام خلفاء المسلمين بالبريد الجوي بأن طريق السفر في الصحراء كان غير آمن في العصور الوسطى فتغلبوا على وحشته بواسطة القوافل المسلحة التي تتكون عادة من نحو ألفين أو ثلاثة آلاف (٢) من الإبل . تنظم تنظيمًا محكمًا مرة أو مرتين فقط كل عام ، وخوفًا من أن تضل هذه القوافل الطريق أو تضيع لجأوا إلى حراسها بواسطة أقامه أبراج الحمام في حلب ودمشق والبصرة وغيرها من المدن الواصلة إلى مكة وبغداد وهما أهم مدينتين للقوافل في ذلك العصر وذلك لأن الحمام الزاجل اعتبر في ذلك الوقت الوسيلة الوحيدة للمراسلات بين الأماكن المنقطعة في الصحراء وبين المدن المعمورة . فيطلق بعض هذه الحمام إلى حلب أو البصرة لإخبار التجار المنتظرين هناك بمكان القوافل القادمة . وجرت العادة أن يحتفظ بالطيور الفارهة لاستخدامها في وقت الخطر فيطلقها رئيس القافلة في اللحظة التي يدهمهم الخطر في الصحراء طالبًا للمعونة من آخر مدينة غادرتها القافلة ؛ ولم تمض سويحات قليلة حتى يكون الطائر الفاره قد حمل رسالته وتكون النجدة في طريقها إلى القافلة وإذا رأى رئيس القافلة الكبرى الطريق آمنًا كتب بذلك رسالة وأرسلها بالحمام الزاجل إلى القوافل الصغيرة التي تريد أن تتبع الطريق ذاته ، ثم تطور الأمر وأصبح الحمام يستعمل أيضًا في البريد الرسمي ويؤدي غرضًا حكوميًا هامًا .

(٣) المطارات الجوية : وعلى الرغم مما سبق ذكره فإن الدولة الإسلامية لم تعتن بالحمام الزاجل العناية الكافية ، ولم تخصص له الإدارات الخاصة إلا في العصور الإسلامية الوسطى ، وكانت مصر بلا ريب سباقة إلى استخدامه بنظام منقطع النظير من حيث الدقة والإحكام ، خصوصًا بعد أن آلت إليها زعامة الأمم الشرقية عقب وفاة نور الدين محمود الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في تنسيق هذا النوع من البريد ، إذ وصل التراسل بالحمام الزاجل في عهده إلى مرتبة البريد الإعتيادي بنوع مستوفي النظام من مراكز ومستخدمين . حتى يقال أنه نظم خطًا لنقل البريد بين مصر والشام وأعد له مطارات ذات أبراج في كل ثلاثة عشر ميلًا . وأقام لها نظارًا وحراسًا يراقبون وصول الحمام نهارًا وليلاً ، خوفًا من أن يمر عليهم وهم عنه غافلون وإلى جانب هذا الخط الرئيسي أنشأ خطوطًا ثانوية أخرى منها (٣) : —

(١) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨

(٢) رأى استرابو هذه القوافل التجارية في العصور القديمة وشبه القافلة منها بجيش وذكر الطبري أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير . فجر الإسلام ج ١ ص ١٦ .

(٣) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ . تاريخ البريد في مصر ص ٤١ — ٤٣ — الطائر الفريد

في وصف البريد ص ١٠ — ١١ .

(١) الخط من مطار قلعة الجبل (القاهرة) إلى الوجه القبلى (قوص وأسوان وعيناب) .

(٢) الخط من مطار قلعة الجبل إلى الاسكندرية وبه مطاران منوف العليا ودمهور الوحش .

(٣) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمياط وبه مطاران بنى عبيد وأشمون الرمان

(٤) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمشق عن طريق غزة والقدس وبه مطارات عديدة .

(٥) الخط من مطار دمشق إلى برته على نهر الفرات .

(٦) الخط من مطار دمشق إلى بيروت وطرابلس .

(٧) الخط بين حلب والرحبة على الفرات .

(٨) الخط بين غزة والكرك على البحر الميت .

(٩) الخط بين دمشق وبعبك .

(١٠) الخط بين برته وقيصرية .

واذا دققنا النظر فى تلك الخطوط نلاحظ أنها نفس الخطوط الذى انتظم فيها نقل البريد بواسطة الجياد فى ذلك العهد ، غير أن الحمام يقطع المحطة فى ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الجواد . ويوجد فى كل مطار من مطارات الحمام برج أو أكثر يحفظ فيه الحمام من المحطتين السابقة واللاحقة ، لكي تحمل الحمامة رسالتها إلى المحطة التى جلبت منها ، وعليه فقد كان لزاما أن تتبادل المحطات الحمام ، وتتم عملية التبادل باستخدام جياد السلطان لنقل الحمام بين المطارات تحت إشراف المراقبين الذين شيدت لهم فى المطارات الحمامة أماكن للاستراحة . ولنقل إحدى الرسائل من خط ما لا بد من استخدام جميع الأبراج الواقعة على طول هذا الخط ، بمعنى أنه إذا أراد حاكم دمشق مثلاً أن يبعث برسالة إلى القاهرة استخدم لهذا الغرض حمامة من حمام المطار التالى وهو مطار « تفاس » ولا تزال الرسائل تنتقل كذلك من تفاس إلى بيسان ومن بيسان إلى جنين فنبلس فأورشليم ، فقاطبة فغزة فالورادة فالصالحية حتى تصل إلى بلبيس فترسل منها إلى القاهرة .

ولا شك أن تسلم الرسالة من الحمامة وشدها إلى أخرى فى كل محطة يستغرق الكثير من الوقت ، ولكن ضياع الوقت لم يكن يذكر فى شيء إلى جانب ما فى هذه الطريقة من المزايا العظيمة . وأول هذه المزايا أن قصر المسافة بين المحطات لم يكن يحتم استخدام الحمام من نوع الزاجل الصميم وهو نوع كان ولا يزال نادراً وغالى الثمن ، ولذلك

استخدم الحمام العادى ، أضيف الى ذلك أن قصر المسافة من شأنه أن يقلل من الأخطار التى يستهدف لها الحمام ، وذلك مما يزيد الثقة والأمل فى وصول الرسائل . ويوجد فضلا عن ذلك بريد مباشر بين عاصمة السلطنة وسائر الولايات ، فإذا أراد السلطان مثلا أن يبعث برسالة من القاهرة الى دمشق أطلق من أبراجه حمامه من حمام دمشق فتصل اليها الرسالة فى مرحلة واحدة بغير توقف ، ولم يكن يستخدم لمثل هذه الأسفار البعيدة غير حمام الزاجل الصميم ، والفارق بين هذا الحمام وغيره كالفارق بين أفراس الرهان والنقل (١) .

أما كيفية التراسل بالحمام فكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها ، وجرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ، ترسلان مع حمامتين تطلق إحداها بعد ساعتين من إطلاق الأخرى حتى إذا ضلت إحداها أو قتلت وافترسها الجوارح أمكن الاعتماد على الأخرى ، وجرت العادة كذلك ألا يطلق الحمام فى الجو الماطر ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافى (٢) . وكانت الطريقة المتبعة إذا بطق الطائر من مطار قلعة الجبل إلى مطار الإسكندرية فلا يسرح إلا من منية عقبة بالجيزة وهى أول المراكز ، وإذا سرح الى الشرقية لا يطلق الا من مسجد التين خارج القاهرة وكان يسير مع المطيرين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من موظفى ادارة الحمام بالقاهرة . وكذلك كانت العادة فى كل مملكة أن يتوخى الإبعاد فى التسريح عن مستقر الحمام والقصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب (٣) .

أما كيفية التراسل الحربى بواسطة الحمام فقد اتبع الأقدمون طريقة وضع الرسالة ضمن كيس من الجلد الرقيق أو ضمن قارورة من الورق الذهبى لحفظ الرسالة من العوارض الجوية وتعلق بعنق الحمامة أو رجلها ، وأما المتأخرون فيضع بعضهم الرسالة ضمن غلاف صغير من الورق المزيّن ويعلقونها فى عنق الحمامة وبعضهم يضعها فى جوف ريشة ويربطون تلك الريشة بالريشة المتوسطة من ذنب الحمامة ، وهذه الطريقة أستر للتراسل الا أن الرسالة لا تكون وافية بالمقصود لصغر حجمها (٤) . فعند حدوث أمر دى بال يعلق السلطان الخبر بعنق الحمامة . ويضع ضمن القارورة رسالة أخرى من

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٣ — تاريخ البريد فى العالم ص ١٠ — الطائر الفريد فى وصف البريد ص ١١ .

(٢) خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٧٥ — النظم الإسلامية ص ٢٥٨ — الظاهر بيبس ص ١٣٧ . (٣) المقرئى ج ٣ ص ٣٧٥ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢٤٤

(٤) الطائر الفريد ص ٩ — تاريخ البريد فى العالم ص ٩ .

الورق الرقيق أسماها « ورق البطاق » ثم يوضع على ظهرها وقت سفر الحمامة بالتدقيق التام ، ويقيد حارس كل مركز عند وصول الحمامة الى البرج ساعة وصولها اليه وذهابها منه وذلك على ظهر الرسالة التي تحملها الحمامة^(١) .

وامتازت رسائل الحمام بالإيجاز فيستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل في ذلك العصر . ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب صيغة مقتضبة كالتى تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا . ولا بد وأن يكتب سرح الطائر ورفيقه ، حتى ان تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب ، ولا يعمل للبطائق هامش ولا تحمل ويكتب آخرها حسبة ، ولا تعنون الا اذا كانت منقولة مثل أن تسرح الى السلطان من مكان بعيد فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد ، ولكل وال تصل اليه يكتب في ظهرها انها وصلت اليه ونقلها حتى تصل مختومة^(٢) .

(٤) الحمام الزاجل في مصر الإسلامية : تبع انتقال حكم الفواطم من بلاد المغرب الى مصر تمتع الأخيرة بكثير من النظم الإدارية ذات الطابع المصرى الخالص ، ذلك أن الفاطميين قد حافظوا على العناية بالحمام وبالغوا فيه حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام^(٣) . واستخلصنا من روايتين للقلقشندي وجاستون^(٤) فييت أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه مارأى القراصية البعلبكية (السكرز) وأنه يحب أن يراها . ويوجد بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقته يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ويرسلها الى مصر ففعل ، وانطلقت مائة وعشرون حمامة صوب العاصمة فوصلت أبراجها الا عشر منها في ثلاثة أيام أو أربعة على أكثر تقدير . وجمع الوزير الحبات وقدمها الى العزيز فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه وقد لفت نظرى اختلاف المؤرخين في زمن وصول الحمام من دمشق إلى القاهرة ، فالقلقشندي يقول أنه وصل في نفس اليوم الذى أطلق فيه سراحه من دمشق ، ويقول جاستون فييت أنه وصل بعد ثلاثة أيام أو أربعة وقد يكون كلاهما صادقا فيما يقول ، فالقلقشندي يخيل إلينا أنه قصد استخدام

(٥) الطائر الفريد ص ٩ .

(١) خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٧٥ — النظم الإسلامية ص ٢٥٨ — الظاهر بيبس ص ١٣٦ تاريخ البريد ص ٤٣ (٢) التعريف ص ٥٨ — زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — مجلة المستمع العربى العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨ (٣) القلقشندي ج ١٤ ص ٢٩١ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ .

الحمام الزاجل الأصيل في أداء هذه المهمة وهذا النوع من الحمام له خط مباشر من القاهرة إلى الشام فمن المعقول أن يصل في نفس اليوم الذي أطلق فيه . . . على حين جاستون فييت أحسب الزمن ثلاثة أيام أو أربعة ، وهذا صحيح أيضا على اعتبار أن الحمام الذي استخدمه الوالى كان من النوع العادى وهذا يحتاج إلى زمن أطول نظرا لانتقاله من برج الى آخر على طول الخط الجوى من الشام الى القاهرة . ومما ذكره القلقشندي أيضا أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر بالله الفاطمى استخدم الحمام في نقل الأخبار ما بين تونس وبلاد المغرب ومصر . . .

ثم حدث أن تقوضت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي الذى انفرد بملك مصر والشام وتوسع في تنظيم إدارة البريد الجوى ، واستفاد كثيرا من خدماتها إبان الحروب الصليبية . ففي وقت حصاره مدينة عكا في أغسطس سنة ١١٩٠ م . انقطعت صلته بمصر والعالم الخارجى إلا عن طريق الجو حيث شقت أسراب الحمام الزاجل عنان السماء حاملة في أجنحتها أبناء مصر وما يجرى فيها من حوادث ، على حين حمل بعضها الآخر الرسائل الودية بين السلطان وبين صديقه الإمبراطور اسحق^(١) .

والمستنتج من خلاصة هذه الروايات التاريخية أن تاريخ ذلك العهد قد حفل بطريف أخبار الحمام الزاجل والأدوار التى استخدم فيها في الحروب والسياسة والإدارة . وظلت أبراجه ونظمه في مصر وسوريا موضع العناية حتى غزا التتر سوريا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، فشتتوا الحمام ودمروا أبراجه وأتلفوا محطات البريد ومسالك البريد^(٢) . . . ولكن مما لا شك فيه أن هذه المحطات والمسالك أعيد إصلاحها في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى لم تكن عنايته بالبريد الجوى أقل منها بالبريد البرى . وساعد الحمام الزاجل خلفاءه على ضبط الأمن وإخماد الفتن والثورات . من ذلك ما رواه ابن بطوطة^(٣) عن الناصر محمد أن ثورة قامت في الأسكندرية بين المسلمين والنصارى واستفحل خطرهما ولكن طير الخبر على جناح الحمام فتداركها الملك الناصر وهى في مهبها ، وحدث مثلها في مدينة جبلة بالشام وطار الحمام إليه بالخبر وتعاون عن طريق البريد الجوى مع عماله هناك على إطفائها فكان الفضل في ذلك للحمام طبعاً .

(١) كتاب الفيهج القسى لعماد الدين الكاتب ص ١٧٧ — Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem P. 270 — راجع المقرئى : السلوك هـ ٣ قسم ٢ عن الدور الذى قام به الحمام الزاجل في الخلاف القائم بين ملوك بنى أيوب ص ٢٨٥ .

(٢) تاريخ البريد في مصر ص ٤٤ .

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨ ، ٦٢ .

أثمان حمام الزاجل :

ومما يدل على مبلغ إتقان هذا البريد الجوى أن حمامه عرف بعلاماته تشبها برسل البريد البرى كبصم منقاره ببصمات خاصة ونقش اسم السلطان عليها ، ونعرتها على رجلها أو قص ريشه بطرق معروفة . فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه إلى حد أنه إذا كان جالسا على مائدته أو نائما في فراشه أو داخل حمامه فإنه يسرع حالا إلى نزع البطاقة (١) الأمر الذى يفسر اهتمام السلاطين وحرصهم على الوقوف على كل ما يتجدد في أنحاء امبراطوريتهم فيأخذون حذرهم ويستعدون للطوارئ .

ووضع تحت إمرة السلطان في القاهرة وحدها عدد وافر من الحمام الزاجل قدره المقريزى (٢) بألف وستمائة حمامة . ولم يبالغ المقريزى حين قال أن الحمام في سائر الأبراج فاق العد والحصر ، وأن السلطان يستطيع وهو في أية بقعة من بقاع السلطنة أن يتصل بسائر حكام الولايات بفضل الحمام الذى يرافق ركابه أينما ذهب .

ومما لا شك فيه أن إدارة بريد الحمام الزاجل قد كلفت خزانة الدولة الأموال الباهظة وفى اعتقاده أن نفقاتها قد تزيد على نفقات البريد العادى ، وقد يكون لهذا الاعتقاد شىء من الصحة إذا أدركنا أن خلفاء بنى العباس بل والطبقات الممتازة في العراق سببا بالبصرة قد تنافسوا في اقتناء الحمام الزاجل إلى حد الإفراط حتى الفقهاء ورجال الدين أنفسهم لا يمتنعون عن المنافسة فيه والإخبار عنها . ومن طريف ما يذكر أن أهل البصرة وجهوا إلى بكار بن شيبه البكرانى قاضى مصر — وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض — بحمامات لهم مع ثقات وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ففعل (٣) .

وكان لهذا التنافس أثره الملموس في ارتفاع أثمان الحمام وقد ذكرت الرواية التاريخية أن حمامة بيعت في بغداد على عهد العباسيين بسبعمائة دينار (أى نحو ٣٥٠ جنيتها) وأخرى حملت إليها من القسطنطينية فبيعت بألف دينار (أى نحو ٥٠٠ جنيتها) وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا (٤) . الأمر الذى جعلهم يعتنون بإدارته

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ . النظم الإسلامية ص ٢٥٨ . الظاهر بيبرس ص ١٣٦ .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ — Lane Pole His Hist. P. 246 — الهلال

مجلد ٧ من السنة العاشرة ص ٢١٥ راجع Sauvaget P. 37

(٣) القلقشندى ج ١٤ ص ٢٦٠ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٨٦ القلقشندى ج ١٤ ص ٣٤٠ . الهلال مجلد ٧ من

السنة ١٠ ص ١٨٦ .

وبعثين موظفين عندهم دفاتر بأنساب الحمام وبعد المسافات التي أرسلت فيها . . . وكما اعتنوا بأنساب الخيل والإبل اعتنوا بالحمام ، فألف بعضهم كتباً تبحث في أصلها ومميزاتها وخصائصها ونظموا الأشعار فيها^(١) .

وحاز حمام العراق الشهرة بين الحمام المستعمل لحمل الرسائل ، لأنه يدجن سريعاً ويتعلم في وقت قريب ، وأكثر أنواع الحمام تعلقاً بوطنه وأحرصها على الإبقاء عليه والعودة سريعاً إليه . ولا تزال الأسراب الكثيرة من نسل حمام السلاطين باقية بقرية كفتين على بعد عشرة أميال من حلب . وأسرع نوع من الحمام يقطع في الساعة من أربعين ميلاً إلى خمسين وأقل نوع منه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلاً والمعدل المتوسط لطيران الحمام خمسة وثلاثون ميلاً بالساعة^(٢) . وقد وصف أحد الرحالة الأوروبيين في القرن السادس عشر الميلادي كيف كان الحمام يحمل الرسائل الهامة إلى ألف ميل من البصرة إلى القسطنطينية ومن بغداد إلى جميع أنحاء العالم العربي ، والذي جعل قطع هذه المسافات الطويلة أمراً ممكناً بإنشاء أبراج الحمام على مسافات يبعد بعضها عن بعض بخمسين ميلاً على طول طرق القوافل في جميع البلاد الإسلامية . وقد استخدم التجار الأوروبيون في الإسكندرونة الحمام الزاجل في نقل الرسائل إلى قناصلهم في حلب يعلمونهم فيها بموعد وصول السفن . وهذه الطيور تأتي بالرسائل إلى حلب في ظرف أربع ساعات أو خمس بدلا من أربعة أيام لو أرسلت بوسيلة أخرى . . . ومن طريف ما يذكر أن حمامة حملت مرة رسالة تنبئ بارتفاع عظيم في سعر جوز العفص في الأسواق الأوربية ولكنها قتلت في أثناء طيرانها من الإسكندرونة إلى حلب ، ووقعت في يدي أحد التجار الذي علم بهذا الخبر وأسرع في الحال إلى جمع مقدار كبير من جوز العفص ربح من الاتجار فيه مبلغاً طائلاً من المال ؛ وسرعان ما نهج التجار الآخرون نهج هذا التاجر في قتل الحمام سعياً وراء الحصول على الأنباء حتى لم يبق في سماء سوريا طيراً واحداً آمناً . وفي هذه الحال قرر التجار الأوروبيون برضاهم على ما يقال عدم استخدام الحمام في إرسال رسائلهم لأن أيامه قد انتهت في عالم التجارة على ما زعموا^(٣) .

(١) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٦ .

ومن لطيف ما قاله أحدهم في وصف هذا الطائر .

يا بعد بين غدوها ورواحها	خضر تفوت الريح في طيرانها
لمسير شهر تحت ريش جناحها	تأتي بأخبار العدو عشية
نفث الهداية منه في أرواحها	وكأنما الروح الأمين بوحيه

(٢) الطائر الفريد ص ٨ .

(٣) الطائر الفريد ص ١١ — مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٩ .

يضاف إلى ما سبق من خفش أثمان الحمام تكاليف إنشاء أبراجه ومحطاته وتزويدها بالبالغ السلطانية لنقله من برج إلى آخر ثم تعيين الموظفين على اختلاف رتبهم من نظار ومقدمين ومطيرين . ومن الغريب أن الرواية التاريخية قد سكنت عن ذكر مرتبات هؤلاء جميعا إلا أنها أشارت إلى ما يستهلكه الحمام يوميا من الغلال بقولها : « والعلوفات تصرف من الأهرام السلطانية فتبلغ النفقة عليها من الأموال مالا يحصى كثره ، وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة قول في كل يوم (١) » .

الحمام في الأزمنة الحديثة .

هذا غاية ما استوعبته عن حمام الزاجل من مختلف المصادر العربية والإفريقية التي تيسر لي الاطلاع عليها . ثم أذيل أخيرا هذا الفصل بكلمة عن أثر الحمام في الحروب الحديثة . فبالرغم من اكتشاف التلغراف اللاسلكي وانتقاصه الشيء الكثير من أهمية الحمام في نقل الأخبار فإن الدول لم تكن في غنى عنه ، بل لا زالت تتخذ وسيلة من وسائل الانتصار والظفر في ساحات القتال ، وتفند في حمل هذه الطيور في ميادينها ، واصطنعوا لكل منها غمدا من الحديد أو الصفيح يدخلون الطائر فيه وله غطاء يغطي الرأس ولا يمنع عنه الهواء . وإذا أرادوا إطعامه أو إرواءه رفعوا الغطاء وقدموا له الإناء . واصطنعوا للجند أحزمة بصنانير يعلق بها الطائر من غمده . والغالب أن يحمل هذه الطيور طلائع الجند في خروجهم لاستطلاع أحوال العدو لأهم يبعدون عن معسكرهم لاستكشاف مواقع الأعداء ، فيذهبون والحمام معلق في أحزمتهم فإذا أمرا يدعو للمخبرة كتبوا البطاقة وأدخلوها في أنبوب من الألومنيوم منبسط الشكل يعلق بذيل الحمامة ، وأطلقوا الطائر من غمده فيطلب المعسكر بأسرع من لمح البصر (٢) .

ولعل القارئ يعلم أن الطيار في مقعد طائرته يجد سبيل عودته إلى مطارته بواسطة البصلة والراديو ، أما الحمام فيجد طريقه إلى برجه بواسطة غريزته الطبيعية التي تجذبه إلى بيته كما يجذب المغناطيس الحديد . لذا يحمل الطيارون معهم دائما في قاذفاتهم صندوقين ملائنين بالحمام الزاجل ليكون واسطة إنقاذهم عند الخطر إذا أسعدهم الحظ وهذا سر ما تراه من أبراج الحمام منتشرة هنا وهناك بالقرب من المطارات . ويقال (٣) إن وزارة التموين البريطانية تستخدم في كل يوم ما يربو على ألف ومائتين وخمسين حمامة

(١) خطط الميرزى ج ٣ ص ٢٧٥ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ١١٤

(٢) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٧ .

(٣) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٩

في حمل رسائلها ، خصوصا في الأوقات التي تعطل فيها التليفونات أو تشغل لعدة ساعات فيستعاض عنها بالحمام الذي يقطع مسافة مائة ميل في نحو ساعة ونصف ساعة .
فلا غرابة إذن فيما أصدره الحاكم العسكري في مصر من أمر يمنع بمقتضاه اقتناء الحمام الزاجل ، ويوجب تسليم ما يوجد منه إلى جهات الإدارة . وإليك نص مواد هذا الأمر العسكري^(١) .

مادة ١ — يحظر حيازة حمام الزاجل بجميع أنواعه وكذلك استخدامه .

مادة ٢ — على كل حائز لحمام زاجل أن يسلمه في خلال أسبوع من تاريخ العمل بهذا الأمر إلى جهة الإدارة التي يقيم في دائرتها ويعوض أصحاب الحمام طبقا لأحكام المرسوم بقانون رقم ١٥٧ لسنة ١٩٣٩ والأمر رقم ٤٨ .

مادة ٣ — كل مخالفة لأحكام هذا الأمر يعاقب عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنة وبغرامة لا تتجاوز مائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين ويضبط الحمام موضوع المخالفة ويحكم بمصادرته .

مادة ٤ — يعمل بهذا الأمر من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية .

(١) الوقائع المصرية العدد ١٥٢ الصادر في ١٦ / ٨ / ١٩٤٢ أمر رقم ٣١٦ بحظر حيازة الحمام الزاجل .

الفصل السابع

نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء

(١) المشاعل

(١) قبل الدولة الإسلامية : إن استخدام النار في التخاطب لم يكن بالأمر المستحدث في العصور الإسلامية بل هو قديم بقدم التاريخ ومعروف من غابر العصور ، فما يروى^(١) عن الملك نحاو الثاني أنه اتخذ بحارة من الفينيقيين للطواف على سواحل أفريقية واكتشاف أقطار جديدة تدر الخير عليه وعلى بلاده . . . والرحلة في حد ذاتها لا تعيننا بقدر ما يعيننا النوادر التي صادفت أعضائها ، فمن ذلك عجزهم عن مخاطبة المواطنين أيها حلوا بالهيوغليقية أو غيرها من اللغات المصرية القديمة ، ولكن سرعان ما وجد البحارة في النار وسيلة للتخاطب مع أهالي الساحل الغربي خصوصا . فيذكر هيرودوت أنهم كانوا يوقدون النار إذا ما نزلوا إلى البر ، ويضعون بضاعتهم بجانبها ويعودون إلى سفنهم فعندما يرى الأهالي الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطئ ويفحصون ما عليه من بضاعة ويضعون بجانبها ما تساويه في نظرهم من الذهب ، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة . . . عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البر مرة أخرى فإذا مراقبهم ما تركه الأهالي من ذهب ورأوا أنه يكفي كسبهم لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ؛ أما إذا رغبوا ثمنا أعلى رفضوا ما ترك وأشعلوا النار وعادوا إلى سفنهم ثانية ، وانتظروا صابرين فيعود الوطنيون ، ويزيدون على الذهب ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضا التجار . . . هذه الأسطورة عظيمة الأهمية من الناحية التاريخية لأنها تضع النار موضع المترجم في عصورنا الحديثة ، فدخانها المتصاعد أخطر الأهالي بوجود نزلاء على الساحل ، واستمرار تصاعده أشعرهم بأن بحارة نحاو يطلبون المزيد من الثمن .

وهناك رواية تاريخية ثانية وردت في القرآن الكريم تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخاطب سيدنا موسى عن طريق النار فتجلى نوره على الجبل . . . ولما رأى موسى عليه السلام النار على بعد توقع الخير من ورائها ، وتلمس أسباب النجاة من قومه .

(١) مصر في العصور القديمة المقرر للمدارس الثانوية ص ١٤٣ للأستاذ شفيق غربال .

فلما آتاها خاطبه الله سبحانه وتعالى ، وطمأنه بالسلامة والخلاص ، وجاء على لسان القرآن^(١) : « وهل أذاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ، لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى^(٢) » .

وتاريخ بني إسرائيل حافل بكثير من النصوص التاريخية التي تؤكد أنهم عولوا كثيرا على النار في نقل أخبارهم . فمن ذلك أن يباربه (ملك السامرية) اتفق مع قومه على الطريقة التي يرسلهم بها عند بدء المعركة بينه وبين ملوك الروم وقساوستهم ورهبانهم ويقول المؤرخ^(٣) في ذلك : « نفذ يباربه إلى كل القرى التي فيها السامرة . وقال لهم كونوا على هيئة إلى نصف الليل ، فعندما تبصروا النار على قمة الزمان اقتلوا الوكلاء الذين عليكم ، ولا تخلوا حولكم من الروم إنسانا إلا واقتلوه » ثم أعطيت الإشارة ووصل الخبر وقام السامرة « وأشعلوا النار على رأس القبة فقام كل السامرة وقتلوا جميع الوكلاء الذين عليهم » . وهكذا كانت النار علامة على وصول الخبر ونذيرا بشن الغارة على الروم فأحرقت كنائسهم ، وضربت رقاب ملوكهم ورهبانهم وقساوستهم وقامت الحرب بين الفئتين وكتب بعدها النصر لليهود . . .

لم يقتصر تعظيم شأن النار في صدور بني إسرائيل فحسب بل زاد ذلك التعظيم عند العرب أيضا ، ولعل العرب كانوا أكثر حرصا على تعظيمها من بني إسرائيل بدليل اختلاف لغة النار عندهم باختلاف نوعها . فالنار عند عرب الجاهلية تعددت لهجاتها وتباينت مصطلحاتها ورموزها . من ذلك نار الاستمطار وكانوا يوقدونها إذا تتابعت عليهم الأزمان ، وركد عليهم البلاء واشتد الجذب واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ، ثم عقدوا في أذنانها وبين عراقيها السلع والعشر ثم صعدوا بها جبل وعر وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع^(٤) .
ونار التحالف^(٥) فلا يعقدون حلفهم إلا عندها ، فيذكرون عند ذلك منافعها ويدعون

(١) سورة طه ص ٤٠٦ .

(٢) يقول الطبري في تفسيره (ج ١٦ ص ١٠٨) أجد على النار هدى دلالة تدل على الطريق الذي أضللناه ، أما من خير هاد يهديننا إليه ، وأما من بيان وعلم نتيبته به ونعرفه . وقال هدى عن علم الطريق الذي أضللناه نبعت من خبر . وقال أيضا (ج ١٦ ص ١٠٧) أن موسى سار بأهله فضل الطريق وكان في الشتاء وقمت لهم نار ، فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٤٩ .

(٣) تاريخ اليهود ص ١٤٢

وفي ذلك قال أمية :

ناب عهدا كيما تهيج البحورا
ر وأمسى جنابهم ممطورا

عاقدين النيران في شكر الأذ
فرآها الإله ترسم بالقط

(٥) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٠ .

إلى الله عز وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد .
وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبلهم وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ،
ويهلون على من يخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها .
ومنها أيضا نار القرى^(١) وكانوا يوقدون في الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم
إلى الضيافة والإكرام فكانت دليلا على علو الهمة والنفور من الجبن والبخل .

ونار أخرى وهى النار التى كانوا إذا أرادوا حربا وتوقعوا جيشا عظيما وأرادوا
الاجتماع ، أوقدوا ليلا على جبلهم نارا ليلبغ الخبر أصحابهم^(٢) .

ويقول الطبرى^(٣) أن الحارث بن عمرو الكندى ملك الحيرة خرج بصحبة « تبع »
ملك اليمن لفتح فارس ووصلا حتى الصين وجعلا النار فيما بينهما ، فإذا حدث حدث
أوقد أحدهما النار بالليل فأتى الخبر فى ليله للأخر ، وآية ما بينهما أن إشعال نار واحدة
يخالف المعنى فى حالة إشعال نارين أو ثلاثة ، وهكذا تغلبا على البعد المسمى فيما بينهما ،
وكانا على إتصال دائم بواسطة النار .

ونار أخرى وهى النار التى كانوا ربما أوقدوها خلف المسافرين وخلف الزائر الذى
لا يحبون رجوعه وكانت يقولون فى الدعاء أبعد الله وأسحقه وأوقد نارا خلفه^(٤) .

ومازال الناس كافة والأمم قاطبة — حتى جاء الله بالحق — مولعين بتعظيم النار
حتى ضل كثير من الناس لافراطهم فيها ، أنهم يعبدونها فى صورة الشمس وقال الله تعالى
فى ذلك^(٥) . « وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . ويزعم^(٦) أهل
الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بها وقال لا تطفئوا النيران من بيوتى فذلك لا تجد
الكنائس والبيع وبيوت العبادات إلا وهى لا تخلو من نار أبدا ليلا ولا نهارا ؛ حتى
اتخذت للنيران البيوت والسدنة ووقفوا عليها الغلات الكثيرة ، وانتشرت هذه البيوت
على وجه الخصوص فى دولة فارس .

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ العبادى .

(٢) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٥١ .

وفى ذلك قال عمرو بن كلثوم :

ونحن غسدة أو قد فى خزاز

رفدنا فوق رفد الرافدين

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٨٨٨ طبعة بريل .

وقال الفرزدق يفتخر بآبائه فى الجاهلية :

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا

نارين أشرفنا على النيران

(٤) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٥١

(٦) الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٥٢

(٥) سورة النمل

(٢) في الدولة الإسلامية : ثم يتقدم الزمن بالنار فنحظى بنصيب وافر من العناية في ظل الدولة الإسلامية ، فيوضع نظام لأشغالها ويخصص عمال لمراقبتها وترصد لها الأموال في بيت المال . وعرف المؤرخون الأماكن التي تشعل فيها النار بالمناور ، وهي كما ذكرت الرواية العربية^(١) مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار . وذلك أن مملكة إيران لما أصبحت بيد هولاكو من التتار ووقعت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة صار من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهارا للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عالية ومواقعها معروفة ، تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور^(٢) الإسلام كاليرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى أن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاء وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها إختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به بإختلاف حالاتها ، تارة في العدد وتارة في غير ذلك . وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقرررة كانت لا تزال دارة . فأما في طريق الرحبة فكان ينور بمدينة عانة قوم من النصاح بحجة أمر سوى التنوير ، ويستتر عليهم أهل البلد حبا لملوكنها ، فترى ناره أو دخانها بخربة الروم وبالجرى أيضا ، ويرفع فيهما أو في أحدهما فيرى من كل منها بوادى الهيكل ، ويرفع فيه فيرى بالقناطر ، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة ، ثم تستمر الرواية التاريخية في تعداد المناور المتشعبة حتى غزه . وكلها مناور تتشعب إلى ما خرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوبا

(١) يقول المقدسى في هذا (ص ٤٤٤) وبفارس عجائب بطرف أرجان نار تشتعل بالليالي وتدخن بالهار

(٢) يتحدث المقدسى (ص ١٧٧) عن مناور الساحل الشامى واتخاذها وسيلة للتفاهم بين الروم والمسلمين عند افتداء أسرى الآخرين ، فيقول وعلى هذا الساحل رباطات على البحر يقع بها النفيرون وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانهم معهم من أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسائل ويحمل إليهم صنوف الأطعمة ، وقد ضج بالنفير لما تراثت شلندياتهم فإن كانت ليل أو قدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهارا دخنوا ، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها قوم فتوقد المنارة ، التي تلى الرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلى وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ويؤدى إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أهل الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشتري ما معهم .

وشمالا وشرقا وغربا . ومنذ أصلح الله بين الفئتين وأمن جانب الجهتين فقد قل بذلك الاحتفال ، وصرف عن البال . وهذه المناور رسوم قد عفت وجسوم أكلت شعل النار أرواحها فانطفت (١) .

نستنتج من هذا أنه لا بد من اتباع الرموز والإشارات المتفق عليها بين جماعة المنورين عند نقل الخبر من جهة إلى أخرى ، كاختلاف حال النار بين شدة توهجها وضعفه ، وكتعداد مشاعلها في الموضع الواحد ، وكمدى ارتفاعها في السماء ، ثم تخصص الأخبار الحربية مثلا للحالة الأولى ، والأخبار الداخلية في الولاية للحالة الثانية وهكذا . وهذا يذكرنا بما تجرى عليه الأمور الآن في نقل الأخبار بين أفراد جمعيات الكشف عن طريق الإشارات والرموز في الهواء وبواسطة النار ، وهذا يتطلب ذكاء نادرا وبقظة تامة . نستنتج أيضا من هذا النص التاريخي أن استخدام المناور في الدولة الإسلامية كان قاصرا على فترة معينة وهي فترة الفتن والقلقل التي أحدثتها جموع المغول في ربوع العالم الإسلامي وبانتهاء هذه الفترة غدت المناور أثرا بعد حين (٢) . وعلى الرغم من أن حركات التناثر على حدود الدولة الإسلامية قد سببت إقامة هذه المناور فإن القلقشندي (٣) يرجع هذه المناور إلى ملوك الهند بقوله : « وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند فقد رأيت في بعض الكتب أن ببلادهم مناور على جبال مرتفعة ترى النار فيها على بعد أكثر من هذه . على أن مرتبتها بهذه المملكة أولا أتى بحكمة ملوكية لا تساوى مقدارا ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد ، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة » .

على أن الأستاذ آدم (٤) متر يقصر استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة عند المسلمين على البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل ، بحجة أن هذه الدولة كانت تستعملها ، أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل . ولذلك نرى حصونا كثيرة على قنن الجبال بأسبانيا هي من بناء العرب الأندلسيين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة متناوذة ومنتظمة بلبلة الساحل الأيسر الإفرائسي والإيطالي اختاروا لها تلال

(١) التعريف ص ١٩٩ — ٢٠١ — القلقشندي ج ١٤ ص ٤٠٠ .

(٢) راجع Sauvaget p 39

(٣) القلقشندي ج ١٤ ص ٤٠٠ (٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٢٥٧

الجبال لتوقد بها النيران ويتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركتهم إندانا بوقوع الحرب وطلب المدد وجمعاً للقوة (١) .

والأمر الذى ألفت نظر القارى إليه هو أن عادة إيقاد النيران فى الأبراج ليست رومية أو تترية كما يتوهم البعض ، وإنما هى فى الغالب عادة عربية تتفق مع ما كان عليه حال العرب فى جاهليتهم الأولى على النحو الذى سبق الإشارة إليه . وأن كل ما حدث فى العصر الإسلامى إنما هو إدخال كثير من التحسينات على نظام المشاعل وغدت تستخدم استخداماً حسناً . والعرب فى أوائل الفتح الإسلامى نشروا هذا النمط من الأبراج النارية من الإسكندرية إلى طنجة على طول الساحل الإفريقى الشمالى ، فكانت إذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى برج حتى يباغ ذلك الإسكندرية فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية تصل الرسالة النارية فى ثلاث ساعات إلى أربع (٢) .

وكثيراً ما لعبت النار دورها فى الحروب بين الجيوش المتقاتلة فكان إشعال أحدهما لها علامة على تحرك قواته نحو الأخير فبعد الأخير عدته للقائه . من ذلك أن يزيد ابن المهلب عند ماسيره سليمان بن عبد الملك لمقاتلة الأتراك بطبرستان أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم وحاموا للقتال آمنين خلفهم فناشبههم يزيد إلى العصر وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم واتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد (٣) . فالنار فى تلك الحالة كانت كالعيون التى تبث فى صفوف الأعداء وتوهمهم أن خصمهم ضعيف فى ناحية معينة وهو فى الواقع قوى فيها فيقل اهتمامهم بها وتدور عليهم دائرة السوء منها وتحل بهم الهزيمة . هذا هو نظام المشاعل فى الرسالة كما تيسر لنا معرفته من مختلف الروايات التى وصلتنا وإليك الحديث عن الطبول .

(١) تاريخ غزوات العرب ذيل ص ٢٣٧

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١٩٣ — تاريخ غزوات العرب ذيل ص ٢٣٧ — وقد شاهد الأمير شكيب أرسلان « تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٦٦ » فى رحلته سنة ١٩٣٠ ببلاد الإندلس أبراجاً مخروطية الشكل من صنع العرب كما رأى برج العرب La tour des sarrazins فى مقاطعة لوزان بسويسرة .

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ٧٤

(ب) الطبول

المعروف أن الملوك والأمراء كانوا يتخذون من قرع الطبول والنفخ في الأبواق دليلا على ما ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف ، وتنويعها بالملك وأهله ، فلا تعقد الأولوية إلا ويتقدمها الطبول والأبواق . وعمل ابن خلدون السر في ذلك بإرهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة تحدث روعة وتأثيرا في النفوس (١) . وقد يكون كلامه صحيحا ببعض الاعتبارات لأن النفس يدركها الفرح والطرب عند سماع النغم والأصوات الجميلة ، كما يدركها الفزع والرعب عند سماع الأصوات المزعجة المحطمة للأعصاب وقد فسر القرآن الكريم ذلك المعنى في الآية الكريمة « وإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير » (٢) .

ولكن ليس من المعروف تماما أن الطبول اتخذت في العصور الإسلامية السابقة كوسيلة من وسائل المراسلة ونقل الأخبار . ففي الجهات النائية عن عواصم الخلافة الإسلامية حيث يتعذر إنشاء نظام البريد العادي ، لوحشة في الطريق ، أو لاقتصاد في النفقات ، أو لكثرة في الدروب والجبال ووعورتها ، فيستعاض عن ذلك بنقل الخبر عن طريق دق الطبول كما كان الحال قديما في مملكة الهند ، فبين دلى وقبة الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبول مرتبة في أمكنة خاصة ، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى أو أغلق يدق الطبل فإذا سمعه ما يجاوره دق فيعلم خبر فتح المدينة وفتح باب الأخرى وغلقه (٣) .

يصف التاريخ الخليفة المأمون في صدر خلافته بالرجل المغلوب على أمره لأسرة بني سهل الفارسية ذات الخبرة الواسعة في السياسة والإدارة ، وذلك لانصرافه إلى الحياة العلمية الهادئة ، حياة الفلاسفة المفكرين . الأمر الذي أحدث شعبا كثيرا وفتنا متعددة في الأقطار الغربية على وجه الخصوص ، وكان المحرك لها جماعة الثائرين من بني هاشم ، ولم يكن هناك من رجل مخلص حقيقة للمأمون سوى هرثمة ابن أعين ، فوكل إليه الخليفة أمر القضاء على فتن العلويين . ولما فرغ هرثمة منها وكتب له النجاح أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرور ليطلع على حقيقة الحال بالأقطار الغربية والفضل يحجب أخبارها عنه ، ولم يكن ذلك مما يروق في عين الفضل بن سهل فاجتهد في منعه من المثول بين يدي

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٥

(٢) سورة المدثر ص ٧٧٦

(٣) القلقشندي ج ٥ ص ٩٨

الخليفة . ولكن هرثمة كقائد حربي صمم على ضرورة اللقاء فأمر رجاله بدق الطبول كي يسمعها المأمون ويصله خبره . فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة فأمر بقدمه ولكن الفضل أسرع إلى المأمون وصور له هرثمة في صورة رجل عاص خارج على الخليفة ، فاستاء الخليفة وزجره وقتل هرثمة في النهاية ضحية خبث البطانة (١) .

وهناك حادثة أخرى هامة في تاريخ العباسيين وهي حادثة الأفشين قائد الخليفة المعتصم مع أحد الثأرين على الدولة وهو بابك . تعذر على الأفشين الاتصال بجنده في ميدان القتال عند محاربه لبابك وذلك لكثرة الدروب وتشعب الطرقات بين جبال أذربيجان العظيمة الارتفاع والكثيرة الالتواء ، فاستعان الأفشين بالطبول لإعلان قواته بحركات سيره ووقوفه . وقبل الكلام على حركات الأفشين ونظام دق الطبول يحسن أن نذكر كلمة قصيرة عن بابك لتقرب لذهن القارئ عناصر ربط الحوادث التاريخية بعضها ببعض . ينسب بابك الحرمي إلى مدينة البد بمنطقة طبرستان ، وهو صاحب حركة شاذة من الناحية الاعتقادية وفي منتهى الخطورة من الناحية السياسية ، لأنها صادرة عن رغبة أساسية في نفس بابك وهي محاولة إحياء القومية الوطنية الإيرانية التي قضى عليها العرب وأضعفوها إلى حد بعيد . وقد شغلت حركته دولة بني العباس زمن المأمون لانصراف حكومته إلى المسائل الدينية والحركات الفكرية ، وزمن المعتصم لانشغال رجاله بحرب الروم (٢) . ولكن المعتصم كان أقدر على المسكائد العسكرية والعمليات الحربية مما تصوره بابك ، إذ سرعان ما أوقف حملاته نحو بيزنطة وسرعان ما زرع نظام البريد بأنواعه المختلفة من برى وجوى ومشاعل وطبول ، وسخره في تنسيق عملياته الاستراتيجية وتجهيز جنوده من عرب وعجم وترك في الحوطة بهذا الثأر المتمحض بالجبال والوهاد . والمعروف أن عمال البريد على اختلاف رتبهم وتنوع أعمالهم في كل تلك المناورات العسكرية هم حلقة الاتصال بين المعتصم في مدينة سامرا وبين رئيس هيئة أركان حربه في ميدان القتال وهو الأفشين الذي تقدم قليلا قليلا إلى حصن البد ، وهناك أحكم خططه ودبر أمره وأمر رجاله بضرب الطبل نصف النهار ويخرج بالشمع والنفاطات إلى باب الخندق وبالركوب ليلا للحراسة خوف البيات . وقد عرف كل إنسان منهم كردوسه ، من كان في الميمنة ومن كان في الميسرة ، فيخرج الناس فيقفون في مواقعهم ومواضعهم والأفشين يحمل أعلاما سودا كبارا عددها اثني عشر علما ، يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل إلا تزعزع يحملها على اثني عشر بغلا . وبلغت طبوله الكبار واحدا وعشرين طبلا ،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٤٦ - مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي .

(٢) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي .

والأعلام الصغار نحووا من خمسمائة علم فيقف أصحاب كل قوم على مرتبتهم من ربيع الليل ، حتى إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه فيؤذن المؤذن بين يديه ويصلي ثم يصلي الناس بفلس ، ثم يأمر فيضرب الطبول ويسير زحفاً ؛ وعلامته في المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها لكثرة الناس ومسيرهم في الجبال والأذقة على مصافهم ، كلما استقبلوا جبلاً صعدوه وإذا هبطوا واديا انصبوا فيه ، إلا أن يكون جبلاً منيعاً لا يمكنهم صعوده وهبوطه فإنهم كانوا ينضمون إلى العساكر ويرجعون إذا جاءوا إلى الجبل إلى مصافهم ومواضعهم ، وكانت علامة السير ضرب الطبول فإذا أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول (١) .

أما مؤخرة جيشه فعلى اتصال دائم بالمعتمصم الذي نظم البريد على طول الطريق ، فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه حجر مرتب فيركض بالخيال ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد بيد ، ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فيه دواب المرج ، يركض بها يوماً أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ . وجعل لهم دياذبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرُوا أن ينهروا إذا جاءهم الخبر ، فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ ، فلا يبالغ إليه صاحبه الذي نهر حتى يقف له على الطريق ، فيأخذ الخريطة منه فصارت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل (٢) .

ولما أدرك بابل أنه واقع لا محالة في شرك الأفشين هرب إلى الغرب صوب حلفائه من البيرنطيين والأرمنيين وأتبعه الأنشين بعيونه وجواسيسه فألفوه عند ملوك أرمينية وقبض عليه وطار خبر القبض عليه إلى المعتمصم على جناح الحمام كما ورد في الفصل السابق . وبذلك تكون أدوات البريد من خيول وحمام وطبول ومشاعل وسكك وخرائط وعمال قد عاونت الدولة العباسية معاونة صادقة في الخلاص من أخطر حركة تعرضت لها الدولة منذ قيامها فشغلتهما زهاء العشرين عاماً . وقد عرفت الطبول في العصر المملوكي بالطبلخانات والكوسات ، وهي طبول مجلدة بعضها بجلود البقر يضرب بها ضرباً شديداً مزعجاً ويبالغون في الاستكثار منها ، ويديحون لكل أمير أو قائد عسكر يتخذ من ذلك ما يشاء (٣) تلك هي الخدمات التي أسداها نظام التخاطب بالطبول إلى الدولة الإسلامية . ولم يبق من موضوع رسالتنا إلا التراسل بواسطة الماء .

(١) الطبرى مجموعة III ج ٢ ص ١٢٠٢ . ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٩

(٢) محضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧ - Quatremere tome 1, ier parti P. P.

(ح) البريد المائى والبحرى

سيكون حديثنا عن البريد المائى موجزا جدا لافتقارنا إلى مادة خصبة سبقت أن تناولته بالفحص والبحث . ولعل ذلك يرجع إلى أن استخدام الماء في التراسل من الندرة بحيث أن المراجع التى قتلها بحثا لزمّت الصمت بشأنه ، وحتى المصادر العربية التى أشارت إليه نسبت استخدامهم إلى بعض الأمم القديمة . وطريقته أن تكتب ورقة تعلق بقصبة وتغرس القصبة فى باقة حشيش وتلقى فى الماء فيعم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل إليه (١) .

وهناك طريقة أخرى وهى أن توضع الرسالة ضمن صندوق محكم الإقفال ويجعل ثقله متوازنا بحيث لا يطفو على وجه الماء ولا يغرق فى قاعه بل يكون متوسطا بينهما منعاً لظهوره أو وقوفه على الأرض ، ثم يلقى فى النهر أو الترعَة فيندفع بالماء لغاية مركز الجيش الآخر ، وهناك يقع فى شبك معدة .

وقيل ان الهنود أول من استعمل هذه الطريقة ضمن النارجيل (جوز الهند) ، وقد عرفها الاسكندر الأكبر الذى ظن قواد جيشه أن سقوط الجوز من أشجاره بالماء طبيعياً أن يكون من قوارب النقل ، ولكن فطنة الاسكندر أثبت الا الوقوف على الحقيقة ، فأمر بكسر بعض جوز النارجيل فوجد به رسائل هندية . ومن قول المؤرخ بلينيوس يظهر أن الرومانيين لم يجعلوا هذه الطريقة . وقيل ان القرطاجنيين استعملوا أيضا التراسل الحربى فى الماء ، وإنما عوضا عن وضعها فى صندوق كانوا يجعلونها فى جوف الحيوانات المقتولة ويلقونها فى الماء (٢) .

واضح من هذين النصين أن الطريقة الثانية أكثر احكاما وأسلم للرسالة من الأولى وانه يشترط عند إلقاء الصندوق الموضوع به الرسالة أن يلقى مع اتجاه تيار الماء وهذا لا يتأتى طبعا إلا فى الانهار . وعليه إذا كان المسلمون قد استعملوا هذه الطريقة فإن استعمالها كان محليا ومقصورا على الوديان كوادى النيل ووادى دجلة والفرات وكذا أودية الهند . والبريد المائى على وجه العموم أكثر تعرضا للخطر من غيره ، فقد يتنبه العدو له فيراقب مجارى الأنهار ، كما أن الرسالة قد يعترضها صخرة فى النهر أو حيوان نهري أو سفينة فيعوق سيرها مع التيار فتضطر أن تركن .

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٣

(٢) الطائر الفريد ص ١٤ — تاريخ البريد فى العالم ص ٦٠

ويغلب على الظن أن الدولة الإسلامية لم تهمل هذا النوع من التراسل خصوصا البحري ، وبالرغم من افتقارنا إلى مادة تاريخية تؤيد هذا الظن ، إلا أن رأينا الشخصي لا بد وأن نسجله هنا لأنه نابع من عين الحقيقة والواقع ، ومؤيد من سبق الحوادث عليه . فالتاريخ ينبئنا بأن العرب أمه بدوية لا عهد لها بالبحر ، وأن الخليفة عمر كان يخشى عليها غائلة البحر ، فلما تجلبت الحاجة إلى أسطول في بحر المشرق أذن عثمان لمعاوية بإنشائه على أن تكون الخدمة فيه اختيارية بحته ، وبذلك تكونت نواة الأسطول العربي في المياه الشامية والمصرية ، وبفضله فتح معاوية رودس وغزا كريت وقبرص وجزيرة رواد بالقرب من القسطنطينية ، وكان أول من غزا صقلية ولم تزل تغزى بعد ذلك حتى فتحها بنو الأغلب (١) . فكأن الغزوات الإسلامية البحرية في صدر الاسلام موجهها أكثرها إلى مملكة الروم . وإذا ما اتجهنا إلى غربي البحر الأبيض نلاحظ أن العرب بعد استيلائهم على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ولذلك بنوا مدينة القيروان على مسافة بعيدة من الشاطئ ، فلما غزا موسى بن نصير الأندلس وهو لا يملك إلا أربع سفن أحس بضرورة بناء الأساطيل ، فأنشئت دور صنعه عظيمة في تونس ، وأكثر موانئ الأندلس كطروشه وأشبيلية ، وأصبح لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ، ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها (٢) .

ومن هذه الموانئ تحركت غزوات المسلمين لجزر البحر الأبيض المتوسط كيورقة ومنورقة وسردينيا وكورسيكا ، ولم تنقطع المعارك البحرية بين أساطيل الإسلام وأساطيل النصارى ، سواء التابع منها لشرلمان فرنسا ، أو لابنه بين ملك إيطاليا ، أو لامبراطور بيزنطة ، أو لجمهورية جنوة ، وكانت الغلبة من غير شك لأساطيل العرب ، لأن أية قوة على وجه الأرض وقتذاك لا تستطيع أن تقف في طريقهم ، فتمكنوا بقوة الإسلام من تثبيت أقدامهم في جنوب القارة الأوروبية . وأخيرا بعد موت الخليفة هارون الرشيد وانقضاء عهد تبادل السفارات السياسية بين الشرق والغرب ، تحولات مراسيمهم في تونس وسوسة وغيرها بؤرة القرصان ، تنبت منها الغارات البحرية وتجي الأناتوات من أعداء المسلمين .

وبناء عليه فإن قوة بحرية كهذه على الصورة الخاطفة التي بسطتها للقارىء ، لا يمكنها أن تبسط جناحها في ربوع البحار بهذه السرعة المدهشة إلا إذا كانت متكئة

(١) تاريخ غزوات العرب ص ١٥١

(٢) تاريخ غزوات العرب ص ١٠٩ ، ١٣٧

على بريد بحرى محكم الإدارة والتنظيم حتى يضمن لها سلامة خطوط تموينها الخلفية وخطوط دفاعها وتقهقرها . وآية ذلك ما رواه ابن الأثير من أن أبراج الحمام أقيمت في جزيرة قوصره وهى ما بين المهديّة وصقلية ، وأن أقفاص الحمام وضعت في مراكب الأسطول الإسلامى ليحمل الحمام منها إلى المهديّة وغيرها من الثغور المغربية أخبار الأعداء وحركاتهم في طول البحر وعرضه (١) .

وأظن أن إنشاء الأبراج النارية على قمم الجبال كما وضعنا سابقا — سواء منها على سواحل إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا أو بلاد المغرب ومصر وسواحل الشام لم يكن عبثا . ولم يكن المقصود منه فقط نقل الأخبار والأحداث التى تتولد على البر وإلا كان نظام البريد البرى والعادى فيه الكفاية . . . وإنما لابد وأن يكون هناك غرضا بعيدا قصد من وراء تلك المناور ، هذا الغرض كما أفهمه وكما يقره المنطق السليم هو تنظيم إدارة بريديّة بحرية تجعل ربان السفن وأميرال البحر على اتصال دائم بالبر وبقواعده . فرفع علم على سارية سفينة ما في جزيرة مالطة مثلا على صورة من الصور يعطى معنى طلب المدد للمنورين في منارة تونس . . وإعطاء إشارة نارية من برج بجنوب فرنسا مثلا قد يعطى البحارة في عرض البحر معنى الأمان إذا ما أرادوا الوصول إلى الشاطئ .

ومثل هذا الاستنتاج يمكن أن يقال أيضا عن نشاط البريد البحرى في جنوب آسيا صوب المياه الهندية وجزر المحيط الهادى جهة جاوة وسومطرة والفلبين حيث كانت السفن العربية لا تنقطع في اليوم والليلة .

الخاتمة

ليس عيبا القول بأنه عندما شرعت في البحث عن مادة البريد في الدولة الإسلامية كان ذهني فارغا تماما من كل ماله علاقة بالموضوع، مثلي في ذلك مثل عابر سبيل أو كالغريب يهبط بلدا مجهولا فيجد نفسه حائرا بين طرق متشعبة هنا وهناك، فتراه يتحسس الطريق السوي ويتلمسه، عليه يجد أثرا أو دلالة يهتدي بهديها ويسير على ضوئها وكانت طريقتي في ذلك قراءة كل ما يقع تحت يدي من مجلدات ومؤلفات قديمة وحديثة، شرقية وغربية، تاريخية وجغرافية، أدبية وفقهية وكنت أجد فيها إشارات خفيفة أو لا أجد البتة. على أن هذه الإشارات وتلك العبارات المفككة والمبعثرة قد أحدثت في ذهني كما يقول السيكلوجيون ارتباطات جديدة عن البريد هذه الارتباطات أخذت تزداد يوما بعد يوم، وفي إزديادها إيمان بالغاية السامية التي أرتجى لها لبلادي وأعمل من أجلها وعلى ضوء هذه المصاييح الخافته شققت طريقتي في بطون الكتب غير مشفق على نفسي مما يصيبني من العنت والإرهاق حتى استطعت بعون الله أن أحقق النتائج العلمية التي قرأتها في الفصول السبعة السابقة والتي ألخصها فيما يأتي : —

الفصل الأول : وقد صدرناه بكلمة فسرنا بها معنى البريد اصطلاحا ولغة مستعرضين آراء المؤرخين عرب ومستشرقين، واستنتجنا منها إرجاع لفظ «بريد» أصلا إلى الفرس مؤيدين ذلك بالبراهين والأدلة. وأشرنا إلى طريقة قياس مسافة البريد عند العرب كما وردت في كتب جغرافيتهم. وأنبت هذا بعرض تاريخي عن نشأة البريد عند الجماعات والأمم القديمة. وأن اليوم الذي فكر فيه زعيم القبيلة في وضع الحراس على حدود منطقته لإنذاره بالغارات الأجنبية عد يوم الميلاد لنظام البريد، وبذا تولدت الجاسوسية في هذا النظام، وغدت عملية نقل الأخبار هي لب نظام البريد في العصور القديمة فجاء من وحى وصنع الحكومات لا الأفراد غير أن نصيب الأفراد والجمهور من هذا النظام يكاد يكون معدوما لأن البريد نشأ لحاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصورا في هذا النطاق لدى جميع الدول السابقة على الدولة الإسلامية بل وفي الدول الحديثة أيضا إلى ما قبل قرنين أو ثلاثة. وليس معنى هذا أن الرسائل الخاصة كانت غير موجودة، فهي كانت موجودة فعلا ولكن بوسائلها الخاصة

التي لم تؤثر عن قريب أو بعيد في تطور نظام البريد . . . وقد استدللنا من وثيقة ترجع إلى عهد الأسرة ١٢ ومن رسائل تل العمارنة على معرفة الفراعنة لنظام البريد وتنظيمهم إياه داخل القطر وخارجه حتى جاء البطالمة فأولوه عنايتهم واهتمامهم كما ورد في وثيقتين تاريخيتين ترجعان إلى هذا العهد . . . أما بريد أباطرة الرومان فقد عنوا به عناية فائقة خصوصا بعد انقسام العالم الروماني إلى شرقي وغربي ، وكان أوجسطس أكثرهم يقظة لأهمية هذا النظام الذي تعدت وظيفته إلى نقل الأطعمة والجنود والتجسس على العمال في الولايات . . . كذلك الفرس لم يكن يريد هم أقل شأنًا منه عند الروم ، فهم أصحاب الفضل في ابتكاره وترتيبه في ديوان خاص به لا يتولاه إلا من يوثق فيه ، وظهرت عناية الفرس بالجاسوسية المنظمة الداخلة في نطاق البريد .

الفصل الثاني : فتح باب البحث بكلمة عن بريد عرب الجاهلية . وتدرجنا في البحث إلى تعريف الدولة الإسلامية وتاريخ سقوطها . . . ويلاحظ القارئ أن تاريخ نظام البريد يتمشى مع تاريخ الدولة نفسها عندما اتخذ الرسول عبد الله بن أبي بكر ليأتيه بأخبار مكة — وهو في الغار — يوما بيوم . وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد في تاريخ الدولة . كما كان عثمان بن عفان في يوم الحديبية أول مفوض دبلوماسي أرسلته مصلحة البريد الإسلامية ، وأعقبه إرسال البعث والسفارات إلى أكابر الملوك والأمراء المعاصرين . واتخذ الرسول الخاتم لتوقيع رسائل البريد ، وتوسع الخلفاء في ترتيب ماورثوه من نظم حكومية عن صاحبهم صلوات الله عليه وسلامه ، واعتمد عمر كثيرا على نظام البريد في تلقف أخبار قواده في الأقاليم ، على أن إدارة البريد قد أهملت واجهها في عهد الخليفة الثالث ودفعت ثمن الإهمال باهظا وهو هدر دم عثمان الذي تسبب عن غلطة ارتكبها صاحب بريده مروان . . . فإذا ما جاء عصر الأمويين نرى نظام البريد يتسلل من سداجة البداوة إلى مجبوحة الحضارة ، فأقام له معاوية الخيول على الطرق لنقل البريد مستعينا في ذلك بجمع الوثائق عن البريدين الفارسي والرومي ، واهتم من بعده عبد الملك بن مروان بالبريد وأباح لساعي البريد أن يدخل عليه أنى شاء ليلا أو نهارا ، وأضاف عمر بن عبد العزيز إصلاحات كثيرة على نظام البريد . وعلى الجملة فقد استفاد الأمويون من نظام البريد في القضاء على ثورات الخوارج وغيرهم ممن خرج على طاعتهم . . . وفي العصر العباسي يلبس نظام البريد ثوبا جديدا يشير إلى الذوق الفارسي والعقلية الفارسية والتقاليد والنظم الكسروية القديمة ، فلا عجب أن يجعله الخليفة المنصور أحد القوائم الأربعة التي شيد عليها دولته ، وهي القضاء والشرطة والخراج والبريد

وتطور البريد تطوراً محموداً في عهد خلفائه ، ولم يستثن من رقابته أصحاب الجاه والسلطان كالبرامكة مثلاً الذين كانت أخبارهم تصل نوا إلى مسامع الرشيد . . . ولعب البريد دوراً في الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وكانت الغلبة لبريد الأخير . . . وفي عصر الخلفاء المتأخرين اضطرب حال البريد ، فتارة يعلو صوته وأخرى ينخفض حسب شخصية الخليفة ومدى الغور الذي أحدثه السوس في عظم الدولة . . . وزاد الطين بله هبوب عاصفة الصليبيين وتساقط أوراق البريد التي لم تكد الحياة تدب فيها من جديد حتى التهمتها جموع التتر ، ولم يكن ذلك عن جهلهم بفائدة البريد وإنما حرصاً في ألا تسبقهم أخبارهم إلى الدول التي لم تسمع بمجيئهم . . . ونخرج من هذا الفصل مقتنعين بأن التراث الروماني كان أكثر وضوحاً في عهد الأمويين عن زميله الفارسي ، بينما كان الحال على العكس في عهد العباسيين .

الفصل الثالث : وقد أوردناه للكلام عن الإدارة العامة لنظام البريد فذكرنا اختصاصات صاحب البريد والشروط التي يجب توافرها فيه والصفات التي يجب أن يتحلى بها . وهو رأس قوة من البوليس السري يقومون بعمل الجاسوسية ، وله ثلاثة عينات رئيسية من موظفي البريد هم المرتبون والقائمون والفروا نقيون ، كما له عمال في الولايات ينوبون عنه ولكل من هؤلاء جميعاً اختصاصات . ولعمال البريد علامة يتميزون بها عن سائر موظفي الحكومة . . . وفي هذا الفصل ميزنا بين نوعين من البريد ، بريد الرجال وقصد به جماعة السعاة ، ويرجع تاريخ استخدامهم في الدولة الإسلامية إلى أيام بني بويه ومن أشهرهم عدوا الصينيون ويليهم المصريون ، ويشترط في من يلحق بوظيفة الساعي أن تثبت لياقته بامتحان . . . أما بريد الخيالة فهو شائع من أقدم العصور واستخدم العرب الجمل في بريدهم ثم استبدلوه بالخيول والبغال . ومن أشهر خيالة البريد التتر ثم الفرس . . . وختمت هذا الفصل ببحث اقتصادي عن ميزانية البريد وفيه ناقشنا ودحضنا آراء الهيرشبرنجر بأدلة تاريخية عن بعض المؤرخين مستشرقين وشرقيين .

الفصل الرابع : وهو خاص بطرق البريد وسككه ، وبدأناه بكلمة عن الطرق الرومانية القديمة ، والمقارنة بين الإمبراطوريتين الرومانية والإسلامية ، وحاجة كليهما إلى الطرق العامة ثم أشرنا إلى أقدم وأشهر الطرق الرومانية ومميزاتها . . . أما طرق العرب فصدرناها بآراء المستشرقين عنها ، ثم سرعان ما تجد نفسك سائراً في هذه الطرق مبتدئاً بطريق المشرق ماراً بأشهر سككه حتى تقف على ضفاف سيحون وجيحون ، وإذا ما عدت إلى بغداد تأخذ الطريق إلى نواحي الأهواز وفارس وأصبهان وكرمان

وسجستان ، وكذلك تستطيع أن تأخذ طريقا ثالثا إلى نواحي الشمال صوب أرمينية والقوقاز . . . وطريق رابع ينتهى بك عند أم القرى وقبر الرسول اللتان تتصلان بطرق متشعبة إلى عواصم الأمصار جميعا . . . أما طريق المغرب فيبدأ من بغداد إلى الرقة فالثغور الشامية فالرملة إلى الفسطاط ، وأخيرا تأخذ طريقك إلى بلاد المغرب مارا ببرقة ومصلية بمسجد سيدي عقبة بالقيروان ومنها إلى تونس ، وإن رغبت في قرطبة والحجاء عبرت البحر إليهما . وفي تعداد هذه الطرق ذكرنا المسافة بين كل بلد وأخرى أحيانا بالفرسخ ، وأحيانا بالميل ، وأحيانا أخرى بالمرحلة ، وذلك حسب ماورد عند كل من الشيخين ابن خردادبه وقدامه . . . أما السكك وقد بلغ عددها ٩٣٠ سكة فتستطيع أن تقرأها وتعرف تعدادها لكل طريق على انفراد ، حيث وزع العمال على هذه السكك وناقشنا رأى شبرنجر الخاص بهذا . . . وأخيرا أغلقنا باب البحث في الفصل الرابع بكلمة عن الرباطات وعلاقتها بنظام البريد .

الفصل الخامس : وخصصناه لبريدنا القومى أعنى بريد مصر الإسلامية ، وتكلمنا عنه في عهدى العهد الأول من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠ — ٦٥٦ هـ) وهذا العهد قسمناه إلى مراحل ثلاث . الأولى من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ . والثانية أيام الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين . والثالثة أيام الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) والعهد الثانى خصصناه للبريد الظاهرى لأن مصر فى عهده بلغت أوج عظمتها من حيث القوتين المادية والمعنوية . . . وأعقب هذا ذكر طرق البريد فى مصر الإسلامية وتزويد محطاتها بالدواب والعمال وإنشاء الخانات لراحة المسافرين . . . كذلك تكلمنا عن إدارة البريد المملوكية وموظفيها وعمالها وعلاماتهم وشروط توظيفهم وقانون انتقال المسافرين من قطر إلى آخر . . . وينتهى هذا الفصل بإشارة قصيرة إلى حمل الثلج من جبل لبنان زمن الصيف إلى قصور سلاطين القاهرة بواسطة دواب البريد وعماله .

الفصل السادس : وجاء فيه ذكر البريد الجوى ، مبتدئين بتاريخ استخدام الحمام فى البريد قبل الإسلام ، وأن عناية خلفاء المسلمين بالحمام الزاجل لم تظهر بوضوح إلا فى عهد العباسيين والفاطميين ، واعتمد عليه مؤسس فرقة القرامطة فى إحداث الفتن فى أنحاء دولة بنى العباس . وكما كان للبريد العادى محطات كذلك كان الحال بالنسبة للحمام وعرفناها بالمطارات الجوية وأوردنا خطوط هذه المطارات فى مصر المملوكية ، وشرحنا طريقة استخدام الحمام فى نقل الرسالة من مكان لآخر وكيفية التراسل الحربى بواسطة فى العصور القديمة . . . والغريب أن الفاطميين الذين لم يرد عنهم ما يثبت اهتمامهم

بالبريد العادى يكونون أسبق الخلفاء للعناية بالبريد الجوى . وأخيرا يرى القارىء علامات الحمام وأنواعه وأثمانه والمنافسة على اقتنائه وأثر الحمام فى الحروب الحديثة وإقامة أبراجه إلى جوار المطارات الحربية .

الفصل السابع والأخير : ويبحث فى نظام التخابط بالمشاعل والطبول والماء وفيه يقرأ الباحث نبذا طريفة عن استخدام النار فى التخابط قبل الإسلام عند الفراعنة وبنى إسرائيل وعرب الجاهلية وأنواع النار عند الآخرين . . . وفى الدولة الإسلامية نرى للنار نظاما خاصا ومناور يشرف عليها جماعة المنورين وطريقة التراسل بالنيران والأدوار التى لعبتها النيران فى الحروب . . . وفى القسم الخاص بالطبول يشعر القارىء بأنه فى مهرجانات رسمية بين دق الطبول وعزف الموسيقى التى تشنف الأذان والتى تختلف نغماتها فى بلاد التركستان عنها فى الهند أو تونس الخ . . . وكانت الطبول وسيلة من وسائل نصر القوادى فى الحروب كما ذكرنا فى حادثة بابك والأفشين . . . أما البريد للمائى فكان معروفا من أقدم العصور إلا أنه كان نادرا فى العصر الإسلامى وقاصرا على جهات دون الأخرى ، على عكس البريد البحرى فقد ضرب الرقم القياسى بين جميع أنواع البريد وبفضله أحرزت أساطيل الإسلام الغلبة فى معارك البحر الأبيض المتوسط وغيره من بحار العالم المعروفة وقتذاك .

بقى أن نتساءل ما هى الفوائد التى جنتها الدولة والأفراد من نظام البريد ؟ وما هى الأغراض التى حققها هذا النظام بوجه عام ؟ . . . فى الواقع يستطيع القارىء بفطنته وذكرائه أن يستخلص هذه الفوائد ويلخصها فيما يأتى : —

(١) استطاع ديوان البريد أن يحقق رغبة الخلفاء فى استتباب الأمن وضبط الأداء الحكومية فى ربوع الإمبراطورية والإشراف الدقيق على جميع العمال سواء منهم من بأقصى المشرق أو المغرب . . . ولولا قيام نظام البريد ما استطاع الخليفة بشخصه الضعيف واتساع رقعة الامبراطورية وبطء المواصلات وقتذاك أن يهيمن بقوته وهيبته على العالم الإسلامى أجمع ، فيخشاه كل فرد من رعاياه كما خشيه معاصروه من أصحاب التيجان والعروش فيتبادلون معه الود والرسائل ، وما تبادل السفارات والوفود بين هارون الرشيد وشرلمان بخاف على أحد .

(٢) وعلى ضوء وطرق البريد المنبثة فى أنحاء المملكة ، وفى ظل محطاته وعماله تيسر الحج والزيارة لكل مسلم قادر وهو آمن على حياته وماله (١) . وغدت مكة تعج

بالعناصر والأجناس المختلفة التي تصاهرت بعضها مع البعض الآخر واختلطت دما وعقلا وفكرا ، ونتج عن هذا أن دخل البيت العربي دم فارسى أو رومانى أو سورى أو مصرى أو بربرى الخ . ولم يعد البيت العربى بيتا عربيا بل أشبه بعصبة أم نتيجة التوليد^(١) . . . على أن تيسير الحج لم يكن بالنسبة للمسلمين فقط بل وأيضا للمسيحيين فالأمير شكيب أرسلان^(٢) يقر أن الحجاج من الغرب ذهبوا فى سنة ٧٣٣ م إلى بيت المقدس والقاهرة وكانوا يجوبون آمنين فى الشام وفلسطين وزاروا قصر الخليفة نفسه فى دمشق ولم يعترضهم أحد ولا خافوا ولا حزنوا . ويقول فى موضع آخر^(٣) أن شلمان أمر رسوله اسحاق أن يتوسط لدى الرشيد فى تسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس حتى يزداد عدد التجار والزوار القاصدين إلى البقاع المقدسة . ويؤيد هذا مؤرخ آخر مسيحي وغربى هو الأستاذ بارتولد^(٤) . بقوله « يقر حجاج نصارى أوربا الغربية الناهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم فى البلاد الإسلامية كانت فى مأمن أكثر منها فى بلادهم » . هذا أثر البريد من الناحيتين الدينية والاجتماعية .

(٣) أما من الناحية الأدبية والعلمية فأنى أرى أن نظام البريد قد أعطى العلماء فرصة الارتحال من قطر إلى آخر طلبا فى العلم خصوصا فى العصور الإسلامية الأولى عندما تفرق الصحابة عند الفتح فى الأمصار فكان منهم من سكن فارس ومن سكن العراق ومن سكن الشام ومن سكن المغرب . . . وكل هؤلاء يحملون حديثا عن رسول الله ، أخذ عنهم التابعون ومن بعدهم . وكان فى كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف فى الأمصار الأخرى . فجد العلماء والمحدثون أمثال المقدسى والطبرى والشافعى والأوزاعى فى الرحلة يأخذون الحديث عن أهلها ويجمعون ما تفرق منها^(٥) . وغدت مهمة نظام البريد بطرقه وعماله ودوابه وسككه أن يذلل كل عقبة تعترضهم ويسهل كل مشقة تقف فى طريقهم . . . وهكذا كانت المملكة الإسلامية فى سهولة انتقال العلماء من مكان فيها إلى مكان ، كأنها رقعة شطرنج وهم ييادقها فترى العالم فى المشرق فإذا هو فى الأندلس ، وفيما هو فى الأندلس إذا هو فى العراق ، وفيما هو فى العراق إذا هو بمصر والشام ، لا يعوقهم جبل ولا نهر ولا يفت فى عضدهم وعزمهم وحشة الطريق أو صعوبته وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها والبحار وأمواجها . . . على أن قيام علاقات وصلات وثيقة

(٢) تاريخ الغزوات ص ١١٦

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥١

(١) فجر الإسلام ج ٢ ص ١٠٨

(٣) تاريخ الغزوات ص ١٣٢

(٥) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٧٠

بين الولايات الإسلامية المختلفة في ظل نظام البريد وتحت سلطان خلافة إسلامية واحدة ساعد على نقل الحضارة الإسلامية من يد إلى يد ، وعلى إحداث اللقاح بين العقل العربي والعقل الأجنبي من فارسى ومغربى الخ . فتاريخ الطبرى مثلاً وقد سبق الكلام عنه ألف في بغداد في القرن الرابع الهجرى والذي يعتبر أوسع مرجع في العصور الإسلامية الأولى انتشر في القرن نفسه في العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه . . . بدليل أنه ألف في قرطبة للحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخى مقتبس من هذا الكتاب — مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس — كما كتب في بخارى ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور السامانى (١) .

(٤) ومن الناحيتين الاقتصادية والتجارية نرى أن نظام البريد عمل على تنشيط التجارة بين الممالك الإسلامية ، ووجد التجار في طرق البريد ما يؤمنهم على حياتهم وأموالهم وأمتلات الأسواق التجارية بالمنتجات المتنوعة ، فترى في أسواق مصر منتجات الهند والسند وفي أسواق سمرقند منتجات مصر والشام . ووجد العرب في الطرق فائدة كبيرة إذ فتحت لهم باباً للرزق كبيراً ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يستخدم في تجارته كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً . . . كما وجدت الدولة في النشاط التجارى وسيلة ملء خزائنها بالأموال التى تجبىها من التجار نظير حمايتها للطرق وتسهيل سبل الانتقال من مصر إلى آخر .

ملحق للرسالة

خاص بمقارنة وحدة المقياس الطولى عند العرب به فى العصر الحاضر

سبق أن أشرنا فى الفصل الأول إلى طريقة قياس المسافات عند العرب ، ولكن عن لى أن أذكر أن موضوع بحثى هذا قد كشف لى عن ظاهرة قوية تعتبر دليلا واضحا وبرهانا ساطعا على ما وصل إليه العرب من دقة التصور وعمق التفكير فى مختلف شئون الدولة . فكما نرى فى عصرنا الحالى اتفاق الدول على اتخاذ الميل الإنجليزى (= ١٧٦٠ ياردة) وهو مضاعفات للياردة فالقدم فالبوصة وحدة للمقياس الطولى ، أو الكيلومتر الفرنسى (= ١٠٠٠ مترا) وهو مضاعفات للمتر فالسنتيمتر فالمليمتر وحدة أخرى مصطلح عليها كوحدة للأطوال . . . بينما هذا كله قد ألتفق عليه بين الدول الحديثة نجد أن العرب قد سبقت هذه الدول الغربية فى استنباط وحدة عربية لقياس المسافات بين البلدان المختلفة للاستعانة بها على إدارة شئونهم ، سموها بريدا وقد أجمعت كل الروايات التاريخية على هذه التسمية .

أما تقدير البريد فقد اختلف فيه القول ، فابن فضل الله العمري^(١) يقول أن البريد المحرر هو أربعة فراسخ ، والفرسخ هو ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ، والإصبع أربع شعيرات ، ظهر واحده إلى بطن أخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل ، فهذا هو البريد المعمول عليه كل عمل . وينذكر القلقشندى^(٢) أن البريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى ، وهو أربعة وعشرون إصبعا ، كل اصبع ست شعيرات معترضات ظهر أحدها لبطن الأخرى ، والشعيرة سبع شعيرات معترضات من ذنب بغل أو برذون . ومن مذكرة غير مطبوعة للمهندس الدرسي^(٣) يتبين لنا أن الفرسخ ثلاثة أميال هاشمية ، والميل الهاشمى قدر منتهى مد البصر عن الأرض ، وهو أن ينظر إلى شخص من أرض مسطحة فلا يدرى أهو رجل أو امرأة أو هو ذاهب أو آت . ولم يرد فى كتب اللغة ماهى المسافة المعبر عنها بالميل ، أما فى كتب الفقه^(٤) فقد ذكر أن مسافة القصر فى

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٦ .

(١) المصطلح الشريف ص ١٨٤ .

(٣) مدير قلم الحساب بمصلحة المساحة المصرية .

(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٧٢ .

الصلاة هي أربعة برد أو ستة عشر فرسخا ، وهي مسيرة اثنين وعشرين ساعة بالإبل ،
وقد رت هذه المسافة بما يساوى ٨٨ كيلومترا . وبذلك يكون الميل الهاشمى ١٨٣٣ مترا
وهذا يساوى تقريبا ما يعبر عنه بالميل البحرى ، وهو القوس من خط الاستواء المقابل
لدقيقة واحدة (ومقداره ١٨٥٤) وعلى هذا الاعتبار يكون الفرسخ ٥٥٠٠ مترا
أو ٣٤٢ ميلا^(١)

ومن أعجب ما صادفنى فى هذا البحث أن أرى العرب وقد اعتادوا أن يعبروا عن
كل شىء فى حياتهم بالشعر ألا يفوتهم أن يتخذوا من وحدة القياس عندهم مادة
خصبة لصوغ شعرهم ومناجاة بعضهم . فمن مختارات الفقيه محمد سرسى مأمون
لتعريف مقدار البريد .

إن البريد من الفراسخ أربع ولفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف أى من الباعات قل والباع أربع أذرع فتبعوا
ثم الذراع من الأصابع أربع من بعدها العشرون ثم الإصبع
ست شعيرات فظهر شعيرة منها إلى بطن الأخرى توضع
ثم الشعيرة ست شعيرات فقط من ذيل بغل ليس عن ذا مرجع
فكما نرى أن أحدهم ذكر الباع ليكون من أجزاء الميل ، نجد الآخرين ذكروا
الذراع ليكون من أجزائه مباشرة ، على أنهم جميعا قد أجمعوا على الحد الأدنى لأصغر
جزء من هذا البريد يمكن تصويره ويمكن تقديره ، وهو اختيار بديع حقا يدل على
اتساع التفكير وطول الروية أن يقع على قطر شعرة البغل أو البرذون ، لأن اختيار قطر
الشعرة يعتبر أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه فى مختلف الأمكنة والأيام ، فلا يختلف
بالأبيض ولا بالأسود من الخيل ولا بفرس الشمال أو الجنوب . ولكن أولهم قال أن
الشعيرة أربع شعيرات والثانى قدرها بسبع شعيرات والأخير ذكرها بست شعيرات وهذه
ناحية تحتاج إلى توضيح . وأذكر أن تضارب هذه الروايات يرجع أصلا إلى اختلاف حجم
ونوع الشعيرة . ولا يفوتنى أن أشير إلى إعجابى بالأستاذ الدرسي لاجتهاده فى تقريب
مقدار الميل الهاشمى إلى العقل والدهن .

وقد دفعنى حب المقارنة والتجربة بين القديم والحديث أن أقوم بعملية حسابية على
« أساس الرأى الأخير » لأعرف النسبة بين الميل العربى والكيلو متر الفرنسى أوالميل
الانجليزى المستعملين فى زمننا هذا . وخلاصة هذه التجربة أنى تمكنت من قياس قطر

(١) مذكرة غير مطبوعة للأستاذ الدرسي .

شعرة الحيل بواسطة آلة القياس الدقيقة المعروفة بالميكرومتر « Micrometre »^(١)
فتبين لى أن : —

قطر الشعرة الواحدة	= ٠.٠٠٧ ر.	من البوصة
والشعيرة = ست شعرات	= ٠.٠٤٢ ر.	» »
والأصبع = ست شعيرات	= ٠.٢٥٢ ر.	» »
والذراع = ٢٤ أصبعا	= ٦.٠٤٨ ر.	بوصة
والباع = أربع أذرع	= ٢٤.١٩٢ ر.	»
والميل = ألف باع	= ٢٤.١٩٢٠ ر.	»
	= ٦٧٢ ر.	ياردة
	= ٦١٥ م.	مترا
والفرسخ = ثلاث أميال	= ٢٠١٦ ر.	ياردة
	= ١٨٤٠ م.	مترا
والبريد = أربعة فراسخ	= ٨٠٦٤ ر.	ياردة
	= ٧٣٧٥ م.	مترا

ومن هذه النتيجة يتضح لنا الفرق الواضح بين مقدار الميل العربى بالمترا كما ورد فى مذكرة الأستاذ الدراسى (= ١٨٣٣ مترا) وكما ورد فى مقدمة الهيرشبرنجر (= ٢٠٠٠ مترا) بينما فى تقديرنا قد بلغ ٦١٥ مترا . ولسنا نعرف أينما أصح ولنترك الحكم للقارىء ، ولما يخدمنا أبحاث خاصة بهذا الموضوع فى المستقبل .
وحسبى أن أذكر فى نهاية بحثى هذا حاجة الأمة العربية الموحدة فى اللغة والدين والى تسعى لوحدة السياسة والاقتصاد أن تعمل لوحدة البحث العلمى والعلم وأن تعيد للميل العربى ماضيه ، أو أن تتفق على أساس لوحدة جديدة للأطوال وتكون دولية معترف بها ، بدلا من استعمال الميل الانجليزى أو الكيلو متر الفرنسى يعرفها البدو الصحراء والحضر فى المدرسة والمدينة ونكون بذلك قد أحيينا تراث الماضى واتفقنا فى الحاضر .

هذا خلاصة ما قمت به من بحث وتنقيب واستقصاء عن مادة « نظام البريد فى الدولة الإسلامية » وكان رائدى أبدا الصدق والإخلاص للحق ، فإن أصبت فحمد الله على توفيقه ، وإن أخطأت فالحق أردت ولكل امرئ ما نوى .

(١) قام بهذا التحقيق العلمى الأستاذ محمود حسان سعداوى المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة .

مصادر الرسالة

نورد في الثبت الآتي مجموعة المصادر العربية والإفرنجية التي اعتمدنا عليها وقد رتبنا
أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء : —

(أولا) مصادر قديمة :

- (١) ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : علي بن أحمد بن أبي السكرم
الكامل في التاريخ : ١٢ جزءاً طبعة مصر ١٢٧٤
- (٢) ابن الأثير : (٦٠٦ هـ و ١٢١٠ م) محمد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري
النهاية في غريب الحديث والأثر . المطبعة العثمانية بمصر
- (٣) ابن بطوطة : (+ ٧٧٩ هـ و ١٣٧٧ م) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله
تحفة النظار في غرائب الأمصار . جزأين . المطبعة الأميرية
- (٤) الجاحظ : (٢٢٥ هـ و ٨٣٩ م) أبو عثمان بن بحر
كتاب الحيوان ٧ جزء
- (٥) ابن حوقل : (٣٦٧ هـ و ٩٧٧ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل
المسالك والممالك . طبعة ليدن
- (٦) ابن خردادبه : (٣٠٠ هـ و ٩١٢ — ٩١٣ م) : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
المسالك والممالك . طبعة ليدن
- (٧) ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ م) : أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد
(١) مقدمة ابن خلدون . طبعة بولاق
- (٨) : (ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٧ جزأ . القاهرة ١٢٨٤ هـ
- (٩) السامري : () : أبو الفتح بن أبي الحسن
تاريخ اليهود . طبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م
- (١٠) السيوطي : (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . جزأين . مطبعة
الموسوعات بمصر
- (١١) ابن شاهين الظاهري (٨٧٢ هـ و ١٤٦٧ م) : فرس الدين خليل
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . طبعة باريس ١٨٩٣ م

- (١٢) الاصطخرى : (٣٠٩ هـ و ٩٢١ م) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي
مسالك الممالك . طبعة ليدن
- (١٣) الطبرى : (+ ٣١٠ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
(١) تاريخ الأمم والملوك طبعة دي غويه ٧ جزء (ليدن
١٨٨١ - ١٨٨٣ م)
- (١٤) : (ب) تفسير الطبرى
- (١٥) عريب بن سعد : (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ م) : القرطبي
صلة تاريخ الطبرى . القاهرة ١٢٨٤ هـ
- (١٦) العمري : (٧٤٩ هـ و ١٣٤٨ م) شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله
التعريف بالمصطلح الشريف . طبعة مصر
- (١٧) أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه
المختصر في أخبار البشر . طبعة ليدن
- (١٨) القرآن الكريم
- (١٩) القلقشندي : (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
صبح الأعشى في صناعة الإنشا : ١٤ جزء القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م
- (٢٠) المارودي : (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري
الأحكام السلطانية . القاهرة ١٢٩٨ هـ
- (٢١) المسعودي : (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
مروج الذهب ومعادن الجوهر . طبعة دار الرعاء ببغداد
- (٢٢) مسكويه : (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو علي أحمد بن محمد
كتاب تجارب الأمم . طبعة ليدن
- (٢٣) المقدسي : (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . طبعة ليدن ١٩٠٦
- (٢٤) المقرئ : (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي
(١) السلوك في معرفة دول الملوك . طبعة دار الكتب
- (٢٥) : (ب) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . مطبعة
النيل بمصر ١٣٢٥ هـ
- (٢٦) ابن منظور : (٧١١ هـ و ١٣١١ م) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الحزرجي
الإفريقي - لسان العرب

(٢٧) ياقوت : (٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي
معجم البلدان : ١٢ جزء . القاهرة ١٣٢٣ هـ

(ثانياً) مصادر حديثة :

- (١) و (٢) أحمد أمين : الأستاذ : (١) فجر الإسلام ج ١
(ب) ضحى الإسلام جزءان
- (٣) پارتولد . الأستاذ : تاريخ الحضارة الإسلامية
- (٤) جمال الدين سرور : الدكتور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده
- (٥) جمال العربي : تاريخ البريد في العالم
- (٦) جورجى زيدان . المرحوم الأستاذ : تاريخ التمدن الإسلامى ٦ جزء
- (٧) حسن إبراهيم حسن . الدكتور : (١) النظم الإسلامية
(ب) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣
- (٨) الحضرى . المرحوم الأستاذ محمد : محاضرات تاريخ الدولة العباسية
- (٩) دائرة معارف البستانى ج ٥
- (١٠) » المعارف الإسلامية ج ٣
- (١١) » معارف القرن العشرين ج ٢
- (١٢) سليم حسن . الأستاذ : مصر القديمة جزءان
- (١٣) شكيب أرسلان . المرحوم الأمير : تاريخ غزوات العرب
- (١٤) كرد على . الأستاذ محمد : (١) خط الشام ج ١
- (١٥) (ب) الإدارة الإسلامية في عز العرب
- (١٦) (ج) الإسلام والحضارة العربية
- (١٧) عبد الحميد العبادى . الأستاذ : مذكرات غير مطبوعة
- (١٨) مصلحة البريد المصرية : تاريخ البريد في مصر
- (١٩) الكنانى . الأستاذ : التراتيب الإدارية جزأين
- (٢٠) نعمان أنطون . المرحوم : الطائر الفريد في وصف البريد

(ثالثاً) مجلات :

- (١) الراديو المصرى : العدد ٤٦٤
- (٢) الرسالة : العدد ٤٢ من السنة الثانية
العدد ١٠٧ لسنة ١٩٣٥
- (٣) المستمع العربى : العدد السابع من السنة الرابعة

- (٤) المقتطف : عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧
 (٥) الهلال : المجلد السابع من السنة العاشرة
 (٦) الوقائع المصرية : العدد ١٥٢ الصادر في ١٦/٨/١٩٤٢
 (رابعاً) المصادر الإفرنجية :

- 1) Amir Ali. Sayed
A Short History of the Saracens. London 1931.
- 2) Arnold : W. T.
The Roman System of Provincial Administration. Oxford 1906.
- 3) Charles Diehl :
The Government and Administration of the Byzantine Empire-
Cambridge Ancient History. Vol. X-II.
- 4) Christensen, A. :
L'Empire des Sassanide.
- 5) Gibbon, Edward :
The Rise & Fall of the Roman Empire-London.
- 6) Henri Lamens :
L'Empire des Omayyades.
- 7) Herbert, M. J. L.
The Mongols-Cambridge Mediaval History Vol. IV.
- 8) Lamb, H.
La Vie de Tamerlan — Paris 1931.
- 9) Lane Poole, Stanely.
(a) A History of Egypt in the Middle Ages, 2nd Edition.
(b) Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem. 1898.
- 10) Lestrangle, G.
The lands of the Eastern Caliphate. Camphridge 1930.
- 11) Mez, Adam.
Die Renaissance des Islams.
نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر
- 12) Nassiri Khosrau :
Relation du Voyage en Syrie, en Palestine et en Egypte.
- 13) Pierre Larousse :
Grand Dictionnaire Universel — Vol XII. Paris.
- 14) Quatrèmere : Histoires des Sultans Mamlouks de l'Egypte. Paris.
Vol. Ier.
- 15) Sauvaget, J.
La Poste au Cheveaux dans L'Empire des Mamelouks. Paris 1941.
- 16) Sprenger :
Die Poste — Und Reiserouten des Orients Leipzig 1864.
- 17) Wiet et Henri Murier :
Precit de L'histoire de L'Egypte.
- (18) Encyclopaedia Britannica , Fourteenth edition .
(See post in vol '18 and Pigeon Post in vol ' 17.)

الفهرس

صفحة	
١	تصدير للأستاذ عبد الحميد العبادي
١٨ — ١	تمهيد ويبحث في مصادر الرسالة
	الفصل الأول

٣٨ — ١٩	البريد قبل الإسلام
٢٢ — ١٩	١ — معنى كلمة بريد
٢٤ — ٢٢	٢ — البريد عند الجماعات والأمم القديمة
٢٥ — ٢٤	٣ — نصيب الأفراد من نظام البريد
٢٨ — ٢٥	٤ — البريد عند الفراعنة
٣١ — ٢٨	٥ — البريد عند البطالمة
٣٤ — ٣١	٦ — البريد عند الرومان
٣٨ — ٣٥	٧ — البريد عند الفرس

الفصل الثاني

٦٥ — ٣٩	البريد في الدولة الإسلامية
٤٠ — ٣٩	١ — بريد الجاهلية
٤١ — ٤٠	٢ — المقصود من الدولة الإسلامية
٤٧ — ٤٢	٣ — البريد النبوي
٥١ — ٤٧	٤ — بريد الخلفاء الراشدين
٥٣ — ٥١	٥ — بريد الأمويين
٥٦ — ٥٣	٦ — بريد المروانيين
٦٥ — ٥٦	٧ — بريد العباسيين
٥٩ — ٥٦	(أ) عصر المنصور والمهدي
٦٢ — ٥٩	(ب) عصر الرشيد والمأمون
٦٥ — ٦٢	(ج) عصر الخلفاء المتأخرين

الفصل الثالث

٨٣ — ٦٦	ديوان البريد وعماله
٦٩ — ٦٦	١ — صاحب البريد
٧٥ — ٦٩	٢ — موظفو البريد
٧٦ — ٧٥	٣ — عمال البريد في الولايات
٧٨ — ٧٦	٤ — بريد الرجالة
٨ — ٧٨	٥ — بريد الخيالة
٨٣ — ٨	٦ — ميزانية البريد

الفصل الرابع

- طرق البريد وسككته ٨٤ — ١١٨
- ١ — الطرق عند الرومان ٨٤ — ٨٨
- ٢ — الطرق عند العرب (إلى الشرق ونواحيه — إلى الشمال — إلى مكة — إلى المغرب ونواحيه الخ.) ٨٨ — ١٠٩
- ٣ — السكك ١٩ — ١١٥
- ٤ — الرباطات ١١٥ — ١١٨

الفصل الخامس

- البريد في مصر الإسلامية ١١٩ — ١٣٣
- ١ — البريد المصري من التتج حتى عصر الظاهر بيبرس ١١٩ — ١٢٣
- ٢ — بريد السلطان الظاهر بيبرس ١٢٣ — ١٢٨
- ٣ — إدارة البريد المملوكي ١٢٨ — ١٣٣

الفصل السادس

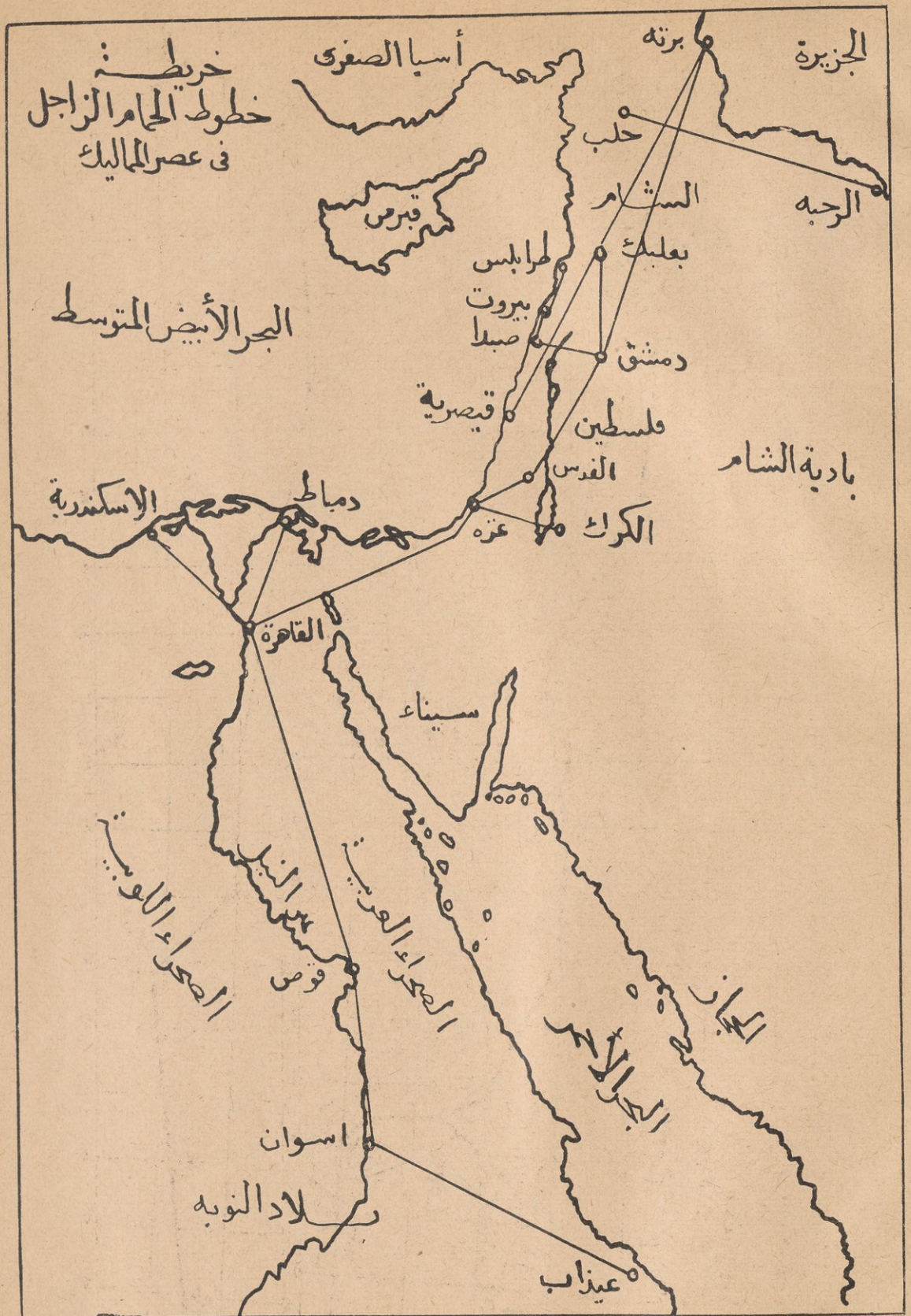
- البريد الجوي ١٣٤ — ١٤٧
- ١ — بريد الحمام الزاجل قبل الإسلام ١٣٤ — ١٣٦
- ٢ — بريد الحمام الزاجل في الدول الإسلامية ١٣٦ — ١٣٩
- ٣ — المطارات الجوية ١٣٩ — ١٤٢
- ٤ — حمام الزاجل في مصر الإسلامية ١٤٢ — ١٤٧

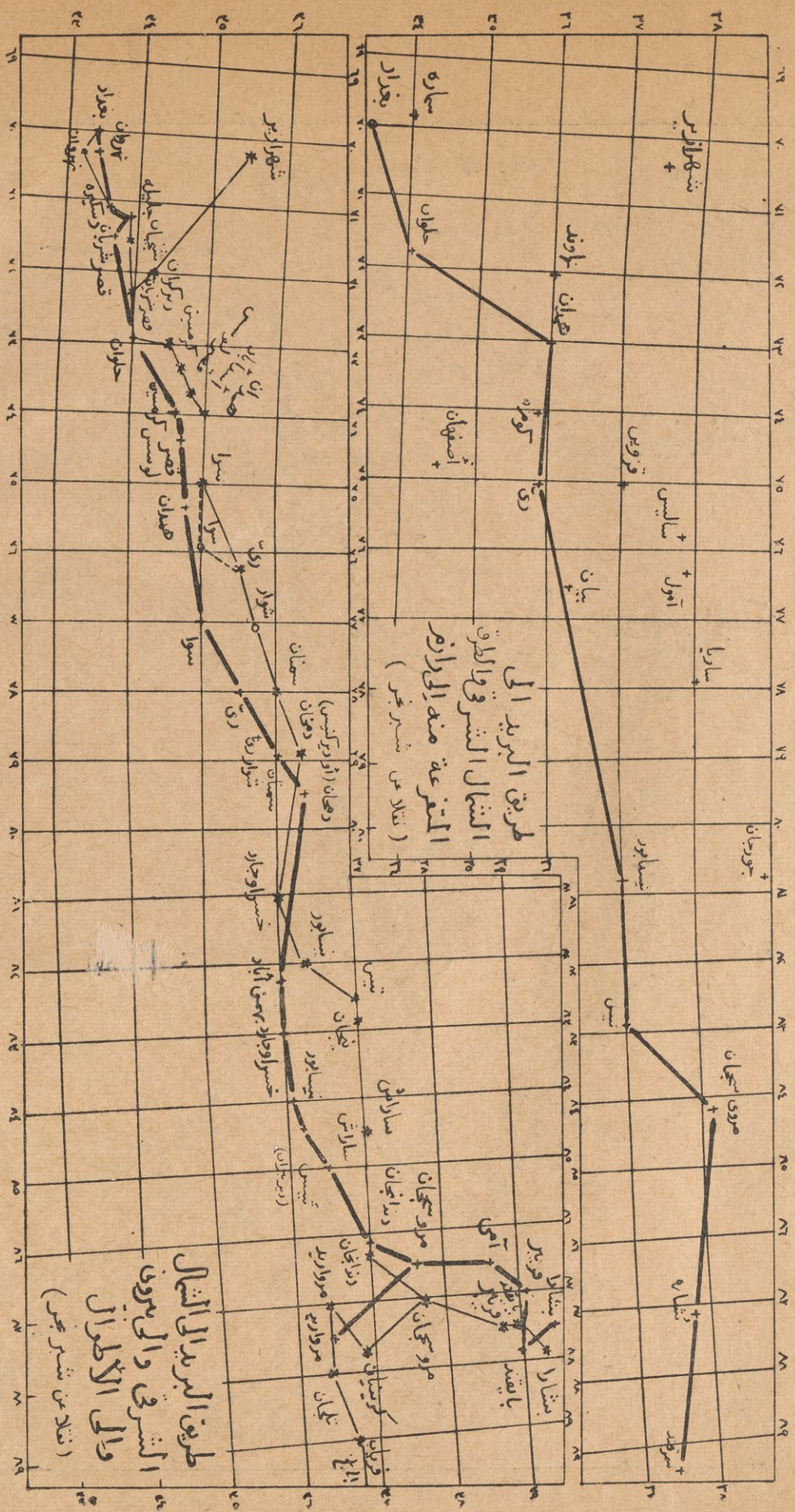
الفصل السابع

- نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء ١٤٨ — ١٥٨
- (١) المشاعل : —
- ١ — قبل الدولة الإسلامية ١٤٨ — ١٥٠
- ٢ — في الدولة الإسلامية ١٥١ — ١٥٣
- (ب) الطبول ١٥٤ — ١٥٦
- (ج) البريد المائي والبحري ١٥٧ — ١٦٠
- الخاتمة ١٦٠ — ١٦٦
- ملحق خاص بمقارنة وحدة المقياس الطولي عند العرب ١٦٧ — ١٦٩
- في العصر الحاضر ١٦٩ — ١٧٣
- مصادر الرسالة ١٧٠ — ١٧٣
- خرائط لبعض طرق البريد البري والبحري ١٧٦ — ١٧٩
- تعريف للكتاب بالإنجليزية ١٨٠

[illegible]

- جدول لبيان الطرق
- ١ - من القاهرة الى قوص
 - ٢ - من قوص الى بلاد النوبة
 - ٣ - من قوص الى سواكن
 - ٤ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق وردان)
 - ٥ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق قلوب)
 - ٦ - من القاهرة الى دمياط
 - ٧ - من دمياط الى غزة





جدول رقم (١)

بين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرق والطرق المتفرعة منه إلى رازم « نقلا عن شبرنجر »

جدول رقم (٢)

بين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرق وإلى بيروني وإلى الأطوال « نقلا عن شبرنجر »

من بغداد إلى بخارا جدول رقم (١) من بغداد إلى بخارا جدول رقم (٢)

المسافة بالفرسخ	إلى	من
٤	نهر وآن	بغداد
١٢	دسكيره	نهر وآن
٧	جليلة	دسكيره
٩	شنجنیان	جليلة
٦	قصر شریان	شنجنیان
٤	حلوان	قصر شریان
٣٠	کرمسین	حلوان
١٤	قصر لوسس	کرمسین
٧	أسد آباد	قصر لوسس
٨	همدان	أسد آباد
٣٧	سوا	همدان
٢٤	ری	سوا
٣١	شوار	ری
٢٢	سمنان	شوار
١٧	دمغان	سمنان
٥٨	خسر او جارد	دمغان
١٥	نیسا بور	خسر او جارد
١٢	تیس	نیسا بور
٦	نیجان	تیس
٢٠	ساراش	نیجان
٢٠	داندانجان	ساراش
١٦	مرو سحجان	داندانجان
٣٨	فر بیر	مرو سحجان
١٢	بایقند	فر بیر
٥	بخارا	بایقند
٢٥	کرینیان	مرو سحجان
٢٢	مروادید	کرینیان
٢٣	تلجان	مروادید
١٩	فریاب	تلجان
—	بلخ	فریاب
٢	دیر کران	قصر شریان
١٨	شهر ازیار	دیر کران

المسافة بالفرسخ	إلى	من
٤	نهر وآن	بغداد
١٢	دسكيره	نهر وآن
٧	جليلة	دسكيره
١٥	قصر شریان	جليلة
٤	حلوان	قصر شریان
٣٠	کرمسین	حلوان
١٤	قصر لوسس	کرمسین
١٥	همدان	قصر لوسس
٣٧	سوا	همدان
٢٤	ری	سوا
٣١	سمنان	ری
١٧	دمغان	سمنان
٤٦	بهمن آباد	دمغان
١٢	خسر او جارد	بهمن آباد
١٥	نیسا بور	خسر او جارد
١٣	تیس	نیسا بور
٢٥	ساراش	تیس
٢٠	دندانجان	ساراش
١٦	مرو سحجان	دندانجان
٣٦	آمی	مرو سحجان
٢	فر بیر	آمی
—	بایقند	فر بیر
—	بخارا	بایقند
٤٧	مروادید	مرو سحجان

Introductory Note

The Post System in Moslem State

A thesis for which the author has been granted the M. A. degree from the Faculty of Arts, Cairo University. As it was written with the guidance of Professor Abd el Hamid el Abady, previous dean of the Faculty of Arts, Alexandria University, he has been so kind as to introduce the book.

The book begins with an explanatory note and a short criticism of the main references on which the author relied. The first chapter gives an idea of the Egyptian, Roman and Persian Post and how it developed for state affairs and not for personal needs.

In the second chapter the author surveys the history of the post during the time of Prophet Mohammed, the four khalifs, the Omayyades and the Abbassides. The effect of the Roman and Persian Post is clear.

The department of post, its administrator, officials, couriers, horsemen and finance are dealt with in the third chapter. The writer enumerates the Post roads, the post stops and the inns in the Islamic Empire in the next chapter.

The fifth chapter is devoted to the Egyptian Post from the Arabic conquer to the epoch of es-Sultan ez-Zahir Bebars.

The pigeon Post, pigeonry, various kinds of pigeons and its roads occupy the sixth chapter. The last chapter explains the different ways of sending messages, by fire, drums and water.

In conclusion, the post system helps the Khalifs to carry on their duty in the whole empire from end to end as it enables the pilgrimages to go to Mecca & Jerusalem, and the intellectuals to go to and fro. Cultural and commercial relations develop due to the post system.

Cairo 1953

Nazir Hassaan Saadawi.

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٦	وأعبي	وأعني
٥	١٥	الحالة	الحاجة
٦	٢٧	زرعه	زرعه
١٢	٢٤	الفريد	الفريد (وفي غيرها من الصفحات حيث ذكرت)
٢٠	١٦	الفرائق	الفرائق
٣٠	١٦	Oxgrhgnchos	Oxyrhynchos
٣١	٢٠	الغاليين	الغاليين
٣١	٢٩	pirre	pierre
٣٢	١٧	القسطنطينيه	القسطنطينية
٣٣	١	جتنيان	جستنيان
٣٦	٤	بختم	تختم
٤٠	٤	جمالا لها	جمالها
٤٧	٢	يختمون	يختمون
٤٩	٩	ايا فاتح	أيا فاتحا
٥٣	١٠	مستعينا	معتمدا
٥٣	٢٣	على انفراده	على انفراد
٥٥	١٩	أفعم هشام	تعجب هشام
٥٦	٢٤	وأن كانت	وإن كانت (نأسف لأخطاء المهمة المطبعية في بعض الصفحات)
٦٠	٢٢	أخير	أخير
٧٣	٢٥	أخذ	آخذ
٧٨	١٧	والخيل هي	والحصان هو
٨٠	١١	والفرائقين	والفروانقيين
٨٥	٢٣	laps	Alps
١١٠	٢٠	دينوار	دينور
١٢٢	٦	الاخشدين	الإخشيدين
١٢٩	٧	وقد عهد إلا	وقد عهد إلى
١٣٣	١	المحاذي	المحازي
١٧٣	٢٤	L'Egyptn	L'Egypte



[illegible]

1976 JUN 1

HE
7316
S3x
1953

B12638791
I14070716



1 0 0 0 0 1 2 0 1 7 7

